HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

إبراهيم القاضي

كَف الدراويش

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

كفر الدراويش روايـة
إبراهيم القاضي
الغلاف: أحمد مراد
رقم الإيداع: ٢٦٣٦٥ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي: ٣ ـ ٠٢٨ ـ ٨٢٤ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
جميع الحقوق محفوظة

١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر
هاتف: ٠٢٢٠٨١٢٠٠٦
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing

إلى أبنائي
(روان وعمر وريماس)
طبعًا

يـا آل الدكـر
لا عاصم اليوم لكم من قدر محتوم.
نوح راح لحاله والطوفان استمر
مركبنا تايهة لسه مش لاقية بـر
آه م الطوفان وآهين يا بـر الأمان
إزاي تبان والدنيا غرقانة شر
عـجبــي!!
صلاح جاهين

الفصل الأول

١

«سألوذ بالصمت دقائق معدودة، حتى يغادر الرجل ذو الوجه الخشبي الجامد، تتبعه الفتاة المسلوعة، التي تبدو كعود قصب مصه رجل بخيل، لم يترك فيه قطرة.. على كل حال.. لحظات ويرمقني هذا الأبله، وسيوعز إلى عود القصب الممصوص أن يخزّني في ذراعي، هكذا طلبت وألححت في طلبي، فلا يعقل لإنسان مثلي في تمام الرجولة، ورجحان العقل، دكر من صلب دكر، أن يكشف إليتيه لكل من هب ودب، ولو كان لهؤلاء اللائي احترفن وخز الإبر.

آه.. بنت الحرام، وخزتني في ذراعي، كأنها تروم بتره، إنها المؤامرة، هن صنف ينبغي اقتلاعه، كما اجتث الغرب النازية، هن أشد خطرا وأعظم بلاءً، فكيدهن والعياذ باللـه عظيم.. سأذيع عليكم سرًا يا إخواني الرجال، احفظوه في صدوركم، حتى لا يصل إلى مسامع الخونة والمتآمرين، فتبوء خطتي لإنقاذ الإنسانية بفشل مبين.. يومًا ما سوف أخرج من هذا السجن، وأفك خيوط المؤامرة التي نسجها هؤلاء الأشرار ضدي، وأصير حرًا طليقًا، وسأُتوّج ملكًا للأندلس.

سأقود حركة العدالة للإنسانية، وسيكون على رأس أهدافها أو مطلبها الوحيد، اجتثاث هذا الصنف الذي يكيد للإنسان كيدًا عظيمًا.. الحياة قصيرة، أقصر من أن أنتظر هؤلاء الأوغاد الذين يأتون إليّ كل ثماني ساعات لإعطائي الإبر والأقراص.. سأحكي وأنا أشيّعهم وهم خارجون بنظرات تصبّ عليهم اللعنات، فهذا الرجل الخائن متآمر على بني جنسه لصالح حزب الأشرار أعداء الإنسان..

سأدخل في الموضوع ولن أطيل، فقد غادرا العنبر، وها أنا الآن أجلس وحيدًا فوق فراشي، دون جليس أو ونيس.. آثر أبناء الحرام أن يتركوني معزولًا، لأنهم يعتبروني خطرًا داهمًا يهدد وجودهم.

كان يومًا من أيام بؤنة، شديد القيظ، كأن القيامة قامت، ودخل الناس أفران جهنم، بالطبع بسببهن فهن أساس البلايا.. وفجأة تبدّل حال تلك السماء الصافية، وبدت على صفحاتها غيمة ندية، وسقط ندف الثلج صافعًا قفاي.. كان يومًا مشهودًا، يومًا فارقًا في تاريخ بني الإنسان، يوم انتصرت فيها قوى الشر الغادرة على قوى الخير، كان يوم زفافي!

ولكن قبل أن أقصّ عليكم حكاية يومي المشهود، من الواجب عليّ يا إخواني، أن أعود بالذاكرة إلى زمان.. شأن كل العظماء الذين قادوا الإنسانية في سبيل التحرر، يجب أن يُذكر تاريخ ميلادي وظروف نشأتي، ودواليك..

أنا المحرر العظيم بسيوني شعبان الدكر، من مواليد إحدى القرى على أطراف محافظة الدقهلية، تُوفي الأب عقب ولوجي للدنيا، بعدما أكمل رسالته السامية ومنح الإنسانية محررًا عظيمًا لها.. فلم الحياة إذن؟ ككل العظماء، لم أكن من راغبي التعليم، ولولا امرأة عمي، التي ما أصابها الملل يومًا قط، ولا أمسكت لسانها الطويل برهة واحدة من تقريعي وتوبيخي والسخرية مني؛ لما أكملت دراستي حتى حصلت على دبلون الزراعة، لا أخفي عليكم سرًا (احبسوه في صدوركم لكي لا تشتمه أنوف الأوغاد).. كنت كحمار عمي الضرير العجوز، الذي كان يتخطى القناة مرة ويسقط فيها مرات، هكذا كنت أنتقل من صف إلى صف، كمثل هذا الحمار، السنة بسنتين ويمكن ثلاث، وفي شهادة الدبلوم كانت أربع سنوات..

بسيوني الدكر هكذا أسموني، احفظوا هذا الاسم جيدًا، وأقبلوا عليّ بأسماعكم وأبصاركم، فالأمر جدّ خطير، وما محدثكم إلا نذير، فالتفوا حولي، واعتصموا جميعًا بحبل جماعتي، فوجودكم فوق أرض هذا الكوكب العتيق، محل تهديد ووعيد، من أهل الشر وصنّاعه، اللائي لايتورعن أبدًا عن إلحاق الأذى والضرّ بنا نحن الرجال المساكين، اسمعوا وعوا، وانبذوا الخونة أمثال هذا الطبيب من صفوفكم..
قسمًا لن تفلت المجرمات من عقاب يوم آتٍ لاريب فيه، انهضي يا نبوية يا أمي من جوار هذا الخائن زوجكِ، وتذكّري آني لكِ بالمرصاد، وحق لك أن تفزعي، فالحساب آتٍ آت..
وأنتِ يا امرأة عمي ذات اللسان المتبرئ منكِ، وغيركِ من النسوان الأعداء اللائي ألحقن الأذى بزعيم الجماعة، لكل منكن دوره في طابور الانتقام.. فحقّ عليكنّ أن تفزعن وأن تجهزن ليوم لا ريب فيه..
الويل لكل من خان عظم «التربة»، ورفع راية العصيان ضد الجد المؤسس وأحفاده من بعده».
هكذا كان يخطب النزيل الوحيد في عنبر المرضى النفسيين شديدي الخطورة في المستشفى الميري يوميًا، للأسرة الشاغرة من حوله.

٢

الشمس غائبة، والسماء غائمة، والناس كالنمل ينتشرون في الحقول، هذا يعزق والثاني يروي وآخر يقص الحشائش..
سقط جسده النحيل فجأة فوق الجسر، وأحدث ارتطامًا تاه وسط الأصوات الهادرة التي تصيح وهي تعمل لأجل الحماس والهمة.. يريد الاستنجاد والصراخ، لكن اللسان معقود، والحيل مهدود، والنفس شبه مقطوع، لم يعد قابلًا للحركة غير ذراعه الأيمن شبه المشلول، ارتكز على مرفقه، ونظر بعينيه الذابلتين الغارقتين في بحار التيه، وطفق يحرك لسانه، فأحدث صوتًا كصوت البكم زاغ وسط صياح الفلاحين المنشغلين في أعمالهم، اللاهثين خلف لقمة عيشهم..
أمعقول تكون هذه النهاية؟ لا.. لا، إنها استراحة محارب، أو كابوس سيستيقظ منه بعد لحظات..
الجسد مسجى على الجسر في شبه استسلام، والناس مازلوا مشغولين عنه.. إلا واحدًا من الكسالى الذين كانوا يملّون أعمال الغيط، ويخلدون للنوم الطويل تحت ظل الأشجار، كان مستلقيًا بالقرب منه، نهض من نومه مفزوعًا، وأسرع ناحيته وهو يزعق:
ـ الحقونا يا خلق هو!
أحدث زعيقه دويًا اخترق الأصوات الصائحة، فترك أصحابها أعمالهم، وولوا قبلتهم شطره.
صاح عميرة، وكان معروفًا بالخشونة والجلافة، وهو يقلّب الجسد بيديه ذات اليمين وذات الشمال:
ـ اصحى ياواد ياشعبان، داهية تاخدك وتاخد أمك، ايه تلقيح الجتت دي يا اخواتي!
أمسك نبراوي بمعصمه، وكان من الذين عملوا في مستوصف بضع سنين، وقال بلهجة العارف الخبير، وهو ينظر في وجوه الحاضرين، كأنه أتى بالتائهة:
ـ النبض شغال، ابن الدكر لسه عايش يا أهل البلد!
هتف الفلاحون، وهم ينظرون بانبهار وعجب لزميلهم الذي ارتدى ثوب الطبيب الحاذق، وكذلك بسعادة وحبور لابن الدكر الذي مازال حيًا.. وسأله أحدهم وهو يغلق إحدى عينيه ويميل برأسه في بلاهة:

ـ يعني الواد شعبان لسه فيه الروح؟
أجابه الطبيب المزيف بشبه استنكار وسخرية:
ـ أيوة.. إنشاللـه تطلع روحك.. هو آني مش مالي عينيك يا ولا.. عجيبة ياجدعان، صدق من قال، ناس طول عمرهم عايشين ورا بهايم العمدة لحد ما بقوا ينعروا زيهم!
زام السائل وأخذ يبرطم بعدما تنحى جانبًا:
ـ هو ايه ديه؟! هو يعني السؤال حُرُم يا كفر الدكر!
فهمس آخر لمن يقف بجانبه:
ـ عشان قعد يومين في المستوصف هيعمل علينا جناب الضاكتور.. آه يابلد!
تناسى الناس شعبان المستلقي على الجسر يصارع الموت، أو تشاغلوا عنه.. هذا يؤيد الطبيب المزيف في سخريته و«تهزيئه» للرجل، وآخر يبدي امتعاضًا وتذمرًا منه، فلا يصح أبدًا أن «يتريق» عليه، ونحن جميعًا أبناء تسعة، ويجمعنا كفر دكر واحد..
وندت عن الجسد المريض صيحة قذفت في قلوبهم الرعب والفزع، وهم يرمقون شعبان وهو يتمرغ على الجسر كالحمار الجربان، وعيناه مفتوحتان عن آخرهما وقد اكتسيتا بالبياض.. لوت الأعناق واتجهت الأعين صوب الطبيب الخبير نبراوي، تتطلع إليه وتنتظر منه الإجابة، ولسان حالها يقول: الآن جاء دورك لتثبت للجميع طبابتك!
لكن لا المسئول بأعلم من السائل، فقد كانت قدماه تتقهقران كالحمار الخائب الذي يخشى قفز قناة تغمرها المياه.. وامتلأت صدور الناس بالغضب والحنق منه، وشمت فيه من شمت.. وزعق أحدهم:
ـ انهض الجدع بحاجة!
اكتفى برمقة تعبر عن عجزه وخجله، بينما مازال الجسد يتمرغ مصدرًا أصواتًا مفزعة، فصاح الطبيب المزيف كأنه عثر على حل يخرجه من ورطته:
ـ شيلوه هيلا بيلا نوديه ع المستوصف..
توجهوا جميعًا صوب الجسد، حاولوا أن يحملوه إلى المستوصف الذي يبعد مائتي متر عنهم، لكن شعبان أخذ يرفسهم ويركلهم وهم يحاولون المرة تلو المرة، دون جدوى. زعق رجب متذمرًا:
ـ يعني هتقرفنا كمان وانت متدوّر ع القبلة؟ داهية تاخد وشك العكر!
سمعه عميرة فقال له معاتبًا:
ـ مش قادر تنساله اللى عمله فيك حتى وهو بيطلع في الروح؟
أجابه وهو يهز رأسه ويرمق الجسد المسجى في شبه تشفٍ:
ـ وهي دي حاجة تتنسي!
ـ انتوا كنتوا أكتر من الاخوات..
تنهد وقال بلسان الأسى:
ـ كنا..
لم يكن في كفر الدكر، من يقدر على أن يبذر بذور الفتنة والشقاق بين الصديقين، فإن استطاع أحدهم أن يبعد شهرا رجب وشعبان عن بعضيهما، فلا يقدر على أن يفرق بينهما.. كان من المستحيل أن يرى الناس أحدهما دون الآخر، كانا روحين في زكيبة واحدة، حتى تاه الناس فيهما، فكانوا ينادون شعبان برجب والعكس..

وكانت الواقعة، وظهرت من قدرت على أن تقطع حبال الود والحب بينهما..
كان الصديقان كعادتهما، يتمشيان على الترعة العمومية، وقت الفجر متخفيان وراء الزروع، يراقبان النسوان وهن يستحممن في الترعة في سر وكتمان، مختلسين نظرات محرمة تفضي بقضاء شهوات حيوانية بالأيدي، تنتهي كما بدأت في نفس المكان..
كان ذلك الفجر، الذي بزغ فيه صنف جديد غير مألوف على القرية، فالنسوان في كفر الدكر كما الرجال، التهمهن الكد والعرق وامتص الهم والكدر دماءهن، حتى أصبحت أجسادهن هزيلة كأنهن جميعًا جسد واحد نُسِخ في أجساد متعددة..
كانت فارعة مائلة إلى السمنة، شعرها الأسود الطويل الناعم المتماوج يصل إلى أردافها المتناسقة الجميلة، عيناها واسعتان زرقاوان، تهادت بخطوات مرتبكة متوجسة وهي تنزل الترعة، ويحيط بها النسوة، ممسكات بيديها البيضاء الناعمة بين أياديهن السمراء المشعرة التي احتلها القشف، كانت تتمنع رافضة النزول معهن، وتصيح بصوت موسيقي ناعم غريب على الآذان، وهن يصفعن جسدها البض بالماء، وهي تضم ذراعيها حول صدرها الذي تزينه رمانتان ناهدتان مستديرتان، وتضع يديها فوق وجهها الصبوح الرائق في توجس وخوف..
ارتبك الصديقان، واختلس كل منهما النظر إلى الآخر، ولسان حاله يقول: ياليتني كنت وحدي فأفوز فوزًا عظيمًا، كانا يرمقاناها بأنفاس لاهثة وعيون مفتوحة عن آخرها، مستعجبة من هذا الجمال.. ولما انصرفت النسوان، كان في صدر كل منهما سؤال يحتاج إلى جواب:
ـ بنت مين؟! سأل رجب صديقه شعبان.
هز شعبان رأسه غير عارف.. وتسقّط الصديقان الأخبار في الكفر من النسوان اللائي كن يشاركانها الفجر المشهود، وعلما اسمها: نبوية، ابنة وافد جديد جاء إلينا من البندر يعمل في النجارة بمهارة شطارة..
راودت كل منهما فكرة، وكان رجب أسبق بطرحها على صديقه:
ـ عايز أكمل نص ديني يا ولا..
ـ وآني كمان..
ـ ايه رأيك في بنت النجار؟
عقدت الدهشة لسان شعبان، وصدمته المفاجأة، وبعد لحظات أجاب متهتهًا:
ـ وماله..
بيد أنه عقد العزم والنية، إذا كان يأتي في الشهور الهجرية خلف رجب، لكنه الآن لابد أن يسبقه ويطلب يد فاتنته.. ولم تمر سوى ساعة وطرق باب النجار، وفتحت الحسناء بعينين كحيلتين وغمازتين ضاحكتين، ودخل إلى المندرة وكان في انتظاره النجار الذي فتح ذراعيه محتضنًا وقال مرحبًا:
ـ دا احنا زرنا النبي..
أجاب متهتهًا:
ـ يعز مقدارك يابا الحاج..
سأله والدها، وفي رأسه قد خمن الإجابة، فجمال ابنته غير المعهود خبل عقول الجدعان في الكفر، ولكنه كان يبحث عن تأكيد:
ـ خطوة سعيدة ومباركة.. خير إنشاللـه؟

رد متلعثمًا في الخجل، وعينيه تجوس خلال الدار عبر باب المندرة الموارب:
ـ جاي أطلب ايد الغندورة..
لحظتئذ دق الباب، وفتحت نبوية بعين ضاحكة مرحبة، ودخل رجب إلى المندرة وفتح الأب ذراعيه محتضنًا وقال:
ـ دا احنا زارنا النبي والأوليا..
أجابه وهو يرمق جاحظًا صاحبه الذي انكمش خجلًا في مقعده:
ـ دا من ذوقك يا سيد المعلمين..
لفّ السكون المندرة، والصديق يرمق صديقه خلسة في تبرم وحنق، بينما الأب يجلس بينهما يوزع النظرات عليهما مستغربًا، وأعلن رجب التحدي، وقال بصوت يحاول التماسك:
ـ جاي أطلب ايد الأمورة..
أجابه النجار وهو مطرق الرأس بصوت أسيف:
ـ اللي سبق أكل النبق..
فأمسك بخناق صديقه في المندرة، متوعدًا أن يشق رأسه إلى نصفين، لكن النجار حال بينهما، فخرج ونيران الغضب مندلعة في صدره.. وهكذا انفصل الروحان وتمزقت الزكيبة وافترق الرفيقان كل في طريق.. كان رجب يمشي متحسرًا على نبوية في شوارع القرية مثل بيومي العبيط:
ـ لهفها الهلفوت مني.. آه يا بلد.. المخدة الواحدة عمرها ماتشيل اتنين حلوين أبدًا.. بقى شعبان الأجرب ينام فريح نبوية.. في شرع مين يا اخواتي؟!
بعد مرور خمسة أعوام ما زال رجب يضمر الحقد والغل والغضب لصديقه القديم شعبان.
ـ ايه يا واد يارجب.. دا انت قلبك أسود.. الجدع بيفرفر قدامك وانت لسه بتجرجر في سيرة الماضي! مش يمكن اللي جراله دا من تحت راسك؟
سأله عميرة وعيناه تفيض مكرًا ودهاءً.
ـ آه يا نبوية، فوتيني واتجوزتي، أجرب عايز يتنقع شهرين في المالح عشان يروح القشف اللي على جلده!
تلك من نوائب الدهور، ومن عظائم الكوارث، أن يسخر الكلاف الذي ليس له أصل ولا فصل من ابن الأصول، الدكر من صلب دكر، بماذا دعوت يا ستنا حُسن زاد؟ لقد انقلب الزمن على عقبيه، وتبدلت الأحوال، وصارت ذريتك من بعدك يا جدنا الكبير المؤسس، ضعاف كالريشة في مهب الرياح..
لم يفلح الملتفون حول جسده أن يحملوه إلى المستوصف، أشار أحدهم:
ـ شيعوا هاتوا الواد حميدة ابن شعلان العجل، عقبال أمالتكوا بقى تمرجي قد الدنيا في المستشفى الميري..
أثار هذا الاقتراح غيظ الطبيب المزيف نبراوي، لكنه استسلم لحالة اليأس التي اعترته، ونظر مع الناس مجيء الباش تمرجي حميدة، الذي أتى على عجل حاملًا حقيبته السمسوميت السوداء، وجلس مستربعًا على الجسر، وأمسك بمعصم شعبان بعدما نجح الناس في تقييده من ذراعيه وقدميه، وقال بنبرة خفيضة هادئة واثقة، وهو يرمق خصمه الطبيب المزيف ويجول بعينيه في وجوه الحضور:

ـ ربنا بعتني على آخر لحظة، شعبان كان هيموت، دي غيبوبة سكر متأخرة..
صاح رجب ساخرًا:
ـ وهو السكر هايجيله منين؟! دا أكتر حاجة مسكرة شربها كانت الماية السقعانة!
امتعض الحضور من حديث رجب الماسخ، إلا واحدًا منهم راقه كثيرًا سخريته من ابن العجل منافسه اللدود في الكفر.
أخرج حميدة الحقن ووخزه، ونصحهم أن ينتظروا ساعة أو أقل بقليل حتى يستفيق من الغيبوبة، وهمس الرجل الذي نال حظًا وفيرًا من سخرية الطبيب المزيف وهو يرمقه غائظًا:
ـ شوف العلام يا كفر الدكر.. أهو دا العلام ولا بلاش..
ثم استأذن الباش تمرجي بالانصراف، ليلحق بطوابير المرضى الذين ينتظرونه في مستشفى البندر، وغادر الغيط مشيعًا بنظرات الإعجاب والتقدير.
ومرت ساعة، ساعتان، ثلاث، ودخل الليل ومازال ابن الدكر في غيبوبته، والناس من حوله تضرب أخماسًا في أسداس.. حتى الواد حميدة ابن العجل اللـه لا يسامحه ولا يبارك له لهف الكام معلوم، وصنع لهم من البحر طحينة وخلع.. لك اللـه يا ابن الدكر..
وقضوا ليلتهم بجواره في الغيط، مشعلين راكية، وتتوسطهم الجوزة ملتفين حولها، والصباح رباح.
قال الأول وهو يشد أول الأنفاس:
ـ عليه العوض في الواد شعبان، شكله ماعدش نافع..
وصاح الثاني وهو يوزّع الدخان بعدما أخذ نفسًا عميقًا:
ـ وايه يعني لما يموت؟ دا ع الأقل هيرتاح من الهم اللي احنا عايشين فيه..
وهتف ثالث من أعماقه بصوت حزين:
ـ على قولك يا ولا.. هيرتاح، دا احنا عاملين زي البهيمة اللي متعلقة في الساقية.. دا الموت راحة ياناس، يارتني آني كنت ماطرحه!
كانوا يرددون جميعًا كأنهم في سباق «يا بخته هيموت ويرتاح»، ولما حل الصباح، أخذوا يفركون أعينهم، ويتشاورون في أمره.. وتفتق ذهن أحدهم قائلًا:
ـ مفيش غيره الضاكتور ابن جناب العمدة..
وجاء الطبيب يتقدمه تمرجيه الخاص، ولم تمضِ سوى دقائق، وأعلن بصوت مرتعد وقد بدا على هيئته الرعب والفزع:
ـ الراجل جاله الوبا يا أهل البلد!
لم يكمل ابن العمدة حديثه، حتى أطلق أهل البلد سيقانهم للرياح تاركين شعبان لمصيره مع الكوليرا، لعله يرتاح من هم الدنيا!
كانت تتطاير الأخبار من هنا وهناك، أن رجب لعنه اللـه، كان وراء ماحصل لابن الدكر، لينتقم منه شر انتقام، يتردد أن الخبيث دبر مكيدة بليل لصديقه القديم، حيث دعاه لشرب حجرين حشيش مخصوص من البندر عند زريبة العمدة، بعدما تصافيا وتصالحا، ونبذا الفرقة والاختلاف، وهنأه بزواجه الميمون، والكلاف اللـه لا يبارك له يضمر له الشر كله، ولما شربا الحشيش، وتاهت رأس شعبان، ولم يعد يعرف من أين يرجع إلى داره، سقاه ماءً مسحورًا يجلب المرض والنحس، وما هي سوى أيام، وجرى ما جرى.. الغوث يا أولياء اللـه الصالحين.

٣

تركوه جثة هامدة على الجسر، وفروا بعيدًا عنه، لا أحد يستجرئ أن يقترب منه، حتى أزكمت رائحته العفنة الغيط كله، وجاءت الحكومة ورجال الحجر الصحي، وحملوا جثته ودفنوه في مقابر عائلة الدكر.. اللـه يرحمك يا شعبان، قضيت عمرك كله في الشقاء والتعب.. كله من تحت رأسها، هي سبب كل البلايا التي حطت على رأسه، كانت العيون التي تندب فيها رصاصة تُحدّق ناحيتها، وكان المرحوم يقيم خناقات لا تنتهي من أجلها.. كان الناس يستكثرونها عليه، هي كالبدر في تمامه، بينما هو الخالق الناطق مثل ابنه بسيوني.. كالعتمة في الليالي التي يغيب عنها القمر بصحبة النجوم، اللـه يرحمك يا شعبان، كم حسدك ذوو العيون الصفراء.. كله من الولد رجب منه للـه، هو السبب، هو الذي فتح عيون البلد الوقحة صوبه وصوب تلك الملعونة زوجته..

لما مات شعبان الدكر، ومازال دمه لم يبرد بعد، جاء إلى كفر الدكر ولد من البندر، يعمل نجارًا، فارقًا شعره الطويل الناعم المسبسب على الجانب، ويعوج فمه كما يعوج أهل البندر وهو يتحدث مع الزبائن، الذين كان أغلبهن من النسوان الوقحات اللائي يختلفن إلى ورشة معلمه أبو مقصوفة الرقبة نبوية، متذرعات بحجج فارغة، ليرمقن الجدع الأفندي الذي يرتدي قميصًا وبنطالًا لم تعهده كفر الدكر كثيرا، كانت أحاديثهن في الغيط كلها تدور حوله، وعن عينيه الزرقاوين «الباكسة» التي لا تتحرج حين يحدثهن، كما قالت إحداهن وهي تدّعي الخجل لرفيقاتها في الغيط وهن يجمعن القطن، بصوت خفيض لايصل إلى مسامع الرجال:

ـ دا ياختي، رحت أصلح مطرحة الفرن، وساعة ماشافني فضل مبحلق فيا، كأنه شاف السفيرة عزيزة، وعينيه كانت هتاكلني، آه ورحمة ستي زي مابقولكم.

ثم خبطت بيدها المتربة التي يكسوها الشعر على صدرها، وأردفت ضاحكة:

ـ وآني من كسوفي كنت بقول يا أرض انشقي وابلعيني..

بدا الامتعاض والضيق على محيا إحداهن، وقالت بصوت يشبه الزوم في شبه احتجاج وهي تثني رقبتها وترجع رأسها للخلف:

ـ بقى الجدع الحليوة ديه هيبصلك انتِ؟ بأمارة ايه يعني يا هباب الفرن؟!

ارتبكت الأولى، وقالت غاضبة وعيناها تقدحان شررًا، وقد ماتت الضحكات على وجهها:

ـ على الأقل أحلى منك يادلعدي، ياقعر الحلة!

ـ آني يا مصدية؟!

واندلعت خناقة لرب السما بين الاثنتين، بسبب هذا الولد الذي زرع الفتنة في بلدنا الهادئة، وذاع أمره واجتمع الرجال في الغيط بعد صلاة العصر، وقرروا أن يطردوه خارج الكفر، وقد حصل وعاد من حيث أتى..

لكنه كالزلزال الذي ما إن يغادر المكان حتى تحدث له توابع، قد تكون أشد منه خطرًا.. هجّ النجار البندري إلى بلده، وترك الناس في حيص بيص، فالنسوان أظهرن تمردًا مكتومًا على رجالهن، غضبًا وغيظًا منهم، وحزنًا على رحيل الولد الحليوة أبو عينين زرقاوين..

٤

لم يجف دم الجدع بعد في قبره.. حتى داعب قلبه وعقله جمالها، لقد أتت من عند ربنا، ومات غريمه شعبان، والجو أصبح خاليًا، لم لايفكر فيها ثانية، ويلحق بقطار حلمه، ولو متأخرًا، إن ذبل

الورد فرائحته فيه، وهي مازالت ملكة متوجة على رؤوس النسوان في كفر الدكر..
عقد العزم وبيّت النية على طلب يد نبوية من النجار، وأسرّ بما يدور في رأسه للبعض، فأسرع إليه دسوقي الدكر حيث يعمل في زريبة العمدة، وأمسك بخناقه، ولكمه لكمة واحدة أسالت الدم من أنفه وفمه، وقال زاعقًا ورجب بين يديه كالذي بين الحياة والموت:
ـ بقى عاوز تتجوز مرات أخويا يا كلاف ياجربان وهو لسه ماربعنش!
أجابه والدم يسيل من فمه:
ـ وهو الجواز حُرُم ياجدعان؟ يامسلمين يابتوع ربنا!
تجمع الناس من كل حدب وصوب على أثر الصراخ والزعيق، وصاح عميرة وهو يُفرّق بين المتعاركين:
ـ مايصحش كده ياجدعان..
وزعق جناب العمدة موسى بصوته المسرسع الألدغ في حرف الراء:
ـ سيبوا بعض ياواد منك له!
لكن الخناقة لم تنتهِ إلا حينما فصل الرجال بينهما، وقال دسوقي لاهثًا:
ـ دي أخرتها ياكلاف البهايم! عايز تتجوز ورا ابن الدكر؟!
زعق رجب:
ـ وماله هو احنا بنسرق ولا بنسرق يعني؟ دي على سنة اللـه ورسوله!
صاح دسوقي موجهًا حديثه للناس:
ـ يصح يا ناس الأجرب ابن الأجرب يتعدى ع الأصول ويطلب ايد مرات المرحوم أخويا؟
ثم أشار بيده ناحية صدره، وأردف بصوت أقل حدة وقد أطرق رأسه:
وآني روحت فين؟ مش جحا أولى بلحم توره؟
بدا الغضب على وجه رجب، وصاح بصوت جهوري وهو يوزع النظرات بين دسوقي وأهل البلد:
ـ أهي.. ما تقول كده من الصبح يا سي دسوقي! ماتقول المرة احلوت في عينيك؟
طأطأ ابن الدكر رأسه خجلًا، وقال العمدة مبتسمًا في خبث ومكر:
ـ وايه يعني يا ولا؟ دي ميات الميحوم أخوه، وبعدين الأصول عميها ما بتزعل إلا ولاد الحيام.. مش كده يا جدعان؟
ـ إيوة يا...
لم يكمل الحاضرون ردهم على العمدة، وأتى شيخ الخفر مسرعًا وقال وهو يهم بالنزول من فوق حمارته البيضاء الطويلة:
ـ أصول ايه يا جناب العمدة؟
أطرق الرجل رأسه، وصنع مثله أهل البلد، بينما كان العرق يسيل كالأمطار فوق جبين صهره..
عاود شيخ الخفر سؤاله زاعقًا في وجه دسوقي:
ـ أصول ايه يا ابو نسب؟
تلعثم دسوقي من الاضطراب والخجل، وغمغم بحديث لم يفهمه الحاضرون، الذين فرّ كل حي منهم عائدًا من حيث أتى، وبقى دسوقي وحيدًا أمامه، مطرق الرأس محمر الأذنين، كالعريس الخائب ليلة زفافه.. زعق شيخ الخفر موبخًا:

ـ بقى دي آخرتها؟ عاوز تتجوز على بنت حضرة شيخ الخفر؟ هي الدنيا جرالها ايه يا عالم؟ تكونشي القيامة قامت وآني حضرة شيخ الخفر، رئيس حكومة كفر الدكر، مش واخد بالي؟!
أجابه بصوت أقرب إلى الهمس:
ـ ولا عاش ولا كان اللي يتجوز على فُتنة..
ـ أمال كنت ماسك في خناق الكلاف ليه يا ابو نسب؟
هز كتفيه نافيًا وسكت لحظة، ثم قال:
ـ مفيش دا كان بيسرق العلف من ع الجسر!
أمال رقبته وقال في شبه تهديد:
ـ هصدقك المرادي!
ثم ركب مطيته وانصرف، وذهب دسوقي هو الآخر إلى الغيط، وهو يبرطم مع نفسه:
ـ قال فُتنة قال.. دي فتنة جهنم والعياذ باللـه.. ربنا ينجيني منها بقى هي وأبوها!

٥

ـ ياريت كان قطر البندر عدى عليا قبل ما اتهف في نفوخي وأروح اطلب ايديها!
كان يحدث نفسه في غيظ، بينما هو متجه للعمل في غيط صهره حضرة شيخ الخفر غريب الملط.
لو يعود به الزمن، لن يُقدم ابن الدكر على الزواج منها، كان غرًا ساذجًا، لكن كلمة «لو» لا تعمّر بيتًا. كان ذلك منذ ما ينوف على عشرة أعوام. يحصيها كأنها قرن كامل، يوم قرر الزواج من ابنة ذلك الرجل الفظّ المتعجرف.. ولتلك الزيجة حكاية يعرفها الكفر كله..
ذات ليلة من ليالي شهر كياك البارد، كان في الغيط معلقًا الساقية ليطفئ شراقي أرض شيخ الخفر الذي كان يعمل عنده أجري.. كان في صدر شبابه، الدنيا ليل ولا صريخ ابن يومين في الغيط إلا هو والبهائم المعلقة في الساقية، وحمارة العمدة صاحبة المشكلة التي من تحت رأسها تزوج أو لنقل «اتدبس» في فُتنة، كان المطر ينزل بغزارة في تلك الليلة، ولعب الشيطان بعقله، وزين في رأسه أن يصنع بالحمارة كما يصنع الرجل مع امرأته.. وانصاع الطائش لوسوسات الرجيم، ووضع جلبابه بين أسنانه، واتجه ناحية قدمي الحمارة الخلفيتين، ووقف على أطراف أصابع قدميه، وأسند مرفقيه فوق مؤخرة ظهرها، لكنه ما إن شرع حتى سمع صوت ارتطام يد حضرة شيخ الخفر فوق رقبته النحيلة، فهوى من فوق الحمارة، فاقد البصر والوعي للحظات، واستفاق بعدها على تقريع وتهزيء الرجل له، بينما هو راقد على الأرض خلف الحمارة التي رمقته بنظرات مستنكرة ومستهجنة.. قاوم ساقيه المرتعدتين، وجثى على ركبتيه واتجه ناحية شيخ الخفر رافعًا يديه ومتوسلًا إليه أن يعفو عنه، ويغفر له مابدا له من ذنب لا يُغفر..
ربت الملط على كتفه، وأسنده ليقف على قدميه، وقال معاتبًا بصوت يبدو فيه حنان الأب، على غير عهده:
ـ بقى دي أخرتها يا ولا يا دسوقي؟ تنط على حمارة، وحمارة مين؟ حمارة حضرة شيخ الخفر.. هي القيامة قامت وآني مش واخد بالي ياعالم!
ـ وسيدي البدوي كانت وزة شيطان ياحضرة شيخ الغفر، وماعادت هتحصل!
ضرب غريب كفًا بكف وصاح:

ـ دا آني كنت فاكرك قطة مغمضة، ومالكش في النسوان، أتاريك طلعلك في الحمير، يا مايه من تحت تبن!
ـ غلطة!
ـ بقى اسمع أما أقولك يا ولا، آني كنت بعتبرك زي ولادي، بس من الليلادي، ماعدتش تهوب ناحية داري.. آني حداي صبايا يا جدع انت!
أطرق دسوقي خجلًا، وساد الصمت للحظات، قطعه نهيق الحمارة، ثم نظر شيخ الخفر إليه، وربت على كتفه، وأردف بصوت خفيض هادئ:
ـ اخص عليك، دا آني بعتبرك عيل من عيالي، لو عاوز تتجوز، كنت قولي وآني أجوزك من الصبح..
وحل الصباح عليه، وأرسل غريب الملط إليه خفيرًا يطلب منه الحضور إلى داره في التو، وكان في انتظاره في المندرة، ولما دخل احتضنه، كأنه يرحب بضيف عزيز ذي مكانة رفيعةلم يره منذ أمد طويل، وسط دهشة واستغراب دسوقي الذي بدا ذاهلًا، ولما انتهى الرجل من كلمات الترحيب بضيفه، نادى على ابنته الكبرى لتحضر الفطور، ودخلت تتعثر في حيائها، تحمل بين يديها صينية فوقها الطعام، وقالت مرحبة بصوتها الجهوري القوي الذي يشبه صوت أبيها، وهي تشير بيدها ناحية ابن الدكر الذي انكمش في مقعده الوثير فزعًا من صوتها:
ـ اتفضل ياسي دسوقي..
وكانت أول وآخر «يا سي» تنادي بها فُتنة زوجها، الذي انتهى من جلسته مع شيخ الخفر الملط وقد قرأ فاتحتها، واتفق على ميعاد الدخلة..
وهكذا أنقذت حمارة الملط ابنته، التي كانت ما إن يراها أحد من راغبي الزواج وآملي التقرب من أبيها؛ حتى يفر من أمامها، فائزًا بالنجاة من وجهها الذي يشبه وجه الفئران الجربة. والتي دب اليأس في أعماق نفسها عن البحث عن عريس، كان العثور عليه كمن يفتش عن أبرة وسط كومة من القش.. حتى قفش شيخ الخفر دسوقي في تلك الليلة المدلهمة شديدة البرد، وهو يصنع فعلته المنافية للآداب وللطبيعة.. وراح الدكر أسيرًا في قبضة الرجل وابنته فُتنة، لايحرك ساكنًا، يصنعا به ما أرادا، وهو مستسلم في يأس، كالموشك على تنفيذ حكم بالإعدام..
كم من شاب معدم ينخر الفقر في عظامه كان يعمل في غيط أبيها، طفش وهج من البلد كلها ناجيًا بنفسه حين كان يقرر الملط أن يزوجها منه.. لكن الفضل كله، للحمارة!

٦

الحكاية جد خطيرة، ربما كان بعض الظن إثمًا في كفر الدكر قبل تلك الحكاية العجيبة والمريبة، بيد أنه صار عقيدة يتبعها أهل البلد بعدها، فالأمر في غاية من الخطورة.. قبل سرقة الجاموسة؛ كان الناس في القرية يظنون أن الشك عيب لا يقترفه سوى أولاد الحرام.. لكن جاموسة عشري يا أهل الكفر.. هكذا كان يردد بيومي عبيط القرية وهو يجري في شوارع البلد بجلبابه الرث المتسخ وشعره الطويل الأشعث ولحيته الكثة، بينما العيال تجري خلفه وهم يضحكون ويرددون.. جاموسة عشري اتسرقت يا بلد..
ـ ياخراب بيتك المستعجل ياعشري، يا أيامك اللي شكل قرن الخروب يا اني، ياضياع شقى عمرك يا ابن تفيدة، راحت الجاموسة يا ناس!

هكذا كان يبكي أمام زريبته الخاوية من جاموسته كابن بار ماتت أمه، وهو يهيل التراب على رأسه ويلطم خده ويشق جلبابه.. وأهل البلد من حوله يمصمصون شفاههم ويهزون رؤوسهم حسرة وأسفًا وحزنًا عليه..
اجتمع جناب العمدة موسى في دواره بشيخ الغفر الملط، ودرسوا الأمر جيدًا.. ترى من سرق جاموسة عشري ابن محمد الغلبان؟!
العيون كلها اتجهت صوب فوزي الغتت، الرجل يسرق الكحل من العيون، لم تخرج من تحت يده تلك السرقة، هو الوحيد في كفر الدكر الخبير بذلك النوع من السرقات، وله في هذا المضمار ملاحم وبطولات تحكي عنه البلد بأسرها..
ذات مرة نفض الغتت حظيرة أحد الأعيان في بلدة مجاورة لنا، بيننا وبينهم ما صنع الحداد.. كانوا يحكون عنه بانبهار وعجب، كيف لهذا الموهوب أن يسرق بمفرده زريبة كاملة يخرج بها من تلك القرية العدو دون أن يراه الكلافون والخفر، كأنه كان يسرق قشة وليس بهائم تزن آلاف الأطنان..
قال بيومي العبيط وهو يحكي نوادره للأطفال.. إن الغتت ذات يوما سار في طريقه ناحية زريبة أحد تجار المواشي، ووجدها خاوية إلا من عنزة، وليس من تخصصه ولا من مقامه السامق أن يسرق على آخر الزمان عنزة، يا عيب الشوم والفضيحة! هكذا حدث نفسه، لكن نفسه الأمارة بالسوء دائمًا حدثته أن اليد البطالة نجسة، فلا يصح أن يعود «ايد ورا وايد قدام»، طالما اختلف إلى العمل.. وانتصرت نفسه عليه، وسرق العنزة، وأخفاها في جيب جلبابه، لكي لا يكتشف أمره رفقاؤه في هذا المضمار، ويكون مثارًا للسخرية والعار والشنار، وهو الملك المتوج على عرش السُرّاق، ولابد أن يحفظ مكانته وهيبته، كان العبيط يحكي وعيناه تلتمعان فخرًا وزهوًا وانبهارًا بالغتت ابن كفر الدكر، وسط شهقات الإعجاب من العيال..
لكن فرضية سرقة الغتت لجاموسة الغلبان، تبدو مستبعدة، فالرجل من السُرّاق الماهرين الذين يملأون أماكنهم، وإذا اختلف إلى العمل لا يرجع إلا وقد سحب خلفه طابورًا من المواشي، كما أنه أقسم من قبل بالأولياء الصالحين ألا تمتد يده لمواشي البلد، ناهيك عن أنه أكل عيشًا وملحًا مع صاحب الجاموسة المغدور، ولا يخون العيش والملح سوى أبناء الحرام.. «دي لو حصلت يبقى لازم القيامة تقوم»، هكذا قال شيخ الخفر للعمدة، وهو يهز رأسه الكبيرة نافيًا..
لم يعد سوى الغضبان ابن قرية الأعداء كفر أبو علي، ذلك الخصم العتيد لابن بلدنا الغتت، ولأجل الحق وشهادة للـه عريان الغضبان حرامي لم تأتِ به ولادة، سارق حاذق محترف موهوب بالفطرة، لكنه مشهور بالغلظة والفظاظة، فحين يحل ضيفًا ثقيلًا على زريبة أحد منكوبي الحظ، لايكتفي بالسرقة وحسب، بل يحرق الدار بما فيها.. يردد الناس سرًا، خشية من أن يهبط على زرائبهم ليلًا، فهو كما يقولون «يأتي على السيرة»؛ أن لديه عقدة نفسية أصابته حين كان صغيرًا، يقال والعلم عند اللـه أن الطفل عريان كان أبوه كلافًا يعمل بلقمته وينام مع أولاده وزوجته بجوار المواشي، وذات يوم كان يلهو أمام الزريبة وإذا بصاحبها يناديه بصوت أقرب للـهمس، وهو يشير إليه ملوحًا بحبة تفاح من وراء ستار، أن يدخل وكان البيت خاليًا، والتهم الصغير التفاحة، بينما كان الشرير، يداعبه ويراوده عن نفسه.. ومنذ ذلك اليوم كره الغضبان البيوت وأهلها وبدأ حياته المهنية من الصفر، وصار واحدًا ممن يشار إليهم بالبنان في عالم السرقات.. زريبة الغلبان وداره لم يحرقا، إذن هذه ليست بصمات الرجل.. صاح العمدة موسى وهو يضرب رأسه بكلتا يديه برأسه غضبًا ويأسًا..

لا الغتت ولا الغضبان لهما يد في سرقة الغلبان، تلاشى الاحتمالان القويان.. آه من الاحتمال الثالث والأخير، وهو أكثرهم خطورة، أن يكون السارق غير مشهور في ميدان السرقة والجريمة، أن يكون واحدًا منا، يسعى بيننا، وقد يسبقنا إلى الجامع، ويمد يده الطويلة في جيوب جلابيبنا ونحن بجواره نقضي فرض اللـه الواجب، والأدهى من ذلك وأمرّ أن يؤمنا في الصلاة! جحظت عينا العمدة من الفزع والرعب، واستشاط شيخ الخفر غضبًا وغيظًا، وضرب الصمت المكان.. واتخذ الملط قرارًا بتوسيع دائرة الاتهام، لتشمل كفر الدكر كله، فأومأ إليه العمدة بالموافقة كعادته، فدائمًا يوافق بهز الرأس دون أن يحرك لسانه بكلمة واحدة.. ونادى على جوقة الخفر الواقفين أمام الدوّار كالتماثيل الخشبية، وأمرهم بأن يضربوا حصارًا على الكفر بأسره، لا يدخل ولا يخرج منه الذباب نفسه، ومن ثم يأتون بأولاد المجرمين أهل البلد كلها مقيدين بالأغلال والأصفاد ويربطوهم بحبال في رقابهم، ويسحبوهم كالبهائم إلى الدوّار..
وقف أهل كفر الدكر في طوابير طويلة في جرن العمدية، تضربهم الذلة والمسكنة، مقيدين من أيديهم وأرجلهم، وصاح شيخ الخفر بصوت احمرّ له وجهه الأربد السمين وظهرت عروق رقبته القصيرة:
ـ مين اللي سرق جاموسة الغلبان؟
أطرقوا جميعًا، وأطبق الصمت على المكان، وعاود جعيره:
ـ اللي سرق الجاموسة يقر ويعترف يا بقر يا ولاد البقر!
لم يجبه أحد، وضرب العمدة موسى كفًا بكف وزعق غاضبًا بصوته الألدغ المسرسع الذي يشبه صوت الفتاة الرقيقة، فبدا مثيرًا للضحك والسخرية من الناس رغم مأساوية موقفهم هذا:
ـ يابلد حيامية، يابهايم بتسيق بهايم، ياحميي ياكبه على ضهي الحميي، يا ولاد الكلب ياحوش!
وأفلتت ضحكة عالية ندت من الولد عليوة المزين، سمع دوي صوتها غريب الملط، فأشار للخفر وهو في مكانه من شرفة الدوّار المطل على الجرن:
ـ هاتوا حلاق البهايم ديه!
سقط قلب عليوة في قدميه رعبًا، ولم تتحمله ساقاه، فسحبه الخفر كالبهيمة وألقوه أمام شيخ الخفر.. شخط فيهم أن يضربوه، حتى يظهر له أصحاب ويقر بجريمته.. وتسابقت أياديهم في الهبوط فوق قفا المزين الرفيع، وانقطع النور عن عينيه.. ثم أمرهم أن يتركوه قليلًا لكي يعترف.
كان نصف جالس نصف مستلقٍ، رفع يديه متوسلًا لشيخ الخفر أن يتركه لحال سبيله:
ـ واللـه ماسرقت جاموسة الغلبان، وغلاوة جناب العمدة يا ناس ماحصل مني، إلهي وانت جاهي لو حصل مني يسخطني قرد ياحضرة شيخ الغفر، دا آني غلبان أكتر من الغلبان، ياناس دا آني الغلب نفسه!
زعق الملط فيه مستنكرًا:
ـ أمال فاشخ ضبك ليه؟ مش لادد عليك كلام الحكومة يا ولا؟
ـ آني خدام الحكومة، آني مداس الحكومة!
هز العمدة رأسه وطلب من شيخ الخفر بصوته المسرسع، فيما يشبه التوسل، أن يخلي سبيل الحلاق، الذي رفع يديه متضرعًا وداعيًا له بالعمر المديد..
كانت الشمس في تلك الظهيرة ساطعة مرسلة أشعتها الحارقة فوق رؤوس هؤلاء الفلاحين، كأنها أحد الخفر المشاركين في حفلات تعذيبهم، العرق الغزير يتصبب من أجسادهم ويتساقط أرضًا،

ولم يعترف أحد ويدلي بمكان الجاموسة، بينما شيخ الخفر يصيح:
ـ آني وراكم والزمن طويل يابلد كلها نسوان ماجبتش راجل إلا آني وجناب العمدة، ومش هسيب حق الواد الغلبان أبدًا ولو على رقبتي!
كانوا جميعًا مطأطئ الرؤوس، يتبادلون النظرات العاجزة بأطراف أعينهم، وغمغم حمودة الحمارة:
ـ وآني كان مالي ياجدعان بالقرف ديه:
سمعه أحد الخفر ووشى به عند الملط، فأمر زملاءه بأن يأتوا به ماثلًا أمامه وسأله:
ـ كنت بتقول ايه ياحمارة؟
أجاب حمودة مرتعدًا:
ـ ماقولتش حاجة وراس جناب العمدة وحضرة شيخ غفره!
ابتسم الملط وقال ساخرًا:
ـ اوعاك يا ولا تكون فاكرني حمارة من إياهم هتضحك عليا!
ـ والنبي ماقولت حاجة!
وأمر شيخ الخفر جوقته أن يصنعوا مع الحمارة كما صنعوا مع المزين.. يذكر حمودة ذلك اليوم بشديد الحزن والأسى، فيومها ورم قفاه كما لم يتورم من قبل، حتى يوم قفشوه يمارس الأعمال المنافية للآداب خارج نطاق الجنس البشري.

٧

هجرت البلد إلى البندر، مقتفية أثر النجار الشاب، الذي نثر بذور الفتنة في كفر الدكر ورحل عنها ومازالت توابع الزلزال قائمة.. تزوجت منه بعد ساعات من مرور عدتها، واصطحبت الطفل بسيوني الذي مازال في اللفة معها..
علم الناس بما حصل، وكثر الكلام وكثرت الشائعات عن نبوية ومرزوق زوجها الجديد، واندلعت نيران الغيرة في صدور النسوان اللائي لاتخلو أحاديثهن عن تلك الباكسة أم عين تندب فيها رصاصة، التي ماصدقت أن فطس شعبان الدكر لتتزوج من هذا الشاب المليح ذي العيار الفالت..
قالت إحداهن وعيناها تنطقان غلًا وحسدًا، وهن يغسلن الملابس على شط الترعة:
ـ ضحكت على الجدع بالسهوكة والمحن!
أضافت أخرى:
ـ آه على نسوان البندر، الواحدة منهم مالهاش أمان!
وصاحت ثالثة:
ـ آه والنبي يا أختي قولي، ياريت جدعان البلد الباكسة تسمع كلامك، بدل ما هما دايرين على حل شعرهم ورا نسوان البندر.. دا لولاشي الدهان اللي بيحطوه على وشهم ماكانوا يتراعوا!
غرقت في العشق لأذنيها، وصار اللـهو خطًا جديدًا لها مع مرزوق الذي بادلها عشقًا بعشق ولهوًا بلهو، كان لا يستطيع أن يواصل اليوم كله في العمل في ورشة النجارة التى افتتحها حديثًا، ويعود إليها ليمارسا الحب، بينما الطفل بسيوني الذي لم يكمل شهوره الأولى بعد غارقًا في دموعه من أثر الجوع..

يردد الناس في البلد، أن نبوية، «والعلم عند الرب»، لما افتكر اللـه شعبان الدكر؛ سطت على أمواله التي كان يخفيها في حفرة عميقة في داره، بيد أن البعض اختلف مع من ذهب إلى هذا الرأي، وقالوا: أنى له هذا والفقر كان ينهش في جسده النحيل؟!
وكان الرد جاهزًا، وبخاصة من فُتنة زوجة أخيه: ثمن جاموسة الواد الغلبان!
لما سرقت جاموسة عشري، وفتش شيخ الخفر عن السارق، ودب اليأس في أوصال الناس من معرفة المجرم الذي حرم المسكين من جاموسته العُشر، وصار السارق مجهولًا، كأنه عفريت هبط على زريبة تعيس الحظ، وفاز بالجاموسة وخلع.
أحس غريب الملط ومن بعده العمدة بمرارة الفشل والعجز، ولم يعد أمامهما سوى الشيخ أبو داوود.. سيدنا رجل واصل، له من الكرامات ما لا يحصى، ظهرت بعضها في بلدتنا، حيث يقيم على مشارفها على شط الترعة، كم من امرأة كانت كالأرض البور، لما اختلفت إليه رزقها اللـه بدلًا من العيل دستة من الأولاد.. وكم من عانس فاتتها قطارات الزواج العديدة، رُزقت بزوج بعد زيارتها إلى سيدنا، وفُتنة امرأة دسوقي الدكر خير مثال!
ولي من أولياء الصالحين العارفين باللـه، يعيش وحيدًا في دار أشبه بكوخ من الغاب على شط الترعة، ورعًا زاهدًا، يكفيه جلباب أبيض رث وحيد يرتديه، فيه من الثقوب أكثر مما فيه من القماش.. لا يتوانى أبدًا عن صنع الخير وخاصة لو كان لأهل كفر الدكر..
ذهب شيخ الخفر إلى عشته، والأمل والرجاء معلقان في هذا الرجل الطيب الذي يهابه الجميع في البلد، حتى هو نفسه.. لو غضب على أحدهم لكتب على نفسه الشقاء، فالربط سوف يكون مصيره، والرجل المربوط في بلدتنا كالخروف المخصي وسط النعاج!
ودق دقتين على بابه المتهالك، وتهادى صوت من الداخل:
ـ مين؟
ـ غريب ياسيدنا.
فتح الخادم الباب ودخل شيخ الخفر عشة سيدنا الوضيعة التي يملأها الدخان، وقعد على الأرض، بينما سيدنا على أريكته يجلس القرفصاء ممسكًا بمسبحته الخشبية، ودون أن ينطق بكلمة قال وهو يهز رأسه الضخمة:
ـ جاي لأجل جاموسة الغلبان.
هتف:
ـ اللـه أكبر!
ـ ثم حادث نفسه، وهو يرمقه في رهبة «من أين علم؟»
رفع سيدنا رأسه إلى أعلى، وصاح بصوت قذف الرعب في شيخ الخفر:
ـ حي، اللـه حي، في خدمة السيادة، يا أم هاشم مدد، يا أولياء اللـه الصالحين مدد.. عايز ترجع الجاموسة يا ملط؟
أومأ بالموافقة في اندهاش ووجل.
لم يكن أحد في القرية كلها يستجرئ أن يناديه قبل أن يسبق لقبه الميري بـ«حضرة» إلا وكان مصيره أسود.. الملط الذي أرعبت سيرته أهل البلد.. يومًا كان راكبًا مطيته ومن خلفه الخفر تمشي، ومر من جواره فلاح كان ممتطيًا هو الآخر حمارًا، واضعًا كلتا ساقيه فوق بعضيهما، كان يشدو «يا بهية وخبريني مين اللي قتل ياسين»، كان يرمق السماء، والشمس التي أقبلت على الدنيا

من لحظات، مستقبلًا صباحًا جديدًا، يكسوه الضباب الكثيف، ولم يرَ الخفر ولا كبيرهم، الذي زعق بصوت أحدث دوي انفجار في البلد، وهو يضرب راحتيه ببعضهما غاضبًا:
ـ هي القيامة قامت وآني مش واخد بالي ياعالم؟ ياسين مين اللي اتقتل يابن بهانة العمشة؟
انتفض الرجل، ونزل منتصبًا من فوق حماره كالتمثال أمام شيخ الخفر، وقال مستعطفًا:
ـ ما أخدتش بالي واللـه ياحضرة...
قاطعه سائلًا بلهجة لا تنقصها السخرية:
ـ ليه؟ مشغول بأيه يا ولا؟ تكونشي عايز تعمل راسك براس الحكومة؟ وبتسأل البت من اللي قتل عشيقها؟!
وأطاح بيده الغليظة في الهواء، ثم هوى بها على وجه الفلاح الذي سقط أرضًا مغشيًا عليه، وتركه ومضى في طريقه بعدما أوعز إلى خفرائه أن يقذفوه بماء القناة، ولما استفاق وبخه أحدهم وهو يركله بقدميه الحافيتين:
ـ تستاهل! راكبلي ع الحمار وحضرة شيخ الخفر معدي؟! لأ.. ومن جبروتك راكب جمالي! يا جبايرك يا أخي! داهية تاخدكم فلاحين بهايم!
مرعب أهل البلد، يجلس على الأرض أمام سيدنا، كطفل صغير في الكُتّاب.. يملأ قلبه الخوف والفزع، ولايقوى لسانه على الرد.. سأله ثانية:
ـ عايز ترجع الجاموسة ياملط؟
أجاب متهتهًا:
ـ تبقى عملت فينا معروف، وكسبت ثواب كبير من تحت راس الواد صاحبها الغلبان.
ـ اتأخرتوا!
ـ على بال ما دوّرنا، وفتشنا في كل حتة، ولما اتهد حيلنا واتقطع نفسنا، قلت مفيش غير مولانا وبركة بلدنا، هو اللي هاينجدنا!
ـ الجاموسة.. طاارت!
تملك الخوف من شيخ الخفر، حين سمع مولانا يصيح «طاااااااارت» بصوت يشبه فحيح الحية، وحادث نفسه وهو يمني نفسه بالفوز بالخروج من هذا المكان، لاعنًا عشري وجاموسته وكفر الدكر واللي فيها.. ولكنه استجمع قواه وقال لاهثًا من الخوف:
ـ طارت فين؟!
ـ هناك.
ـ هناك فين؟!
ـ في بطون الخلق!
ـ ازاي وهي كانت عُشر في السابع؟
ـ الخسيس باعها لحم!
ـ وهي عُشر؟!
ـ وهي عُشر!
ـ مين هو؟!
ـ جدع من حدانا، عايش وسطنا، أسود من قرن الخروب، قصير ونحيف، شعره أكرت، حداه مرة غريبة، بيغير منها نسوان البلد كلها.

وسكت مولانا عن الكلام، وسأله شيخ الخفر:
ـ اسمه ايه؟
ـ الأسياد ماجابوش سيرة عن اسمه.
شكر الملط سيدنا أبو داوود، وخرج من العشة، وقد تملكه شعور بالارتياح لأنه نجى من ذلك المكان المرعب، وإحساس باليأس لأن هذه المواصفات لا تنطبق سوى على شخص واحد في البلد وافته المنية.

٨

اصطحبت رضيعها معها وأقامت مع زوجها الجديد مرزوق، الذي استأجر ورشة للنجارة، بينما مكث أبوها في كفر الدكر، رافضًا الخروج منها إلا على ظهره، رغم السخرية والتقريع من أهل البلد، وخاصة من النسوان، اللائي وجدن في سيرة نبوية وأبيها وزوجها البندري وجبة شهية تشبع فضولهن النهم..
كانت أخبار الطفل تصل إلى عمه من أهل البلد الذين كانوا يذهبون إلى البندر، وهم يقرعونه ويأنبونه على تخليه عن ابن أخيه الوحيد في أحضان تلك المرأة الفاجرة، التي طفشت من البلد وراء البندري.. كيف يطاوعه قلبه أن يترك الصغير، آخر سليل لعائلة الدكر العريقة، التي تملأ سيرتها الطيبة الأسماع، هناك في البندر بعيدًا عن أهله، يا عيب الشوم على كبير الدكاروة!
غير أن حديث التقريع والسخرية لم يقف أمام عتبة داره، بل امتد داخلها، وكان أشد وطأة من خارجها، امرأته طويلة اللسان كانت له بالمرصاد، بيد أنها كانت تتبع تكتيكات متنوعة، تارة بالشدة وتارة باللين.. لديها ست بنات، جئن جميعًا فوق رؤوس بعضهن، ولم ترزق بالولد، والدنيا كالغابة مليئة بالأحراش والوحوش، وهؤلاء البنات يحتجن إلى أسد يحميهن، أو حتى كلب يعوي حولهن لتبتعد الذئاب..
بسيوني الدكر، آخر الذكور في عائلة الدكر الآخذة في الانقراض، يقيم بعيدًا عن عائلته في البلد، مع نبوية الولهانة بالغندور زوجها، الذي كان يسوم الطفل سوء العذاب في ورشته.. كان يصطحبه معه إلى هناك من النجمة، يفتحها ويكنسها ويرش أمامها المياه.. يمكث فيها وفي قلبه أمل ورجاء بأن يسوق اللـه إليهم زبونًا ليعصمه من لسان زوج أمه السليط، وتوبيخه وسبابه الذي لا ينقطع، فإذا تأخر هذا الزبون، كان يمسك باللوح الخشب ويطيح به في الهواء ضاربًا الطفل، متهمًا إياه بأنه وش فقر، كيف يأتي الخير وهو ماكث في الورشة؟ ثم يطرده، ويهيم الصغير على وجهه في شوارع البندر غارقًا في دموعه، وهو يدعو اللـه ألا يرزق زوج أمه زبونًا، حتى لا يكون مثارًا لسخرية أشد وطأة.. ساعتئذ، كانت السعادة تملأ جوانح مرزوق، الذي كان يردد دائمًا لنبوية أن هذا الابن جلاب للنحس، ما إن ترك الورشة حتى حجّ الزبائن إليها من كل حدب وصوب، بيد أن الفلوس التي كان يكتسبها كانت كالدخان الذي يطير في جلسات الحشيش والنسوان، التي كان مواظبا على حضورها..
ذات ليلة من لياليهم التي كانت تبدأ بعدما يعود مرزوق من سهراته، قبيل طلوع الشمس بقليل، استيقظ الطفل قبل ساعة من ميعاد ذهابه إلى الورشة، على غير عهده، بفعل هذا الصوت الصادر من غرفة نوم أمه، كان يسمع أصوات ضحكات غنجة عالية.. قالت نبوية بدلال، وهي على فراش الحب:

ـ ياسبعي ياجامد!
أجابها مرزوق مسطولًا:
ـ عجبتك يابت؟
ردت ضاحكة بغنج:
ـ ودي محتاجة كلام، ياسيد الرجالة؟
ثم صمتت برهة، كانت ترمقه بعينين تملأها الرغبة المتقدة، وقالت وهي تلكزه بمرفقها بدلال، وتتصنع النهوض من فوق الفراش:
ـ مش عايز حاجة قبل ما أقوم استحمى يا سي مرزوق؟
تظاهر بعدم الفهم، وقال بعدما نهض جالسًا على حافة السرير مدخنًا سيجارة، وقد بدا على هيئته كأنه اغتمّ فجأة:
ـ دي مابقتش عيشة!
اربدّ وجهها المليح وسألت:
ـ خير يا سبعي؟
تظاهر بالسعال ثم أجاب:
ـ الخير حايجي منين واحنا قاعدين من غير عيل ولا تيّل؟
ـ ليه يامرزوقتي؟ ما بسيوني ابنك.
صاح غاضبًا:
ـ لأ مش ابني.. يا مربي في غير ولدك، يا باني في غير ملكك.. أنا عايز عيل من صلبي!
ـ قولتلك نروح للحكيم.
زعق وهو يضرب قائم السرير النحاسي بقبضة يده غاضبًا:
ـ أنا صاغ سليم، أروح للحكيم ليه؟!
جلست بجواره على حافة السرير وقالت وهي تداعب شعره الناعم كالطفل الصغير، بصوت حنون مثل أم تهدهد ابنها:
ـ انتَ سيد الرجالة.
نهض منتصبًا بعيدًا عن السرير، وزعق وهو يزيح يدها بعيدًا عن شعره:
ـ لازم تختاري: يا أنا يا ابنك!
ـ الواد زعلك في حاجة؟!
أجاب وقد عقد حاجبيه:
ـ بكفاية إنه وش فقر، وهو سبب النحس لنا، مش هخلف إلا لما يغور من هنا!
أجابت بشبه انصياع:
ـ اللي عايزه يكون يا سيد المعلمين!
أيقن بسيوني منذ تلك الليلة أن أيامه في دار مرزوق باتت معدودة، وعليه تدبير مكان آخر يلجأ إليه بعيدًا عن هنا، لكنه لا يعرف بيتًا ولا أهلًا غير نبوية ومرزوق..

وجاء الفرج والفرح بين يدي فلاح طرق باب شقة مرزوق، الذي كان عائدًا لتوه من الورشة وقت القيلولة، تاركًا الطفل هناك.. على وجه السرعة ارتديا ملابسهما وهما يصبان حمم غضبهما على هذا الطارق قليل الذوق، معدوم الدم، الذي جاء في ساعة لهو كهذه، ماذا سيحدث لو تأخر ساعة واحدة؟ وفتح مرزوق متجهمًا، فاحمرّ وجهه واصفرّ من المفاجأة، ووقف متسمرًا رامقًا الطارق بعينين منتفختين من صنع الحشيش، دون أن ينطق بكلمة واحدة.

ابتسم ثغر الطارق وقال:

ـ مش هتقولي اتفضل يا معلم؟

أجابه ذاهلًا:

ـ اتفضل.

ـ ازاي وانتَ ساددد الباب؟

تزحزح بعيدًا عن الباب، ودخل الضيف ضاربًا راحتيه ببعضهما ومتصنعًا السعال:

ـ يارب يا ساتر!

استفاق مرزوق من الصدمة، وقال مرحبًا بضيفه:

ـ نورت المكان.

أجاب الضيف وعيناه تجولان في الشقة الوضيعة:

ـ منورة بصاحبها، أومال فين الولا؟

ـ في الحفظ والصون.

كانت في غرفتها يجتاحها الخوف والقلق، تريد الخروج لمقابلته، لكنها لو فعلت ذلك لكتبت لزواجها نهاية، فمرزوق يحرّم عليها الظهور أمام الرجال.

ـ أنا مدّلي البندر وعشمان فيك خير.

قالها الضيف.

ـ العشم في ربنا، خدامك؟

ـ أرجع بالولا البلد.

رقص قلبه سعادة، لكنه تظاهر بالتجهم وقال:

ـ غالي بس الطلب صعب قوي..

ثم صاح عاليًا.. ليُسمع نبوية التي الصقت أذنها خلف باب الغرفة:

ـ بسيوني مالي علينا حياتنا، احنا من غيره زي النجار من غير عدة.

ـ انتَ سيد من يفهم في الأصول، والولا ابن أخويا، واحنا أهله، ولازم يعرف إنه دكر ابن دكر.

تصنع السعال، وقال بعدما صمت برهة:

ـ أستأذنك آخد رأي أمه.

وترك الضيف وحيدًا وذهب إلى نبوية، التي أغرقت وجهها دموعًا، وقال بصوت أقرب إلى الهمس:

ـ دسوقي جاي ياخد ابن أخوه.

أجابت مستعطفة:

ـ أخوه مات، وأنا أمه ولسه عايشة!

كتم غضبه وقال:

ـ هو في مقام أبوه!
ـ بسيوني لو سابني حموت!
قال متأففًا ومهددًا:
ـ أنا ولا الواد وش الفقر ده؟
هزت رأسها في يأس، وقالت باستسلام:
ـ اللي تشوفه ياسي مرزوق!
لثمها على خدها وقال بارتياح:
ـ أيوة كده.
وتوجه ناحية الضيف الذي كان يفحص الشقة بعينين يملأهما الفضول، وقال:
ـ لاجل جايتك، وعشان تعرف مقدار معزتك..
تهلل وجه دسوقي، وقال بصوت تبدو فيه نبرة السعادة:
ـ ربنا يعز مقدارك..
وجاء الصغير من الورشة مستغربًا، هذه المرة الأولى التي يكترث فيها زوج أمه به، كان يتركه بالساعات وحيدًا في الورشة حارسًا العدة، دون أن يسأل عنه.. رآه بصحبة رجل غريب، ليس على هيئة أهل البندر، نادى عليه:
ـ سلم على عمك يا بسيوني.
سأل نفسه: ماذا حدث؟ إنه يوم المرة الأولى، هذه أول مرة يلفظ اسمه، كان يناديه دائمًا بوش الفقر، تعالى ياوش الفقر، روح ياوش الفقر.. القيامة أوشكت، هذه نبوءة شيخ الزاوية الذي يصلي بهم الجمعة، كان يُحذّر من علامات الساعة الكبرى، التي ظهرت على كف طفل صغير في بلد قريب، وما هي سوى أيام وتقوم القيامة.. يبدو أن زوج أمه، الذي لم يختلف يومًا إلى مسجد، قد تناهى إلى مسامعه حديث ذلك الشيخ، ورق قلبه وأراد أن يحجز لنفسه مكانًا في الجنة، وليفوز بالحور العين اللائي علم عنهن من رجل صالح، جاء إلى الورشة يومًا يُصلح شباكًا، وسأله وأثار الحشيش مازالت تعبث برأسه:
ـ إلا قولي يا شيخ، وهي الجنة دي فيها ايه؟
قال الرجل بصوت هادئ، وبأسارير منفرجة وثغر مبتسم:
ـ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.
ـ يعني فيها نسوان؟
أجابه:
ـ فيها حور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون.
ابتسم وهتف:
ـ يا سلام يا ولاد!
ثم اغتم فجأة كأنه تذكر أمرًا هامًا، وسأل الرجل:
ـ بس مفيهاش حشيش يا مولانا؟
أجابه:
ـ فيها كل حاجة قولتلك.
انفرجت أساريره ثانية وهتف:

ـ حشيش ونسوان ومفيش شغل! يارب قوّم القيامة بقى!

١٠

انتصرت رغبة مرزوق في التخلص من «وش الفقر»، وعاد مع عمه إلى كفر الدكر.. كان يمشي بجواره وهو في طريق العودة، يرمقه بطرف عينيه باستغراب وخوف، لم يره من قبل، ولم يسمع عنه إلا لمامًا، ففي تلك المرات النادرة التي سمع أمه تُحدّثه عنه، كانت تذكره بالسوء، كذلك كانت تصنع حين تُحدّثه عن القرية التي وُلد فيها، ففاض قلبه خوفًا وكرهًا لهذا البلد الحقير، التي كانت نبوية تزدريه، حتى في مزاحها وسبابها له.. فحين يصير مزاجها رائقًا، تداعبه وتناديه «يا ابن الأصول»، وحين يصير المزاج معتلًا، وقت لا تكون على وفاق مع مرزوقا ـ هكذا تناديه ـ كانت تصمه بالتخلف ودونية الأصل، وتصرخ في وجهه «حتعيش فلاح وحتموت فلاح أجرب زي اللي جابك».

ماذا سوف يصنع في هذا البلد الوضيع، لايعرف منه أحدًا، ولا هذا الرجل الذي يصطحبه، في قرية تمرح فيها العفاريت والجن ليلًا، أبو رجل مسلوخة والنداهة والشمامة وغيرهم من المرعبين الذين يقطنون هذا البلد المنكوب، هكذا كانت تحدثه أمه، وهو ذاهب إليهم طواعية على قدميه، ذاهب لهؤلاء الفلاحات القذرات ذوات العيون الصفراء، اللاتي باستطاعتهن أن يحسدن قرص الشمس الذهبي، فينطفئ نوره في الحال، الفلاحات اللائي لن يجدن زوجًا يليق بقبحهن غير رجال كفر الدكر، الذين لا يقلون قبحًا ودمامة عنهن، والذين لا يغتسلون أبدًا، فأبوه شعبان نفسه مات من أثر الجرب والعفن، هكذا كانت تُحدّثه نبوية.

ليكن ما يكون، الذهاب مع هذا الرجل الذي تنبعث منه روائح روث البهائم الكريهة خير وأحب من أن يبقى في بيت مرزوقا وعاشقته الولهانة، اللعنة عليهما، على الأقل لن يصطبح بوجهه الذي يحبس المطر في السماء، لن يسمع كلماته الهازئة والساخرة، لم يعد وش الفقر، فالفقر هو أين حل وارتحل، الوادع يا نبوية، بل لا وداع ولا سلام لك، اهنئي بمرزوقك فقد خلا الجو لكما، اصنعا ماشئتما، وأنجبا بدلًا من العيل عيالًا، فلم يعد للبليد حجة يتذرع بها، اذهبا به إلى مكان يليق بعاشقين مثلكما، حيث داهية في انتظاركما.. أما أنا سأمضي في طريقي الذي لايريد الانتهاء، مع هذا الرجل الذي يدّعي أنه عمي، سأمضي إلى أم رجل مسلوخة، سوف أحكي لها حين تأتيني ليلًا عما صنعتيه بي، أنت ومرزوقك، سوف أطلب منها أن نصير أصدقاء، نلعب ونلهو مع بعض، وأن تأتيكما ليلًا، بينما أنتما في فراش العبث عاريين، لتصيبكما بالرعب والفزع.. أعرف أن عينيها بيضاء كاللبن، وشعرها أسود متفحم طويل يلامس الأرض، وأرجلها كثيرة وجميعها مسلوخة، كل هذا لايهم أبدًا، المهم أني لن أراكما ثانية..

كانا يمشيان في طريق العودة، يطويان البلاد ولم يصلا بعد، تعب الطفل من المشي وتورمت قدماه، وسأل متأففًا وساخطًا والعرق يتفصد من جبينه، وقد بدأ صبره ينفد:

ـ البلد مش حاتيجي بقى؟

ـ هانت كلها بلدين تلاتة يابسيوني.

ـ أنا تعبت ومعدتش قادر خالص.

ضحك دسوقي الدكر حتى بانت نواجذه، وقال ساخرًا:

ـ ليه يا ولا؟ ايه النعومة دي؟ انتَ بقيت طري قوي زي البنادرة!

رمقه الصغير بنظرة ساخطة وحادث نفسه في يأس: «فرّ من النار، ليجد الجحيم».. وأردف العم:
ـ انشف يا ولاه، وبلاش خلاعة ومياصة البنادرة، انتَ دكر من ضهر دكر!
ابن البندارية أهو، ابن النبدارية أهو.. كان العيال الصغار في البلد يرددون تلك الكلمات، وهم يستحمون في الترعة، حين رمقوه يمشي خلف عمه بخطوات متثاقلة من أثر التعب، قادمًا إلى الكفر، كانوا يتغنون بها، وفي عيونهم يلتمع بريق من السعادة والفضول.. زعق فيهم دسوقي وأعمل عصاه الغليظة، ليهشهم بعيدًا عن الولد الذي جحظت عيناه خوفًا واستغرابًا:
ـ ابعد يابن المقشفة منك له.. ايه عمركم ما شفتوا خلق من البندر؟
لكنهم لم يرتعدوا من زعيق العم ولم تخيفهم عصاه، ومشوا خلفهما وهم يرددون:
ـ ابن نبوية البندارية وصل..
بينما كان دسوقي يجري خلفهم حتى انقطعت أنفاسه، دون أن ينجح في الإمساك بأحدهم، ثم وضع يده على صدره وهو يسعل زاعقًا:
ـ ايه يا اخويا عفاريت ولا عفاريت؟ داهية تاخدكوا انتوا والبطن اللي شالتكوا!
تملك الخوف والرعب من بسيوني، ولاحظ عمه انكماشه من الفزع، وأمسك بيده الصغيرة مصطحبًا إياه إلى فُتنة امرأة عمه، التي سوف تطير من السعادة، وكذلك بناته، الستة حين يرونه.
هكذا كان يحدثه في الطريق..
كانت النسوان في الغيطان يبذرن بذور القطن، والتقطت مسامعهن غناء العيال خلف الرجل وابن أخيه.. انتصبن واقفات، وتكاد رغبة الفضول أن تشتعل في صدورهن، صاحت إحداهن وهي تشير بيدها التي تمسك «المزرعة»:
ـ ابن نبوية أهو يا مرة انتِ وهي!
صاحت أخرى مبتسمة وهي تجول بعينيها السوداوين الضيقتين في فضول:
ـ فين يابت يا مفضوحة انتِ؟
ضربتها الأولى على صدرها وقالت ضاحكة:
ـ أهو يابت، ايه مابتشوفيش؟ إيوه ما عينيك حمرا وورمة أهو، ابقى اتهدي ونامي بدري.
ابتسمت وقالت وهي ترد الضربة لمحدثتها، ووجهها القمحي الذي لوحته الشمس مضرج بحمرة الخجل:
ـ ايه داتك الإيه يا ختي وانتِ دهنك رايق كده، هو فيه حد ليه نفس لقلة الأدب دي؟
أمسكت ثالثة طرف الحديث وأضافت:
ـ على رأيك يا اختي، احنا طول النهار مدوّرين في الغيط، وبالليل ورا العيال، والرجالة المفاضيح ماشيين على حل شعرهم ورا نسوان البندر.. طب آني ألبس واتزوق وآني ابقى ست ستهم!
لم يشاركها النسوان الرأي، رغم إظهارهن تضامنًا مزيفا مع حديثها، بينما همست إحداهن في سرها: «ربنا يكون في عون الغلبان راجلك، ادعيله لولاه كان زمانك بايره.. واللـه لو كنتِ لبستِ زي السفيرة عزيزة،ما كان حد فاتح عليك محفظة غيره».
ـ بصوا يامفاضيح!
ـ مفيش ملامح من الباكسة نبوية!
ـ أسود فحمة، الخالق الناطق المرحوم شعبان!
ـ دققي يابت انتِ وهي.. عينه زي عينين اللي تتفضح دنيا وآخرة أمه!

ضربتها الأخرى على كتفها وقالت بلهجة العالمة الخبيرة:
ـ لأ يا بت إزاي؟ دي البت كانت عينيها زرقا زي السما الصافية، وبعدين الموكوسة كانت عينيها واسعة ولا عينين الجاموسة، والولا ديه عينيه ضيقة زي أبوه الخالق الناطق!
تنهدت بخيتة وهتفت وهي تزفر هواء الحسرة، وهي تجتر ذكريات الماضي:
ـ شعبان الدكر.. يلا اللـه يسامحه.. الميت ماتجوزش عليه إلا الرحمة!
ـ لساكي بتفكري في اللي راح يابت؟
هزت كتفيها متصنعة لا مبالاة مزيفة وقالت:
ـ ولا بفكر ولا غيره يا ختي.. كل حي يخليه في نفسه.
ـ مانا في نفسي يا حبيبتي!
ثم حدجتها بنظرة مراقبة بطرف عينيها، وأردفت زافرة:
ـ يلا هنعمل ايه؟ اللـه يرحمه كانت عينيه زايغة، قعد معشم الناس بالجواز، وآخرتها راح اتجوز بندارية عينيها تندب فيها رصاصة!
ردت بخيتة وهي تميل رقبتها ناحية كتفها، وفي عينيها تحدٍ:
ـ الحمد للـه ربنا عوضني سيد سيده، الدور والباقي على الأرض البايرة، اللي مش لاقية ضفر راجل يزرعها.. هو فيه زي الدلعدي رجب في الدنيا!
تدخلت أخرى في الحديث، وقالت بلهجة الحزم والجدية وهي تحرك راحتها في الهواء:
ـ الجواز قسمة ونصيب يا ختي انتِ وهي!

١١

كان يجري في شوارع القرية، بجلبابه الرث الممزق وشعره الطويل الأشعث وذقنه التي لم يصلها الموس منذ أمد بعيد، ممسكًا بزمارة، ينفخ فيها مرة ويصيح مرة أخرى، مرددًا والعيال تجري من خلفه:
ـ ابن نبوية رجع يابلد، ابن نبوية رجع تاني يا بلد.
والناس يزجرونه، وهم يتصنعون ضيقًا منه.. كانت عدوى السعادة تنتشر بين الرجال حين يأتي أحدهم على ذكر نبوية آسرة قلوب كفر الدكر، والتي ليس من المستبعد على بنت مثلها جاءت من البندر، أرض المكر والدهاء، أن تصنع لهؤلاء الفلاحين الغلابة أعمالًا تجعلهم يفتنون بها.. ومن يدري، ربما وضعت العمل في الترعة العمومية وشرب منها الناس.. آه، بندرية قادرة وفاجرة، هكذا كانت النسوة يرددن في غيظ وحنق..
بيومي لم يكن عبيطًا من قبل، كان جدعًا ولا كل جدعان الكفر وزينة شبابها، على وشك أن يصبح أول من يجتاز شهادة الدبلوم في البلد، ويصير ذا شأن عظيم في الناحية كلها.. لولا هذه الملعونة، التي ما إن حطت رحالها هي والنجار أبوها حتى ترك الولد المسكين الدراسة، وقعد «بالقلادة» أمام دار أبيها، سقته الفاجرة عملًا، وربما كان أول من شرب من الترعة العمومية..
بيومي الذي كان عايقًا يومًا، يستعمل الكولونيا التي لا يضعها في البلد سوى البيه الدكتور ابن جناب العمدة، والذي كان يسرح شعره الناعم ويفرقه على الجانبين، ويهذب شاربه الكث، يرتدي الجلباب الصوفي النظيف، ويمشي في شوارع البلد متبخترًا ولسان حاله يقول ليس على الأرض

من هو ند لي، بينما كانت الفتيات يشهقن ويزفرن وجدًا وولعًا، وهن يطاردن بأعينيهن بيومي، أو رشدي أباظة كفر الدكر كما كن يطلقن عليه.
بيومي لم يعد رشدي أباظة ولا حتى عبدالفتاح القصري، صار يمشي في الشوارع هاذيًا، والمخاط يتدلى من أنفه، وهو يحك في رأسه وجسده كالأجرب، ويعوي كالذئاب. ينتظر أن يحسن عليه أحدهم بسيجارة لف، أو أن يقبل آخر أن يشاركه شرب الجوزة، دون أن يبدي تقززًا منه.
اللـه يرحم الشيخ محروس إمام جامع البلد، كان يخطب في الناس كل جمعة، وبعد أن يحمد اللـه ويثني على نبيه كان يصيح بصوته العالي الخشن «اللـهم العن النسوان ومايجئ من ورائهن، اللـهم قنا واصرف عنا شرهن، اللـهم كن معنا وكن عليهن، فالرجل لا يمسك بخناق أخيه إلا وكان السبب امرأة، ولا جريمة دون امرأة محرضة، اللـهم خذهن أخذ عزيز مقتدر،، هابيل قتل أخاه قابيل بسببها..
ثم يضحك ويردف مازحًا:
ـ كان زامنّا هايصين في الجنة ونعيمها، لولا حوا منها للـه هي اللي ضحكت على أبونا آدم، اكمنه كان اللـه يسامحه طيب وعلى نياته، خلته ياكل من الشجرة، وآدينا آهو مرميين على الأرض وطالع عينينا بسببهم.. بذمتكم مش الدنيا كانت هتكون أحسن لو مفيهاش نسوان؟
ويهتف المصلّون بصوت واحد مبدين بعض الاعتراض:
ـ وهي فين النسوان يا شيخ محروس؟ دول غفر! ربنا ابتلانا بيهم لاجل يكفّر عن سيئاتنا..
فيضحك الشيخ والمصلّون، ويصير في الجامع هرج ومرج، ويصيح الشيخ منهيًا الخطبة:
أقم الصلاة.
ماذا جرى لبيومي؟ لا أحد يعرف على وجه الدقة، قال بعضهم، وبخاصة من النسوان، أن نبوية هي من طيّرت أبراج عقله، ليس لشكلها الذي يأنف الكلاب السوداء الجرباء أن تنظر إليه ـ هكذا كن يرددن وهن يستشيطن غيظًا وحقدًا ـ بل لأنها صنعت أعمالًا لتسيطر على رجال البلد ذوي العيون الوقحة، ويصبحون خاتمًا في إصبعها.. كانت هنالك همهمات وكلام في الهواء ليس له صاحب، أو أن صاحبه لا يجرؤ أن يصرح به، أن الشيخ أبو داوود هو شريكها في جريمتها في حق رجال البلد، وبخاصة حق المسكين بيومي، فهو من صنع العمل وهي من ألقت به في الترعة..
لكن ثمة قسم لا يستهان به من أهل القرية يخالفون ذلك الرأي، ويذهبون إلى أن بيومي هو من أذهب عقله بيده حين لم يسمع لنصائح الكبار، الذين حذروه مرارًا وتكرارًا من أن يستحم في الترعة ليلًا، وبخاصة عند المقابر، تلك المنطقة المسكونة بالأرواح الشريرة التي تظهر بعدما ينتصف الليل، ويأوي الناس إلى فراشهم، ساعتها تطلع العفاريت من الترعة، هكذا أقسم دسوقي الدكر بأغلظ الأيمان، وهو يدخن الجوزة في الغيط على دماغ أرض صهره الملط؛ أنه رأى بأم عينيه التي ستأكلها الدود العفريتة وهي تجلس القرفصاء على شط الترعة عند القرافة، تمشط شعرها الطويل وتهدهد رضيعها الصغير النائم فوق حجرها، بينما أطفالها العفاريت الصغار يلعبون من حولها عراة.. ثم صمت برهة كان يراقب فيها ملامح الرجال الجالسين حوله وقد أصابهم الذعر، وأردف بصوت خفيض:
ـ ربكم والحق، آني ركبي سابت، وقولت لنفسي دي آخر ليلة في عمرك يا ولا يا دسوقي، ياما كانش يوم ابنك يامه.. بس رجعت قلت لنفسي ربنا مش هايسيبك يا ولا، وخصوصًا وانتَ مصلي

العشا جماعة ورا الشيخ محروس اللي محدش من البلد بيهوب ناحية الجامع بتاعه إلا في صلاة الجمعة.. المهم شيء إلهي هداني وقالي اثبت يادسوقي، وامشي على طراطيف صوابعك.
قاطعه الحاضرون وهتفوا في صيحة واحدة:
ـ سبحان اللـه!
ثم قال أحدهم مبتسمًا، وهو يضع يده فوق علامة الصلاة البارزة فوق جبهته:
ـ عشان تعرفوا قيمة الصلاة يا كفرة..
وعاود ابن الدكر حديثه بعدما لاقى تأييدًا وإعجابًا منهم:
ـ ومشيت على طراطيف صوابعي، عشان العفريتة وولادها مايخدوش بالهم مني، وبعد ماعديت قولت يافكيك..
ضحكوا جميعًا، وقال أحدهم مؤيدًا:
ـ إيوه ياجدعان، ياروح مابعدك روح.. أومال إيه؟
في ليلة من ليالي شهر طوبة الباردة، كان بيومي ومعه جدعان من البلد جالسين في القهوة، يشربون الحشيش إلى أن انتصف الليل، وانتصب واقفًا، فاردًا صدره إلى الأمام في تحدٍ، وقال والحشيش قد لعب برأسه وسيطر:
ـ آني أشجع جدع فيك ياكفر الدكر!
رد عليه شعبان الدكر مسطولًا من أثر الحشيش:
ـ آني اللي أشجع واحد في البلد وفي الناحية كلها.. ثم خبط على صدره بكلتا راحتيه بقوة.. وأردف متفاخرًا:
ـ آني دكر من ضهر دكر يا بلد!
فأمسك بيومي في خناق شعبان، ونشبت خناقة بينهما، ذهبت كراسي المقهى ضحيتها، ولم تنطفئ نيران المعركة إلا حينما صاح رجب بعلو صوته، وقد اهتدى إلى فكرة تضع حدًا لها، وقال مترنحًا وعيناه تجاهد من أجل أن تبقى مفتوحة:
ـ أشجع واحد في البلد هو اللي يقدر يستحمى في الترعة دلوقتي فريح القرافة.
ارتد وجه شعبان إلى سيرته الأولى، ثم مخضبًا بألوان الخوف والرعب حين سمع اقتراح الكلاف، لكنه قال مغمغمًا وهو يزدرد ريقه بصعوبة ليحافظ على ماء وجهه أمام الحاضرين:
ـ آني موافق، بس خليها لبكره عشان أكون مستعد.
لكنه ردد محادثًا نفسه في صمت، وكان أخوه دسوقي قد حكى له ماشافه عند القرافة: «عدوك أهبل، لأذهب بقدمي إلى الموت!»
ضحك الحاضرون وهم يرون ابن الدكر يتقهقر إلى الوراء، ما حفّز منافسه في الشجاعة، إلى أن يذهب بعيدًا في تحديه ويقبل الاقتراح وهو يصيح عاليًا مزهوًا:
ـ آني اللي هاستحمى في الترعة والوقت داهو!
وترك الجميع المقهى وأجسادهم تتطاوح في الهواء كأعواد ذرة في مهب رياح عاتية، وسلكوا طريقًا يمكنهم من العودة إلى بيوتهم بعيدًا عن المقابر والترعة التي سلكها بيومي وحيدًا، حتى من هؤلاء الحكّام الذين كان من المفترض أنهم سيشهدون الواقعة، ومن ثم تنطق ألسنتهم بعدها بما رأت أعينهم..

أمسك رجب بذراع صاحبه شعبان في طريق عودتهما وأذرعتهم تتحرش بالهواء البارد، كلما كانا يمشيان خطوتين، يقفان ويطرقان النظر إلى الأرض مليًا، ويهمس أحدهم للآخر بلسان ثقيل ورأس أجهز عليه شرب الحشيش:

ـ خلي بالك يا ولا لاجل مانسقطش في المصرف الغويط!

ثم يمضيان ثانية بعدما يمد أحدهما قدمه مقدار خطوة سابرًا غور الأرض، ومضيا في طريقهما دون توقف، وفجأة انزلقت قدماهما في المصرف، وأغرقت المياه نصف جسميهما، ولم يدريا إلا وهما يطلعان، وشعبان يهمس بصوت خفيض، وقد التصق جلبابه المبتل من ماء المصرف العميق بنصفه السفلي:

ـ تصدق يا ولا احنا باينا وقعنا في المصرف!

أجابه رجب، وهو يحني ظهره ويلمس الأرض بيده:

ـ بيتهيألك يا مسطول، احنا ماشين ع البر أهو.

١٢

وفي صباح اليوم التالي، وكان ذلك يوم جمعة، ذهب الناس ليستمعوا لخطبة الشيخ محروس، وبينما هم في الجامع والشيخ كعادته يلعن النسوان ويحذر من مكائدهن التي غلبت إبليس؛ إذا به يلج الجامع ويقف منتصبًا في مقدمة الصفوف أمام الشيخ، وصاح وهو يشيح بيديه ناحيته:

ـ انتَ قاعد تشتم في النسوان وبتضيع الخطبة عليهم، أكمنك يعني مش غادر لهم، ياخروف مخصي!

ثم أطلق ضحكة معربدة مدوية، أصابت المصلّين في بادئ الأمر بالذهول، الذي استحال إلى ضحكات بدأت خجولة مكتومة، لكنهم لم يقاوموا إغراء سخرية بيومي من الشيخ، فتعالت قهقهاتهم في فضاء الجامع.

أتاك الموت يا تارك الصلاة، صارت فضيحتك على كل لسان ياشيخ محروس، لن ينفعك دعاؤك اللـهم استرنا تحت الأرض، فقد فضحك بيومي فوق الأرض وكان ما كان! من أين علم الكلب الأجرب ما بي، ليس سوى تلك الزوجة الدميمة العجفاء، والكاتعة.. لا تكن ظلومًا عجولًا في أحكامك يا مولانا، فزوجتك لا يمكن أن يقرب إليها بشر، ليس لعفتها بل لقبحها الذي يقزز العيون.. ليس غيرها الكاتعة سامحها اللـه، هي من وشت بي عند الكلب الأجرب.

منذ تلك الخطبة المشهودة، والشيخ محروس صار يمشي مطرق الرأس، لا يخرج من بيته إلا ليقيم الصلاة، يخشى أن يلمحه بيومي المجذوب في الشارع، ويمشي خلفه بزمارته ويصيح بعلو صوته والعيال من خلفه تردد:

ـ اللي مابيعرفشي ينط اهو!

يومئذ أطلق الرجل ساقيه للرياح خشية الفضيحة، وجرى العبيط خلفه وشيعه عند باب الجامع ولولا المصلّون، الذين نهروه وزجروه وصدوه عن باب الجامع، وهم يكتمون الضحك؛ لما تمكن الشيخ من إلقاء خطبته، التي لم تستغرق سوى دقائق أقل من أصابع اليد الواحدة، لم يتطرق فيها للنسوان من قريب أو من بعيد..

الشيخ محروس الذي جاهد لأكثر من ثلاثين عامًا ليخفي سره، الذي ظن أنه أُلقي به في البئر، إذا بهذا الولد المجذوب ينزل إلى قاع البئر ويأتي به..

كان مزواجًا في صدر شبابه، يتزوج المرأة لأيام أو شهور معدودة، ثم نسمع بعدها بخبر الطلاق، كل زيجاته كانت من غرييات عن البلد.. وتساءل الناس عن سر زواجه وطلاقه الكثير، فأشاع ـ سامحه اللـه ـ أنه فحل قوي لا تطيق النساء معاشرته، إذا غشى إحداهن تهشمت عظامها وتكسرت ضلوعها ورقدت في السرير ما بين الحياة والموت، وصدّق أهل كفر الدكر الطيبون روايته طيلة تلك السنين، إلا الكاتعة..

تزوج مولانا أول مرة، ولم يطأ عروسه، وبعدما استبد به اليأس والقنوط ظن أنه مربوط، ومن ربطه ليس سوى غريمه اللدود.. وذهب إليه رغم ما بداخله من كره وحقد له، ومستترًا في جلباب ليل كفر الدكر المدلهم، حتى لايلمحه أهل البلد، وتصير فضيحته بجلاجل، فالرجل الذي يتزوج حديثًا لا يذهب إلى سيدنا أبو داوود إلا وكان في الحكاية إنّ..

واستقبله أبو داوود وأحسن ضيافته، وقال مرحبًا:

ـ أهلًا بالعريس!

رد مطاطئ الرأس مغمومًا:

ـ واقع في عرضك يا سيدنا!

علت وجه أبو داوود ابتسامة ثقة وانتصار، وقال:

ـ مربوط.

خفض رأسه أكثر وهزّها لأسفل، ثم وضع راحتيه فوق رأسه، فأردف أبو داوود وهو يضع يده في سيالة جلبابه الرث:

ـ خد الحجاب ده، وانتَ هتبقى زي الحصان.

وعاد محروس إلى داره فرحان جذلان، يحمل وجهه آثار الأمل، وأمر عروسه شاخطًا:

ـ اقلعي خلاقاتك يابنت البهايم!

خلعت العروس ثيابها، والسعادة تطير من عينيها، وألقت بجسدها فوق السرير، وقالت ضاحكة:

ـ قلعت يا سيد الرجالة!

هزّ منكبيه في تكبر واستعلاء، وأخذ يخلع عنه جلبابه ويرمقها بنظرات ملؤها تهديد ووعيد، بينما هي كانت تضحك بدلع وغنج، وانكفأ بجسده فوقها، وكاد السرير الملّة الجديد أن يسقط.. بدا كل شيء معدًا لليلة سعيدة هانئة، وانتظر الشيخ محروس قوة الحصان التي بشره بها أبو داوود، أو حتى قوة حمار هزيل، لكن لا هذا ولا ذاك.. كان كالخروف المخصي أمام عروسه، يملأ الدنيا ثغاءً دون فعل، وارتدت ثيابها، وارتدّ وجهها إلى سيرته الأولى العابسة، وقالت في تجهم وتقزز:

ـ طلقني!

أخفض رأسه وقال:

ـ أنا صاغ سليم، سيدنا أبو داوود قالي كده!

ضحكت ضحكة كالبكاء، وقالت وهي تضربه بيدها على صدره هازئة:

ـ لما انتَ مالكش في النسوان بتتجوز ليه؟! وبعدين آني في دارك ليه؟! لو ع الأكل والشرب آني كنت باكل وبشرب في دار أبويا، وكافية خيري شري، ياعيني عليا وعلى حظي الهباب ياني، قال ومحسوب عليا راجل!

فصعد الدم في رأسه من الغضب وألقى عليها اليمين ثلاثًا.

وعاد إلى أبو داوود معاتبًا، وسمع صوت همهمات وبقايا ضحكات ليست بريئة.. دق على الباب دقة واحدة، ثم فتحه دون أن يؤذن له، فوجد ما لا يمكن أن يتخيله أهل كفر الدكر. حتى أنت يا سيدنا، ومع من الكاتعة؟! لتقم القيامة، رحمة للقابضين على عقولهم في كفر الدكر.
نكأ بيومي جرح كان يظنه الشيخ في طريقه للاندمال.. تزوج بعد تلك الزيجة الفاشلة بزيجات عديدة جلّها كان من خارج البلد، وكان يفشل المرة تلو أختها، ولم يعد أمامه سوى أن يسمع نصيحة أبو داوود، تلك النصيحة التي كان يرفضها رافسًا كالحمار المشاغب الذي يرفض الإذعان لصاحبه، لكن ليس من سبيل سوى هي، تلك المرأة التي هجرها زوجها إلى بلد غير معلوم، والتي رآها عارية كيوم ولدتها أمها في أحضان سيدنا في تلك الليلة التي رجع فيها ليعاتبه، يومها بعدما زال لون الحرج من محيا أبو داوود، قال بصوت فيه الدعة والهدوء، بينما كانت تهم بارتداء جلبابها، لتفر هاربة:
ـ لابسها جن وعفاريت كتيرة!
رمقه بنظرة غير مصدقة واعتصم بالصمت، وأردف سيدنا وهو يضيّق عينيه ويجعّد وجهه:
ـ بت غلبانة يا شيخ محروس!
أجابه بشبه اعتراض:
ـ ما غلبان إلا الشيطان!
ـ لأ دي عليها جن ياما.. شوفت كانت بتصرخ إزاي؟
ـ اللـه يكون في عونها!
وجد أبو داوود الفرصة السانحة ليرمي سره في نفس البئر الذي ألقى فيه محروس سره، وتلاقت الرغبتان، ولن يفشي أحدهما بخبر غريمه..
وذات يوم كان الرجل لدى أبو داوود، وأشار عليه الأخير، لم لا تُجرب حظك مع تلك المرأة المسكونة، سوف تُخرج من جسدك ما لا يخرج، سوف توقظ النائم، وتحيي الميت حين تسمع صراخ الجن والعفاريت.. قطب الشيخ حاجبيه، وقال والغضب يجتاحه:
ـ لا.. بقى دي آخرتها، عايز تجرجرني وتوقعني في الرذيلة!
قهقه أبو داوود وقال:
ـ مين اللي قالك إنك هتوقع في الرذيلة؟ لا انتَ هتنام مع المرة، ولا هي هتنام معاك.
ـ امال هنهبب ايه؟
ـ ولا حاجة، الجن اللي عليك، واللي بسببه انتَ مربوط، هو اللي هينط على الجن اللي عليها.
أبى في بادئ الأمر، لكن رفضه كان يصطدم بنظرة زوجاته له حين كان يعجز أن يغشاهم.. وذهب إلى دار المرأة مستكرهًا، وخبط على الباب بصوت خفيض، ففتحت وهي تستقبله بضحكة خليعة، خلعت قلبه من مكانه من الخوف، وقالت:
ـ نورت الدار يا شيخ محروس!
رد مغمغمًا بكلام أدنى إلى الهذي، اقتربت منه، بينما كان يبتعد عنها، حتى التصق ظهره بالحائط، وصار نهداها الكبيران يخبطان في صدره وأنفاسها تلفح وجهه، وقالت بصوت مملوء بالشبق:
ـ خير يا سي محروس؟ ايه مالك كده؟
أجابها لاهثًا وهو يبتلع ريقه بمشقة:
ـ مفيش.. مفيش!

دنت بجسدها أكثر وصار ملتصقًا بجسده، وثبتت ناظريها في عينيه، وهمست في أذنه:
ـ ايه مش عايز حاجة؟
أجابها:
ـ كتر خيرك ياستي!
قهقهت بصوت عالٍ خشى أن يسمعه من بخارج الدار، وسألته:
ـ امال جاي تعمل ايه؟
غمغم بحديث غير مفهوم وهي تخلع جلبابها، وبدت عارية كيوم ولدتها أمها، بينما كان هو مطرق الرأس يختلس النظرات نحو جسدها، وقالت:
ـ مش ناوي تقلع بقى؟
لم تمكنه أنفاسه المتلاحقة من الرد، فأخذت تخلع عنه جبته وقفطانه، وبدا عاريًا، وهمست غانجة وهي تشير ناحية عضوه:
ـ ماله ياسي محروس نايم كده ليه؟
أطرق رأسه، وطفقت تداعبه هامسة:
ـ ولا يهمك يا سيد الرجالة، آني عليا عفاريت تصحي الميت!
ثم أطلقت ضحكة خليعة، كان صداها يتردد في المكان.. بيد أن عفاريت المرأة لم تفلح أن توقظ من مات واندفن وشبع موتًا، ولم يكن هناك جدوى لإيقاظه، واستبد بها اليأس، وصرخت في وجهه غاضبة وهازئة:
ـ ارميه لكلاب جرن العمدة مفيش منه منفعة!
وخرج من دارها مهمومًا مغمومًا، منكس الهامة، يشعر كأنه عود قش أرز مهمل ولا جدوى من حياته، ونزع فكرة الزواج من رأسه تمامًا، وأطلق شائعته بأن النسوان لا يطقن معاشرته، تلك الشائعة التي من أجلها ظل يدفع دم قلبه لتلك المرأة، حتى لا تنبش سره ويصير أمره مشاعًا.

١٣

سبحان مقلب القلوب ومغير الأحوال من حال إلى حال، أهذا بيومي «رشدي أباظة « كما كنا نسميه، بعدما كان ينتعل المركوب النظيف الذي لا يلبسه ابن العمدة ذات نفسه، أمسى يمشي هائمًا على وجهه في شوارع كفر الدكر، بجلباب رث، تنبعث منه روائح نتنة، كان يمشي مختالًا، واضعًا العطور، رافعًا رأسه.. بيومي الشاب الوحيد الذي كان قاب قوسين من أن يصبح أول حامل لشهادة الدبلوم في البلد.. اللعنة على النسوان، كما كا يخطب فينا الشيخ محروس، هن سبب ماحصل لبيومي ولغيره من رجال كفر الدكر..
ـ عليه العوض ومنه العوض.. الجدع العترة بقى ماشي يكلم نفسه، منها للـه بنت النجار!
قالتها بخيتة لرفيقاتها في الغيط، وهي تشير ناحيته بينما هو يمر من أمامهن على الجسر، مطأطئ الرأس يحادث نفسه.
قالت أخرى وهي ترمقه متحسرة:
ـ إلهي أشوف فيها يوم، زي ما بوظت علينا الرجالة، وخسرت عقل الأفندي!
ردت أخرى بصوت واثق خفيض:
ـ ماتظلميش البنية، ياولية انتِ وهي...

قاطعتها بخيتة غاضبة وهي تشير ناحيتها لتكف عن الكلام:
ـ قطيعة تاخدك وتاخدها ياختي، ما انتِ السبب، انتِ اللي بقيتي تجيبيها معانا على الترعة!
ضربت صدرها بقوة وقالت بصوت عالٍ نافية:
ـ وانا مالي يا ختي!
ـ طيب قولي يا مزغودة كنتي عايزة تقولي ايه؟
قالتها إحداهن وهي تشير لباقي النسوة أن يصمتن:
ـ أقول ايه وأعيد ايه؟ وهو فيه حد باقي له نفس يتكلم من بعد اللي حصل للدلعدي الأفندي!
كأنها ألقت كرة من لهب في صدورهن، فأشعلت جذوة الفضول لديهن، وشخطت فيها بخيتة محتدة، بعدما انقضى صبرها:
ـ ما تقولي يابت داتك وجيعة تاخدك!
ـ الكلام الداير في البلد إن بيومي اللـه يحرسنا اتجوز جنية من تحت الأرض، بتقابله كل ليلة عند القرافة.
ارتعدت فرائص النساء، وألجم الخوف ألسنتهن، وساد الصمت بينهن، كان يخترقه زقزقات العصافير على الأشجار، وأصوات البهائم المعلقة في السواقي..
لم يكن الشيخ محروس ضحيته الوحيدة، بل كانت امرأته نفسها ضحيته الأخرى.. ذات يوم كان «مدّلي»ع البندر، واستأذن زوجته أنه سوف يتأخر يومين أو ثلاثة، سيزور ابن خالته الذي يسكن في البندر ولم يره منذ سنين، كانت ذريعة ليهرب من جحيم القرية، وألسنتهم التي تستاهل قطعها ما إن سمعوا الواد العبيط في الجامع، وانتشرت سيرته على كل لسان في البلد، حتى العيال الصغار قليلو التربية والدين كما آباؤهم، هكذا كان يشتمهم، كانوا يمشون خلف الرجل ويردّدون:
ـ الخروف المخصي أهو..
دون أن يردعهم أحد من أهل البلد، اللـهم إلا بضحكات ساخرة، ظاهرها رفض ما يُقدم عليه الأطفال معدومو الأدب، لكن باطنها التأييد لهم..
هجّ الشيخ من البلد لحين انقشاع تلك السحب الكثيفة التي تعرّش فوق سماء كفر الدكر.. وبينما كان بيومي يمشي في شوارع القرية متوجهًا ناحية القرافة، حيث لقاؤه المزعوم مع زوجته الجنية سماسم، كان الجو ليلًا، والليل في كفر الدكر أسود من قرن الخروب، لا يرى فيه المرء إصبعه، كان يردد بصوت يثير الذعر في النفوس:
ـ جايلك يا سماسم.. جايلك يا غالية!
ثم يعوي كالذئاب..
ومر من أمام دار الشيخ، ووضع ذيل جلبابه بين أسنانه، وفتح ساقيه، وبال على حائطه، ولما انتهى لمح سهمًا من نور خارجًا من الباب، يخترق جسد الليل الحالك، وسمع صوتًا لاهثًا مختنقًا ينادي:
ـ بيومي أفندي.. سي بيومي!
جحظت عيناه في الظلام، واستغرب الصوت، فلا أحد أصبح يناديه بأفندي ولا سي غير زوجته سماسم الجنية.. وتوجه ناحيتها، وقال بصوت ثقيل عالٍ:
ـ عايزة ايه يا حرمة محروس؟

ارتبكت المرأة، ومسحت الشارع بعينيها، ثم أخرجت نصف جسدها خارج الباب، ووضعت يدها فوق فمه وهي تجذبه إلى الداخل، وقالت هامسة بصوت خفيض مرتعد:
ـ وطي صوتك ياسي بيومي!
وأغلقت الباب، وقالت بصوت مختنق لاهث:
ـ أجيبلك تتعشى يادلعدي؟
أجابها وهو يرمقها بنظرات مستغربة:
ـ هاتي!
بدا عليه كأنه لم يتناول طعامًا منذ دهر، ولما انتهى من عشائه دنت منه، وقالت بصوت غنج وهي تداعب شعر صدره:
ـ عامل ايه ياسي بيومي؟
فغر فاه، وسال اللعاب منه، ما أصابها بالتقزز.. وقالت وهي تجذبه من ذراعه:
ـ قوم أحميك!
استجاب لها، بعدما كان رافضًا تمامًا لتلك الفكرة، فهو لا يستحم إلا في الترعة مع سماسم امرأته وعائلتها من الجن والعفاريت.
خلعت المرأة جلبابه وهي تكتم بيدها فتحتي أنفها متأففة، وصار عاريًا تمامًا، وأخذت تصب عليه الماء، بعدما أقعدته في طشت الغسيل..
كان عاريًا كيوم ولدته أمه، وألبسته جلباب محروس الجديد الذي لا يرتديه سوى في المناسبات الهامة، بينما كانت بقميص نوم اشترته من البندر، لعل وعسى يكون فيه مفعول السحر على الرجل النائم في الخط، لكن لا شيء يجدي نفعًا، فمن مات لا يجوز عليه غير الرحمة!
غرفة نوم الشيخ، حيث جبته وقفطانه، وعصاه الذي يتوكأ عليها، معلقة في خزانة ملابسه، كان بيومي ذاهلًا ينظر إليها بعينين زائغتين، لايعرف لماذا جاءت به إلى هنا.. كان يظن أن امرأة مولانا تريد أن تشتري قيراطًا أو قيراطين في الجنة كما كان يعظ زوجها، وأرادت أن تكسب ثوابًا فيه أن أحضرت له الطعام، وكذلك ربحت قيراطين أخريين لما حممته.. هكذا كان يعتقد، وقال محدثًا نفسه:
ـ الشيخ ومراته زمانهم بقى عندهم أرض أكبر من زمام العمدة في الجنة!
غرق في صمته، وجلست المرأة على حافة السرير، بينما كان هو منتصبًا أمامها، وهمست غانجه وهي تُعرّي بيديها ساقيها، بعدما أسندت مرفقها على المخدع، وبدت كأنها نصف جالسة نصف مستلقية على جانبها:
ـ قرب مني!
ابتعد خطوة إلى الخلف، وبدا على عينيه الفزع المفاجئ، استوت في جلستها وقالت وهي تمد يدها لتجذب ذراعه، ورسمت على وجهها المخضب بدماء الرغبة ابتسامة:
ـ البلد بتقول إنك متجوز يا ولا!
طفرت ابتسامة على ثغره، وقال وهو مطرق الرأس في خجل:
ـ إيوه متجوز.
ـ متجوز مين يا بيومي؟
ـ سماسم الجنية.

قطبت جبينها وهي تصطنع الاستغراب والجدية، وقالت:
ـ ودي بتنام معاها إزاي؟
أجابها وهو يهز رأسه ويثني رقبته إلى الخلف في تحدٍ وزهو:
ـ زي الناس!
استلقت على السرير، وجذبته من ذراعه بعنف فوقها، وهتفت:
ـ وريني كده إزاي.
وضع طرف جلباب الشيخ في فمه، وقال وهو يلاحق أنفاسه بصعوبة من شدة الرغبة:
ـ ماشي!
وحين انتهيا من لهو كاد يكون ضحيته السرير الجديد الذي اشتراه محروس منذ أسبوع، طلبت المرأة بصوت جاد خشن غير ذلك الذي استقبلته به:
ـ اقلع الجلابية!
استغرب نبرة صوتها، وقال بلسانه الثقيل:
ـ اقلع ايه ياولية؟! مش قالع!
صاحت غاضبة:
ـ الشيخ لو شافها عليك، هيطلقني!
قهقه وصاح:
ـ وايه يعني أما يطلقك، مش أحسن ما تقعدي مع خروف مخصي!
خفضت رأسها، وقالت بصوت أقل حدة في محاولة استرضائه:
ـ اقلع الجلابية دي يابيومي، وآني هجيبلك اللي أحسن منها..
ـ بس هي عجباني!
ـ عشان خاطري!
زم شفتاه، وقال في استسلام دون رغبة:
ـ ماشي!
خلع الجلباب، وأخذته المرأة متلهفة كأنها عثرت على مفقودات ثمينة، وزفرت وشهقت وقالت بصوت أقرب إلى الهمس:
ـ ياما انتَ كريم يارب!
ثم ألقت على بيومي، الواقف عاريًا أمامها كتمثال، جلبابه الرث، ولما لبسه وضعت يدها فوق ظهره، وقالت وهي تقوده ناحية الباب:
ـ اوعى ياواد تجيب سيرة عن اللي حصل الليلادي.. أصل الشيخ محروس يقطع خبرك من الدنيا!
ـ ماشي!
ـ جدع.. يالا بقى اجري روح لسماسم زمانها بتستعوقك!

الفصل الثاني

١

مثل كل الأعيان في البلاد المجاورة، كان غريب الملط شيخ خفر كفر الدكر يرتبط بعلاقات متينة مع كبار القوم في القرى المحيطة، وخاصة الذين يمثّلون القانون والنظام في تلك البلاد، التي تربطنا بهم حدود مشتركة، وعلاقات شعبية ليست على مايرام.

امتطى حمارته البيضاء الفارعة، وتبعه ثلاثة من الخفر، يحملون بنادقهم فوق مناكبهم، ويصيحون في الفلاحين، ويشخطون أن أفسحوا الطريق لحمارة حضرة شيخ الخفر، وأن يعبّدوه لها، وهمس فلاح كان يمشي بالقرب من الموكب إلى أقرانه متحسرًا وساخرًا:

ـ وسّع ياجدع انتَ وهو، للـهانم الحمارة!

كان في طريقه لحضور حفل ختان ابن نظيره في قرية أبو علي، وحين وصل إلى الحدود التي تربطنا بتلك البلدة، أوعز للخفر بالعودة ثانية إلى الكفر، وعدم التهاون ولو لحظة عن حفظ الأمن والاستقرار في فترة غيابه.. فليس من الذوق ولا من العرف أن يصطحب خفراءه إلى بلد آخر حاملين بنادقهم، ذلك اختراق جسيم للأعراف والبروتوكول قد يتسبب باندلاع معارك ضارية بين البلدين..

عاد الخفر وأكمل طريقه، ووصل إلى دار شيخ خفر كفر أبو علي، فأطلقت بنادق الخفر أعيرة نارية مرحبة بالضيف العزيز، الذي جاء ليحضر مراسم ختان ابن شيخ الخفر، تلك المراسم التي يُدعى فيها كبار القوم والأعيان من البلاد المجاورة، ولذا شارك الملط رغم ما نشب من خلاف طفى على السطح بين الرجلين، على أثر الأزمة الأخيرة التي عصفت بالعلاقات بين القريتين، بسبب ما قام به جدعان كفر الدكر من تخريب ودمار لممتلكات قرية أبو علي. كان ذلك من تحت رأس تلك الغازية التي كانت تُحيي حفل زفاف شاب من قرية أبوعلي.. وكان جدعان كفر الدكر، كعادتهم حين ينقل إليهم الهواء صوت أغاني أعراس عبر المذياع؛ يطاردون ذلك الصوت ليلًا في جماعة، ويحضرون تلك الأفراح التي فيها غوازي، ولو في آخر بلاد المسلمين..

كانت الغازية لعنها اللـه، كما كان يردد الشيخ محروس، ترقص وتتمايل في خلاعة ومجون، وتعري بيديها ساقيها وهي تشير ناحية جدعان بلدنا، وتغمز لهم بطرف عينها، بينما كان جدعان كفر أبوعلي، على الجانب الآخر، توشك عروق رقابهم على الخروج من أماكنها غيظًا وحنقًا من تلك الغازية، ومن هؤلاء الضيوف الذين لا يُراعون أصول الضيافة ولا اللياقة..

توجه شاب من كفر أبوعلي، أو «كفر النسوان» كما يُطلق عليه أهل كفر الدكر، ناحية جدعان البلد الذين كانوا مشغولين مع تلك الغازية، التي سحرت ألبابهم وأفقدتهم السيطرة على أنفسهم.. وضرب واحد من جدعان كفر الدكر في ساقه، وزعق مستهزئًا:

ـ العمى سابك على نواضرك يا جدع انت!

وكانت تلك الشرارة التي اندلعت بعدها المعركة بين جدعان كفر الدكر ـ الذين ما إن سمعوا ذلك الشاب يسب ابن بلدهم، حتى انقضوا عليه كالأسود الجائعة ـ وبين أهل كفر أبو علي، الذين انتفضوا هم أيضًا من أجل بلدهم وكرامتهم الوطنية التي لطخها هؤلاء المعتدون بالعار، وامتدت الخناقة ساعات، كانوا يطاردون بعضهم البعض في شوارع البلد.. بينما أخذت الغازية وفرقتها الموسيقية ذيلها في أسنانها وفرت عائدة إلى البندر حيث جاءت، تاركة هؤلاء الفلاحين المخابيل

إلى مصيرهم الذين يستحقونه، في داهية، هكذا كانت تُردّد غاضبة وهي تمشي حافية في الظلام وسط الحقول، هي وفرقتها الموسيقية، التي لولا أكل العيش المر، والحياة الأمر، والمنافسة الشرسة بين الفرق الأخرى في البندر، ما وطأوا أرض تلك القرى ولا شافوا أهلها، الذين لايُجيدون التعامل مع الأنثى الجميلة ولا مع الفن الراقي!

٢

ولم تضع المعركة أوزارها إلا حينما جاء الملط مهرولا، وشخط في جدعان البلد، وأمرهم أن يكفوا عن صنيعهم، وكذلك فعل شيخ خفر كفر أبو علي، واتفق الطرفان على جلسة عرفية، يحدّد فيها الطرف «الغلطان».. وكانت الجلسة التي انعقدت في دوار عمدة قرية ثالثة ترتبط بحدود مشتركة مع البلدين.. بعدما قرأ الرجال الحاضرون الفاتحة، واتفق الجميع بما فيهم الفريقان على قبول الحكم أيًا كان، وأقسموا على المصحف.. قال عمدة تلك القرية:

ـ الغلط راكب جدعان كفر الدكر من ساسهم لراسهم، وأدبًا لهم، يدفعوا تعويض خمس جاموسات عُشر لأهل كفر أبو علي.

لم ينتظر غريب الملط أن ينتهي الرجل من حديثه، وانتصب واقفًا، كأن ثعبانًا شراقيًا لدغه، وصاح غاضبًا وهو يشيح بيده ناحية ذلك العمدة ومن معه:

ـ خمس جاموسات عُشر ليه؟! اتعشرت من قرد منك له!

انتصب الجميع واقفين، منتفضين لكرامتهم التي أهدرها غريب الملط، وهم يصيحون في غضب:

ـ عيب على سنك وشنبك.. اخص عليك راجل اخص!

ومد شيخ خفر كفر أبوعلي يده متحرشًا به، ومسكا في خناق بعضهما البعض، واندلعت معركة أخرى بين الطرفين..

ولم تخمد نيران تلك المعارك إلا بصلح عقده الطرفان في المركز.. يومها شخط حضرة المأمور في شيخ بلدنا ونظيره في كفر أبوعلي قائلًا، وعروق رقبته تكاد أن تخرج من الغضب:

ـ اسمع ياجدع انتَ وهو، لو مش حاتتصالحوا، وحياة أمي ما حاتخرجوا منها إلا على القرافة..

تأتأ الاثنان قليلًا قبل أن يقبلا مذعنين الصلح، ولثم كل منهما رأس الآخر على مضض، كان صلحًا على الأوراق وفي محاضر الحكومة، لكن ما وقر في القلب ظل كما هو.. والأيام كانت هي الكاشفة..

لما انتهى غريب الملط من مراسم حفل ختان الولد، وفي طريق عودته إلى البلد، كان ممتطيًا حمارته، التي وقفت في الطريق فجأة، عند الساقية الكبيرة، استغرب في بادئ الأمر، وظن أن قناة أو حفرة تمنعها من المرور، لكن ليس ثمة شيء، هز ركبتيه بعنف فوقها، وضربها بالسوط على مؤخرتها، وظلت واقفة رغم شخيط الملط الذي يسمعه من هو على بعد أميال.. لقد حرنت الحمارة، ولا تريد أن تواصل السير، نزل من فوقها بعدما تعبت يداه من الضرب، ووقف أمامها، وأمسك بحبلها، وجذبها إلى الأمام، كانت تقاوم، وهو يزيد من قوة الجذب، إلى أن انصاعت وخطت تلك الخطوة، التي كانت لا تريد أن تخطوها.. وياليتها ما فعلت!

وعاد الرجل.. كان في انتظاره الخفر، وأمسك أحدهم بحبل الحمارة، وأوثقها في الزريبة.. وتركهم الملط ودخل الدار، دون أن يسب ويلعن ويشخط وينطر فيهم كعادته، كان يمشي وذراعاه بجواره مرتخيتان، وعيناه زائغتان، تائه، يُحدّث نفسه، ومنكباه يرتجفان، وكان الخفر يتابعون في صمت

وذهول.. يعتريهم إحساس بالفرح لأنهم لن يسمعوا أسطوانة الإهانات اليومية منه، وكذلك شعور بالقلق على الرجل..
وشقشق الصبح في كفر الدكر، وذهب كل حي إلى مصالحه.. وبينما الفلاحون في الغيط، بالقرب من الساقية الكبيرة، إذا بشيخ الخفر غريب الملط يرقص عاريًا كيوم ولدته أمه.. فرت الفلاحات مهرولات بعيدًا عنه، وهن يضعن أياديهن فوق أعينهن من الخوف والخجل، ووقف الرجال فاغرين أفواههم وأعينهم عن آخرها، وقد ضربهم الذهول، وهم يرمقون الملط الذي لو شخط في أحدهم، فإن الهواء الذي سيخرج من فيه لقادر على أن يطيّره بعيدًا، هكذا كانوا يعتقدون..
وهاهم الآن يرونه عاريًا يرقص كالمجانين، يخبط على مؤخرته كالقرود، ويعوي كالذئاب، مثل الولد بيومي، «ماذا حصل؟ هل سنبقى متفرجين فقط دون أن نحرك ساكنًا؟» قال أحدهم.
أجاب آخر، وهو يضرب طفله الصغير الواقف بجواره على رأسه:
ـ روح يابن الكلب، هات جلابية من الدار نستر بها الراجل وتعالى رهوان!
وعاد الولد بجلباب قديم مسرعًا، وتوجهوا ناحية شيخ الخفر، وقال أحدهم له:
ـ البس الجلابية يا حضرة شيخ الخفر.. استر نفسك النسوان مالية الغيط، مايصحش كده!
لكن الملط رفض، فالتفوا حوله، وألبسوه عنوة، بعد معافرة ومناهدة أجهزت على قواهم، فالرجل لديه رقبة أسمك من جذع أحدهم، ودماغًا كرأس عجل جاموس كسر سنتين، وساعدان قويان، ولديه صحة تجعله يناطح ثورًا، هكذا كان يُردّد دائمًا وهو يسخر من «عيال هذه الأيام»، قليلي الجهد والعافية، الذين لم يرضعوا من ضرع الجاموسة مثله، ولم يأكلوا أرطالًا من السمن البلدي صباحًا على غير ريق.. وعادوا به إلى جناب العمدة موسى، الذي استدعى الإسعاف على عجل، وكانت أول مرة يرى فيها الفلاحون سيارة الإسعاف، حتى ظن بعضهم أن تلك السيارة تعود لجناب المأمور أو للسيد المحافظ..
وغاب الملط عن القرية بجسده، بينما كانت سيرته على طرف كل لسان.. ضرب الخبل عقله، حتى حمارته كانت تقطع الأحبال وتركض باتجاه الساقية الكبيرة، وهناك تتمرمغ كأن حية لدغتها، وتضرب الأرض بفمها وهي تهز ذيلها، وجسدها ينتفض، وكان أهل البلد يفرون بعيدًا عنها، حين يرون منظرها المرعب.. ماذا يسكن هذا المكان؟ ولماذا الساقية الكبيرة يقف عندها الملط عاريًا، وكذلك حمارته.. لن يجيب عن تلك الأسئلة، التي قذفت الرعب في قلوب أهل البلد، إلا سيدنا أبو داوود.. لكن أين هو؟!

٣

لا تعرف كفر الدكر ماذا حدث لغريب الملط حتى يخرج من هدومه هكذا، ويقف عريانًا أمام الناس، ويقفز كالقرود في الجبلاية، ولا حمارته التي يبدو أنها أصابها ما أصاب صاحبها..
ليس لها سوى سيدنا أبو داوود، الرجل البركة، التقي النقي الورع، الذي هجر متاع الدنيا وفرّ منها إلى الآخرة، زهد المال والنساء ومتع الحياة، وترك البيوت الهانئة، وأقام في عشة وضيعة على حرف الترعة، لم يخرج منها يومًا، فلم يره أحد من أبناء القرية يمشي يومًا في شوارعها، منذ ما يزيد عن ثلاثين عامًا، منذ أن تاب اللـه عليه ورضي عنه..
قبل ذلك التاريخ.. كان أبو داوود شابًا مثل كل جدعان كفر الدكر، يلهو ويعبث خلف النسوان، ويدخل في خناقات كان يخرج منها دائمًا منتصرًا، في ساعديه كانت تكمن قوة غريبة، يكفيه حين

يتعارك أن يمسك خصمه من رقبته، ليخرّ ساقطًا أرضًا.. لذا كان يتحاشى شباب البلاد المجاورة العراك مع جدعان البلد، فهم يعرفون أن الخسارة والجُرسة ستكون مصيرهم المحتوم في وجود الشاب أبو داوود..
ذات يوم سقطت جاموسة واحد من عائلة الدكر الكبيرة في البئر العميق المسكون، وكانت الجاموسة عُشرًا على آخرها، وصرخت المرأة التي كانت تسحبها، ورقعت بالصوت الحياني، وهي تهيل على رأسها التراب:
ـ الحقوني ياناس.. روحولي يا هو.. الجاموسة ياعالم وقعت في البير!
هرول أهل البلد ناحيتها، واجتمعوا حول البئر، يوزّعون النظرات المتحسرة الحزينة بين الجاموسة القابعة أسفل البئر، والمرأة التي خمد صوتها وسكنت حركتها في استسلام ويأس، وزوجها الذي أخذ يركلها بقدميه ويصيح:
ـ وقّعتِ الجاموسة في البير يا بنت الكلب، ضيعتِ شقى عمري يابنت الرافضي.. واللـه ما انتِ بايتة فيها الليلادي.. انتِ طالق!
لا أحد يحرّك ساكنًا، غير مصمصات شفاه وتريبت على كتفي الرجل صاحب الجاموسة وزوجته المكلومة، وبعض الكلمات المواسية التي لا تسمن ولا تغني من جوع.
ـ فداك ياجدع انتَ وعيالك، ماتقولشي كده، ماتبقاش عبيط، انتَ هتكفر باللي خلقك!
وتنشق الأرض عن منقذ للجاموسة، ولتلك المرأة المسكينة، التي ربط زوجها مصيرها بمصير البهيمة.. فجأة صاح أبو داوود:
ـ جرى ايه يابلد؟ هانسيب جاموسة الراجل تروح كدا؟!
أجابه أحدهم، بينما اكتفى الباقون بهز مناكبهم:
ـ وهنعمل ايه يعني؟ البلد كلها لو نزلت البير ماحدش هيطلع، هو يستعوض ربنا.
ثم ربت على كتف صاحب الجاموسة، وقال بأسى:
ـ استعوض ربنا يا دكر!
لكنه لم ييأس كهؤلاء المستسلمين، وأحضر حبلًا سميكًا، لفه حول وسطه، وأعطى طرفي الحبل للحاضرين، وطلب منهم أن يربطوا طرفيه في جذع شجرة بجوار البئر.. ونزل البئر، بينما أرخى الناس الحبل، مترًا بمتر، وهم مذهولون وفاغرون أفواههم عن آخرها، وقلوبهم ترتجف من الخوف والقلق على الجدع..
ما يصنعه شيء من الجنون، فلا أشجع جدع في كفر الدكر يستجرئ أن ينزل هذا البئر أو حتى يرمق أسفله، فهذا البئر تسكنه جنية شريرة تدعى سهير، لا يعرف قلبها التسامح.. كم من جاموسة أو بقرة سقطت فيه من قبل، واستعوض أصحابها اللـه فيهم خيرًا، يقال إن تلك المواشي التي تسقط لن تطلع، لأن الجنية ستذبحها وتطعم أبناءها الصغار، والويل كله لمن ينافسها أو يحاربها في طعام أبنائها، فالموت سيكون مصيره المحتوم..
وحكاية ذلك الرجل الغريب، الذي كان عابرًا فوق حمارته من كفر الدكر، ونزل ليلبي نداء الطبيعة مصادفة بجوار البئر، وسقطت قطرات من بوله فوق رأس الجنية الكبيرة سهير القابعة في البئر، فاستشاطت غضبًا، وطلعت له في الحال، وقبضت على «زمارة» رقبته، ولما مر الناس بجوار البئر عثروا عليه ميتًا، وعلى رقبته وظهره تبدو أصابع سهير واضحة..

مازال ينزل إلى أسفل، والناس مرتعدو الفرائص ترخي له الحبل، حتى وصل إلى الجاموسة، وزعق بصوت عالٍ، كان صداه يدوي في البئر وخارجه:
ـ يا بدوي.. شاللـه يا سيد.. شاللـه يا حسين.. شاللـه يا طاهرة.. يا أوليا اللـه الصالحين!
ونجح ـ بينما كانت الناس تخشى من رمقه أسفل البئر ـ أن يلف الحبل حول وسط البهيمة، وأسند كتفه تحتها، بينما قدماه تضربان بقوة في جانب البئر، وصاح وعروق رقبته تكاد أن تخرج:
ـ الفاتحة للنبي ياجدع انتَ وهو!
كان كتفه خلف الجاموسة، وكان يضرب بقدميه جدار البئر، ليدفعها بمنكبه، والناس تشد الحبل، إلى أن خرجت بعد صياح وهتاف ودعوات كانت تخرج من قلوب أهل البلد قبل حناجرهم، وولدت عجلان في لحظتها.. وسط ذهولهم، ورعبهم من انتقام الجنية، التي ربما نجى أبو داوود من عقابها لغيابها عن البئر في ذلك الوقت، هكذا خمّن بعضهم..

٤

كان أبو داوود في صدر شبابه مثل الولد بيومي العايق، يلبس الجلباب نظيفًا ليس فيه مكان واحد لرتق أو رقعة، ويفرق شعره المسبسب على جانب، ويمشي متبخترًا وهو يبرم شاربه الكث، ويضرب بكلتا يديه عضلاته المفتولة، كان مزهوًا بنفسه، بيد أنه كانت تبدو عليه أمارات الصلاح والتقى والبركة..
فلقد أقسمت أمه بنور عينيها أنها قبل أن تحبل فيه رأت في المنام الست الطاهرة، ترتدي أبيض في أبيض، وفي يدها طبق دقيق قمح فاخر، وهتفت بصوت حنون عطوف وهي تربت على كتفها:
ـ مدي ايديك يا اختي وخدي الصحن ديه ليك انتِ والولي اللي جاي في السكة..
تضيف أم سيدنا انها استيقظت من نومها وقد تبدل حالها.. ففي تلك الليلة ضربها زوجها ضربًا مبرحًا ترك آثاره على جسدها ورقبتها، وشخط فيها وهو يواقعها:
ـ داتك الهم ولية فقر، كل خلفتك بنات، مفيش مرة تغلطي وتعملي زي النسوان الشاطرة وتجيبي ولد
تواصل الحديث:
ـ لما استيقظت تذكرت حديث السيدة، وقولت لنفسي إن اللـه يخفي لي خيرًا كثيًرا، لكني عجزت عن تفسير من هو الولي الذي حدّثتني عنه في منامي..
ومرت تسعة أشهر على ذلك المنام بالتمام والكمال، وإذا بي أشعر بآلام خفيفة، كأن شيئًا يتحرك في أحشائي، فناديت أم عويس الداية، واستلقيت على الجسر، وفتحت المرأة ساقيّ، وهتفت بصوت تملؤه السعادة:
ـ انتِ بتولدي يابت!
حدّثت نفسي، ماذا تقول هذه القابلة التي عجزت وخرفت، ولم أكمل حديثي بعد، حتى رأيت أبو داوود قطعة لحم صغيرة بين راحتيها، لم يصرخ كالأطفال حديثي الولادة، بل رمقني مبتسمًا..
فقلت في نفسي، لقد تحققت رؤياك يابنت، شاللـه يا طاهرة، شاللـه يا ست!
أم عويس نفسها أقسمت أنها، لما فتحت ساقيّ أمه، وجدت رأسه خارجة، وجسده تقريبًا كله كذلك، وحين مدت يدها، فوجئت بسيدنا المولود يمد إليها يده مصافحًا..

الحديث عن بركات سيدنا أبو داوود لا تنتهي، الكل كان يعرف أنه مبروك، كان يكفي البقرة العاقر أن تمشي يد سيدنا المباركة على ظهرها، لتجدها تملأ الزريبة صخبًا طلبًا للعُشر..
ذات يوم نُصبت عركة كبيرة مع كفر أبو علي، التي عاكس أحد شبابها فتاة من البلد.. انتفضت عروق الغيرة والنخوة بداخله، وذهب ومعه نفر من الجدعان بقدميه إلى تلك البلدة، وضرب كل من يقابله بالنبوت ضربة واحدة كان يخرّ بعدها ساقطًا مغشيًا عليه.. ضرب منهم من ضرب، وسقط من سقط، وجرى الآخرون أمامه فارين بأبدانهم وأرواحهم..
ومن هنا أطلقت كفر الدكر على كفر أبوعلي لقب «كفر النسوان»، ومازال جدعان بلدنا يعايرون رفقاءهم من هذه القرية الغريمة بتلك الواقعة..
لما نام أبو داوود، رأى رجلًا يلبس جلبابًا أبيض، وفوق رأسه شال أبيض، ووجهه يشع نورًا، مثل نور المسبحة التي يمسكها في يده، قال بصوت هادئ حنون:
ـ واخد على خاطري منك.
انزعج وقال وبدنه النحيل يرتعش:
ـ ليه ياسيدنا البدوي!
أجابه وهو يعطي له ظهره:
ـ عشان بتفتري على الناس.. خلي صحتك للخير مش للشر.
ثم تركه وطار من الشباك، وأبو داوود ينادي:
ـ مدد يا سيد يا بدوي.. مدد!
منذ تلك اللحظة ترك الدار، وأقام في عشة على حرف الترعة ليعبد اللـه، ويقوم على خدمة خلقه، الذين يحجون إليه من كل البلاد، حتى أهل كفر أبو علي، فلا أحد مهما بلغ جبروته وعداءه؛ يستطيع أن يصد أحدًا من أهلها من المجيء إلى سيدنا، فعشته ملجأ لخلق اللـه من شتى بقاع الأرض.
لا يخرج الرجل من عشته سوى نادرًا، ولا حتى ليختلف إلى المسجد.. لم يذهب إلى الجامع وهو يصلي جماعة، الصلاة في وقتها، مع الملائكة؟ هكذا أقسمت الكاتعة، بأيمانات المسلمين والنصارى، أنها شافت سيدنا يصلي إمامًا، وخلفه تقف الملائكة في صفوف، وهم يرتدون جلالبيب بيضاء والنور يشع من أجسادهم..
انتشر حول عشته الدراويش والمجاذيب من كل مكان، يطوفون حولها طول النهار، حتى تتورم أقدامهم وتبحّ أصواتهم، ويهتفون:
ـ مدد يا سيدنا أبو داوود.. مدد!

٥

ذهب دسوقي الدكر ومعه نفر من أهل البلد، طالبين النجدة والمشورة من سيدنا، هو الوحيد القادر على حل لغز ما حصل للملط، فالرجل لم يتحمل البقاء في المستشفى يومًا واحدًا، وقفز من فوق سورها، وعاد إلى الساقية، خالعًا جلبابه، وراقصًا، وبجواره حمارته..
خبط دسوقي على باب العشة، ولم يجبه أحد، فقال أحد الذين جاءوا معه:
ـ يبدو أنه يقيم الصلاة مع الملائكة الآن.

وأشار عليهم بأن ينتظروا قليلًا لينتهي سيدنا، ومكثوا أمام الباب ساعة كاملة، وعاود بيومي العبيط الخبط متطوعًا.. ولم يرد أحد، أخذ القلق ينهش في قلوبهم، وأشار أحدهم:
ـ زقوا الباب نشوف سيدنا جراله ايه!
ودفعوا الباب، ودلف دسوقي يسبقه بيومي الذي دخل دون استئذان، وكانت المفاجأة التي ألجمت لسان ابن الدكر، وجعلت العبيط يصيح خارج العشة، وهو يقفز إلى أعلى مثل القرود، ويضرب بيديه ساقيه:
ـ سيدنا مش موجود في العشة يا أهل البلد!
أصابهم الذهول والاستغراب والاندهاش، وتبادلوا النظرات للحظات في صمت، ثم هتفوا في صوت واحد:
ـ اللـه حي، سيدنا حي!
الرجل ليس في عشته، ولم يشاهده أحد من الدراويش ولا من المجاذيب خارجها، ليس لها سوى تفسير وحيد، قاله رجب كلاف العمدة مرتجفًا:
ـ سيدنا طار يا أهل البلد، أصحابه الملايكة خادوه معاهم السما!
وهتف دسوقي بلهجة حزينة متحسرة:
ـ الرجل الطيب طار، طفش من عمايلكوا يا بلد كفرة!
وصاح حمودة الحمارة، وعينيه تجول في وجوه الحاضرين:
ـ صحيح يا ولاد.. ما يقعد على المداود إلا شر البقر!
وشاركهم بيومي العبيط وهو يعوي كالذئب الجائع:
ـ ربنا بعت خده فوق، عشان يولع في كفر الدكر باللي فيها!
عقّب الحاضرون وهم ينظرون بغيظ وغضب لبيومي، وعقّب دسوقي الدكر وهو يزجره وينهره:
ـ فال اللـه ولا فالك.. داهية لا تيرك يابعيد.. جيب العواقب سليمة يا رب!

٦

كان في الثامنة من عمره حين جاء إلى البلد، أمضى سنتين في مدارس البندر، واشترطت أمه على دسوقي الدكر أن يكمل تعليمه، فالولد تظهر عليه علامات النبوغ والتفوق في هذا السن الصغير، هكذا أكدت، فهو يحفظ الأعداد لغاية عشرة، وكذلك يحفظ نصف سورة الفاتحة، وتلك أمارات نبوغ لا يمكن تجاهلها!
واصلت حديثها عن ابنها النابغة: لقد أكدت لي العرافة وهي تضع يدها فوق رأسه، أن هذا الولد سيكون ذا شائن عظيم وسط قومه، سيصير حكيمًا يداوي المرضى، أو قائد جيش يخترق الحصون المنيعة، وغازيًا آخر البلاد، ووصت العرافة بسيوني في نهاية حديثها أن يستوصي خيرًا بالغلابة الذين ليس لهم في الدنيا سوى اللـه..
يومئذ كان لم يبلغ عامه الثالث بعد، لا يدرك ماذا تقول تلك المرأة، ولكن نبوية هزت رأسها وقالت بلسان الثقة والتفاؤل، وهي ترمق صغيرها بنظرات تلمع فيها دموع الفخر:
ـ طبعًا يا حبيبتي، هو ليه بركة إلا الغلابة!
ثم حملته فوق كتفها وهمت بالانصراف، فاغتم وجه العرافة، وقالت وهي ترمقها بعينين يملؤهما الغضب:

ـ فين حسنتي يا ختي؟ انتِ حتقومي تمشي كده وخلاص!
أربد وجهها خجلًا وزعقت وهي تشيح بيديها:
ـ ما براحة علينا يادلعدي، هو انتِ شفتيني طرت!
أعطت نبوية للمرأة مافيه النصيب، وانصرفت عائدة إلى مرزوق، الذي كان يزرع الدار ذهابًا وجيئة، وفي صدره تنفجر براكين الغضب، وما إن خبطت على الباب حتى فتح، وأنزل بسيوني من فوق كتفها بعنف، وزعق في وجهها:
ـ كنت فين؟
أجابته مضطربة خائفة:
ـ عند الولية العرافة.
انبسطت عضلات وجهه قليلًا، وانفرجت أساريره:
ـ قالت لك ايه؟
ـ قالت إن بسيوني حيبقى حكيم قد الدنيا!
استشاط غضبًا، وصاح وهو يجذبها من مرفقها بعنف:
ـ بسيوني مين؟ بحسبها قالتلك انك حامل ولا حتحبلي في أيامك اللي شكل ابنك وش الفقر.. وبعدين حكيم ايه؟ وزفت ايه؟ ابقى تفي على قبري لو فلح في حاجة!
كان مرزوق مسطولًا، وجذب الصغير من ذراعه بقوة، وقاده خارج الدار، ثم أغلق الباب، والتقط قطعة خشب كانت أمامه، وانهال بها على نبوية، فكان الولد في الخارج يصرخ وهو يطرق الباب، بينما أمه تبكي هي الأخرى من الضرب المبرح، ومن الحزن على صغيرها، الذي طرده زوجها.. ولم يخلصها من يده سوى حضور الجيران أولاد الحلال، الذين هالهم سماع بكائها ونحيب طفلها، فطرقوا الباب، ودخلوا، وأزاحوا زوجها بعيدًا عنها، ودلف بسيوني، مفطورًا من البكاء، وارتمى في حضنها، وأخذ الجيران مرزوق وخرجوا به إلى المقهى، حيث يقضي سهرته.. ولما عاد استقبلته باسمة، كأن شيئًا لم يحدث، برغم آثار اللكمات البادية على وجهها المزرقّ وانتفاخ عينيها واحمرارهما.. وقالت وهي تدعك قدميه بالماء الساخن والملح الذائب:
ـ ما تخدش على خاطرك مني، شيطان ودخل بينا يا اخويا، عين وصابتنا يا سي مرزوقا!

٧

لما شقشق النهار، وسرح الناس مواشيهم إلى الغيط، وسط أهازيج العصافير، التي تحتفل بمولد يوم جديد، عانقت يد دسوقي الدكر يد ابن أخيه واصطحبه إلى المدرسة، رغم اعتراض زوجته، فهي لا ترى في وجه هذا الولد خيرًا، ولا أي فائدة ترجى من وراء التعليم، كانت ترى أن مصيره للغيط، ورعاية المواشي التي ربما كانت أكثر فهمًا منه، لكن عمه كان محافظًا على عهده مع نبوية، وكذلك كانت لقصة تلك العرافة، التي تنبأت له بمستقبل باهر، نصيبًا كبيرًا في أن يذهب به إلى المدرسة، كان ينصحه دائمًا وهم في الغيط، يحشون البرسيم للبهائم، ويكنسون تحتها:
ـ عايزك تبقى ضاكتور قد الدنيا يا ولا، لاجل تنفع نفسك وتنفع إخواتك البنات، وترفع اسم عيلة الدكر في العلاللي..
في مدرسة كفر الدكر الابتدائية، جلس بجوار ديسطي ابن الكاتعة، في الصف الأخير، في فصل صغير، في دار من دور العمدة القديمة، المبنية بالطوب اللبني، والمعروشة بقش الأرز، كان

مكتظًا بالعيال، الذين كان يختلفون إلى المدرسة حفاة بجلابيب رثة مهلهلة، رغم زعيق حضرة الناظر، الذي كان يطردهم كل يوم ويشخط فيهم:
ـ ماتجوش المدرسة إلا وانتم مستحميين وشايلين القشف من على جتتكم، ولابسين مركوب في رجليكم، وجلابية نضيفة، انتم مش داخلين زريبة.. دي مدرسة.. يعني محراب العلم يابهايم!
وكان التلاميذ يخرجون من المدرسة مهرولين وهم يصيحون من الفرح، حين يطردهم الناظر، ويذهبون عند الترعة، وهناك يقضون يومهم، ثم يعودون إلى بيوتهم في نهاية اليوم الدراسي..
لا أحد من العيال في كفر الدكر «غاوي تعليم»، حتى سي الدكتور بسيوني ـ هكذا كان يناديه عمه ـ كان يقفز «المنصل» الذي يفصل بين المدرسة والبلد، ويقضي يومه هناك بجوار مواشي عمه في الغيط مع رفيقه ديسطي..
ولم تكن غير البنت نفيسة، ابنة رجب كلاف العمدة، تغوى التعليم وتحب المدرسة، وتحرص على الاختلاف إليها كل صباح، دون أن تمد بوزها مترين مثل أقرانها، الذين أجبروا حضرة الناظر على أن يخرج عن وقاره ويشخط بعلو صوته:
ـ يابلد بهايم يا ولاد البهايم!
معذور الرجل، فحين كان يطبق النظام، الذي أمرت به الوزارة، ويطرد التلاميذ المخالفين، كان لا يبقى في المدرسة طولها بعرضها سوى نفيسة، بينما كانت العيال تركض نحو الخارج، وهم يصيحون من الابتهاج:
ـ بركة يا جامع!
وكان دسوقي الدكر يذهب إلى المدرسة، ويمسك في خناق المدرسين والناظر، متهمًا إياهم أنهم في أحسن أحوالهم مثل حمارة شيخ الخفر، ولا يعرفون شيئًا عن التعليم، بالكاد يفكون الخط.. وسوف يصير ابن أخيه طبيبًا شهيرًا، يسمع به برّ مصر كله.. لايعرفون كيف يتعاملون مع الأولاد العباقرة أمثال بسيوني الدكر، دون أن ينسى تذكيرهم بمدرسي البندر، الذين كانوا يذرفون الدماء من أعينهم حين علموا برحيل بسيوني عن مدرستهم، كانوا يقسمون بأغلظ الأيمان أنهم لم يروا تلميذًا في نجابته.. وكان الناظر يهدّده وهو يشير إليه بخرزانته من بعيد، ويحدّثه من أطراف أنفه:
ـ امشي ياجدع انتَ من هنا، وخد ابنك أنشتاين.. وديه في داهية!
وكان دسوقي يستشيط غضبًا ويصيح:
ـ بتشتمني وكمان بتطردني يا حضرة الافندي؟ انتَ عارف انتَ بتكلم مين؟
فيجيبه الناظر هازئًا:
ـ يعني أكون بكلم مين يا خي، تكونشي ابن بارم ديله!
يزعق ويشير بيديه يمينًا ويسارًا في غضب:
ـ آني من عيلة الدكر ياجدع انت!
فيشيح إليه الناظر بظهر يده، ويصيح وهو يُضيّق عينيه ويجعّد وجهه، وقد بدأ صبره في النفاد:
ـ تقولشي عيلة محمد علي باشا يا خي.. غور ياجدع انت، بلا دكر بلا نتاية!
اشتعل الغضب في صدر دسوقي من حديث الرجل الهازئ من عائلته العريقة، وهمّ أن يفتك به، لولا أن حال بينهما المدرسون، وربت أحدهم على كتفه، وهو يغمز بطرف عينه ويعض على جانب شفته السفلى للناظر ليصمت، وسايسه آخر وقاده إلى الخارج بعيدًا عن المدرسة، بينما كان يصيح موجهًا حديثه لحضرة الناظر والذين معه:

ـ إيوه هوديه مدارس البندر، هناك مداس الأفندي منهم برقبتكم كلكم!
كانت تنتفخ أوداج الناظر، ويصيح زاعقًا:
ـ قسمًا عظمًا لو ما غورت ياجدع انتَ لمبلغ المركز!
وكان أحد المدرسين يهدئ من روعه، ويجلسه على الكرسي، ويهمس في أذنه:
ـ بالراحة ياحضرة الناظر، احنا عايزين نقضي اليومين بتوعنا على خير.. البلد دي اللي مابيعرفشي يرفس فيها بينطح.. منها للـه الوزارة، اللي نفتنا هنا!
فكان الخوف يدب في أوصال الناظر، ويلتزم الصمت، وكذلك المعلمون، تاركين دسوقي يلقي موشحه اليومي، دون اعتراض، فأصبح وجوده يوميًا في المدرسة معتادًا، وصمتهم كذلك.

٨

«ادّلى» رجب الكلاف إلى البندر، ليشتري أحبالًا ومقاطف وشقارف لجناب العمدة موسى.. كان حين يختلف إلى البندر، ثم يعود إلى البلد؛ يجمع الفلاحين، ويقيم الجلسات، ويأخذها لحسابه هو بمفرده، لا يجب أن يتحدث غيره، فلا أحد يعرف البندر مثله.. هل مشى أحدهم في شارع المركز؟ وهل يعرفون طريق المستشفى الكبيرة ولا الفشخانة؟ كان من الممكن لأكثرهم أن يجيب، لكنه لم يكن يترك لهم فرصة ليشاركوه الحديث، فلقد أتى لتوه من البندر، واشترى من هناك علبة سجائر مكنة، غير تلك المصنوعة من التبن وروث الحمير التي تبيعها الكاتعة في دكانها الصغير، لذا كانوا يؤثرون الصمت، والتظاهر بالإنصات له، طالما كانت الجائزة سيجارة مكنة ينظفون بها صدروهم من آثار سجائر الكاتعة، التي تبيعها لهم بالغلاء والكوا.
لكن رجب هذه المرة يبدو أنه أصيب بما أصاب شيخ الخفر، ربنا يأخذ بيده، وحمارته. فبعدما التف الناس حوله، ليس حبًا فيه، بل طمعًا في سيجارة بندارية، إذا به يهذي بحديث لا يصدّقه بيومي العبيط نفسه، ماذا جرى لكفر الدكر؟ يبدو أن ثمة عدوى في مياه الترعة، التي يستلقون على بطونهم ويشربون منها.. اللـه يلطف بالبلد.. الغوث يا سيدي الطائر.. العون والمدد!
بعدما أخرج سيجارة من علبته وأشعلها، والناس من حوله يرمقون الدخان الصاعد من فيه وفتحتي أنفه، قال:
ـ حد من حدانا راح المنصورة قبل كده ولا من الناحية كلها؟
أجابه دسوقي، وقد استبد به الغضب والغيظ:
ـ ياما!
ـ ادّلتها قبل كده امتى؟ دا انتَ أخرك المركز!
اضطرب ابن الدكر، وقال وهو يهزّ رأسه:
ـ بس أسمع عنها!
قهقهه رجب ونفث سيجارته ووزع الهواء إلى أعلى، وضحك الآخرون مجاملة له، وقال:
ـ آني لسه جاي من المنصورة دلوقتي!
بادره حمودة الحمارة بسؤال:
ـ احكي يا واد يا رجب شوفت ايه هناك؟
أجاب بلسان الثقة، وبلهجة العالم ببواطن الأمور، وهو يفتح قبضتيه ويغلقهما، ضاحكًا:
ـ شوفت ايه! دا آني شوفت يا ما يا ناس!

ثم صمت للحظات، راقب فيها عيونهم المفتوحة عن آخرها وأفواههم الفاغرة، وأردف:
ـ الشوارع هناك تقولشي مغسولة بالصابون يا جدعان، والدور ايه دي؟ بنوها إزاي؟ طب وسيدي الطاير آني شوفت دار تيجي عشر تدوار فوق بعض!
قال أحدهم لجاره هامسًا:
ـ قوم ياجدع انت، بلا مسخرة، مش عشان سيجارة هيسمعنا كلام ما يتعقلشي، هو مفكرنا بهايم من اللي بيعلفها!
فأجابه جاره وهو يلكزه في جنبه:
ـ اصبر أما نشوف آخرته.
ثم سأل حمودة متظاهرًا بتصديقه:
ـ عشر تدوار مرة واحدة؟!
أجابه مبتسمًا:
ـ إيوة واللـه إياك أعدم مراتي!
برطم الذي كان يطلب من جاره الانصراف:
ـ طيب انتَ عايز تخلص من المرة، احنا ذنبنا ايه! ملعون أبو دي سيجارة!
لكنه تسمر في مكانه حين سمع سؤال حمودة الحمارة:
ـ شوفت نسوان يا ولا؟
ـ أشكال وألوان ياجدعان.. إشي لابسة من غير هدوم.. طيب آني هقولك على حاجة، مع أني عارف إنكم بهايم مش هتصدقوني!
ثم صمت لحظة، أشعلت في صدورهم نيران الفضول، وسألوه في نفس واحد:
ـ حاجة ايه؟
ابتسم ووسع فمه مصطنعًا الخجل، وقال بصوت خفيض:
ـ آني شوفت مرة لابسة هدمة، مش مغطية حاجة.. ساعة ما بصتلها خزيت، بس الحرمة عينيها تندب فيها رصاصة، قعدت تبرقلي بالقلادة!
وأمسك أحدهم بطرف الحوار، وقال مؤمنًا على حديثه، وليستعرض هو الآخر خبرته عن أهل البندر:
ـ إيوة ياجدعان صدّقوه، النسوان في المنصورة بيحبوا الفلاحين عشان جامدين، إنما رجالة البندر طريين وخريعين..
عاود رجب حديثه:
ـ منها للـه موّعت نفسنا بنت الرافضي، الواحد معدش طايق يبص في وش المرة!
انطلق الجميع في الضحك، بعدما رش علبة السجائر عليهم، وفجأة سألهم دسوقي مغتمًا:
ـ مفيش أتر لسيدنا أبو داوود ياجدعان؟
فأجابه وكأنه تذكر أمرًا هامًا:
ـ تصدقوا باللـه، آني شوفت جدع شكل سيدنا في المنصورة، بس لابس أفرنجي، وماشي بيتعايق وساحب معاه واحدة شكل الغوازي، كانوا داخلين البتاع ديه، اللي اسمه كباريه..

كان حين يصادف بيومي في شوارع الكفر، يبول على نفسه من الخوف، فمنظر العبيط يذكّره بأحاديث أمه عن العفاريت، لكن ذلك الرعب لم يستمر طويلًا، بعدما صاحب الولد ديسطي ابن الكاتعة، الذي كان يملك قلبًا ميتًا لا يهاب العفاريت ولا الجن..
كان ديسطي يصطحب «ابن نبوية البندارية « ـ هكذا كانوا ينادونه في القرية ـ في بداية مجيئه إليها، ويهتفون خلف بيومي، بينما هو ينفخ في زمارته، ويعوي كالذئاب.. وحينما يصيبه التعب، يجلس تحت ظل شجرة الكافور الوارفة، ويلتف حوله العيال، ثم يحكي لهم حكايته مع العفاريت، التي كانت تصيبهم بالفزع ليلًا، والخوف من كل شيء.. حتى المجهول كان مفزعًا في كفر الدكر!
يحكي لهم عن زوجته الجنية سماسم، التي هي أجمل من نبوية البندارية، هكذا كان يردد وهو يقسم بأغلظ الأيمان.. وكيف أن لديه أولادًا مثلهم، يختلفون إلى المدرسة، ففي عالم الجن يتعلم العيال، ويصيرون أفندية كبارًا.. قاطعه الولد ديسطي:
ـ يعني عندهم ناظر وأساتيذ زي حالاتنا؟
أجابه العبيط، واللعاب يسيل من فمه على الحصى:
ـ إيوة، بس ولاد العفاريت فالحين في العلام مش زيكم، الواحد فيكم مايعرفش الألف من كوز الذرة!
ـ لما أكبر وابقى آدك، هروح استحمى في الترعة عند القرافة واتجوز عفريتة!
قهقهه العيال، وقال أحدهم مازحًا:
ـ ليه العفاريت بتلم؟ ماعدوش لاقيين إلا ابن الكاتعة!
انتصب ديسطي واقفًا، كأن ثعبانًا لدغه، واحمرّ وجهه، وتطاير الشرر من عينيه، وأمسك بخناق الولد، وألقاه على الأرض، وارتمى فوقه، وهو يكيل له اللكمات، ولم تمر سوى ثوانٍ معدودة، ونجح العيال في إبعادهما عن بعض..
وبينما هم ينصتون لحديث بيومي، إذا برجل عليه آثار النعم، يلبس بنطلونًا وقميصًا كنجوم السينما، وفوق رأسه قبعة كتلك التي يرتديها رعاة البقر الأمريكان، لم يروا أحدًا من قبل في البلد، ولا ابن العمدة نفسه، يرتدي مثل تلك الملابس الإفرنجية الفاخرة..
كان يمشي على شط الترعة، واثق الخطوات متبخترًا، ينظر أمامه، كأنه يعرف عنوان ما يريد أن يذهب إليه، لا يعبأ بهؤلاء العيال الذين تركوا العبيط، ومشوا خلفه يزفّونه، ولا بالنسوان اللائي شهقن من العجب والاستغراب حين رأينه.. حتى وصل إلى عشة سيدنا أبو داوود، وسط حشد من الدراويش والمجاذيب، الذين كانوا يحيون ذكرى أربعينية الطائر.. وهناك وقف قليلًا.. ودون أن يرمق أحدًا، دلف داخل العشة، وأغلق بابها.. بينما الناس في الخارج تضرب أخماسًا في أسداس، من هذا الغريب المتبجح، الذي انتهك حرمة وقدسية ولي من أولياء اللـه الصالحين، ليتبوأ مقعده الدائم في النار، جزاءً لما اقترفت يداه.. لا أحد من بعد ما طار سيدنا إلى السماء دلف ذلك المكان المقدّس الطاهر، الذي كانت تحوم بداخله الملائكة، سوى ذلك الرجل الملعون، الذي سوف تنتقم منه الجن، وربما استعملوه كحمار السباخ..
توقف قرع الطبول، وتسمّر الدراويش الذين كانوا يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار وهم يذكرون اللـه في خشوع في أماكنهم، وشخصت الأبصار كلها ناحية العشة، ما لهذا الغريب لا يحترم قدسية سيدنا؟ صرخ أحد الدراويش.. زادت الغمغمات، لا أحد يجرؤ على الدخول، فلربما سخطه اللـه قردًا، إذا أقدم على تلك الفعلة..

وقفوا يتبادلون النظرات الذاهلة، ماذا يصنعون مع هذا الوقح، لكن الكاتعة أختهم في الطريقة الداوودية كانت أشجعهم، دلفت وحدها العشة، وخرجت بعد دقائق معدودة هاتفة وهي ترقص، وعلى وجهها السعادة والحبور:

ـ سيدنا نزل من السما!

فتهللت وجوه الدروايش وهتفوا، وجذوعهم تتمايل في خشوع بحركات متناسقة:

ـ اللـه حي.. سيدنا حي!

١٠

عمت الأفراح في كفر الدكر.. سيدنا عاد من السماء، لم يخلّصه أن يترك بلده تعاني، ويعيش هو «مزقطط» مع الملائكة في السماء..

شيخ الخفر الملط يتراقص فوق الأشجار عاريًا.. ماذا حصل للرجل، الذي كان يشخط الشخطة تطير فيها بيوت؟ لفّوا به المستشفيات، بعد نصيحة الدكتور ابن جناب العمدة، الذي أخبرهم أن العلم الحديث يعالج مثل هذه الاضطرابات النفسية الطارئة التي تعتري البشر، وهاهم لم يتركوا باب مستشفى في بر مصر لم يدلفوه، وحالة الرجل تسوء يومًا بعد آخر.. ياليتهم لم يسمعوا لكلام هذا الأفندي، الذي صدّع الرؤوس بأحاديث غير مفهومة عن العلم وغيره.. لا يعرف هذا البيه الدكتور أن فوق كل ذي علم عليم، وفوق كل طبيب ولي من أولياء اللـه الصالحين.. ومهما ارتقت درجات العلم وحاز الأطباء أعلى الشهادات، لن يناطحوا هؤلاء الأولياء، فهم كلمة اللـه، ووكلاؤه على الأرض، يرفعون إليه طلبات عبيده..

لما استبدّ بهم اليأس، وانسدت منافذ الأمل في وجوههم، ألقوا بنصائح الدكتور ابن العمدة في الترعة العمومية، واصطحبوا الملط إلى الأولياء الصالحين، لكن لا أحد من العارفين باللـه أنفسهم استطاع أن يحل معضلة الرجل.. وقالت الكاتعة وهي واقفة أمام دكانها الصغير، بينما هم يحملون الملط فوق العربة الكارو، عائدين به إلى البيت، بعد جولة فاشلة عند الأولياء:

ـ مفيش غير سيدنا أبو داوود اللي يقدر ينجده!

صاح دسوقي وهو ينظر إلى حماه في يأس وحزن:

ـ سيدنا طار ومعدش راجع!

قال بيومي، الذي كانت الدموع الحزينة تتلألأ في عينيه، وهو يرمق الملط:

ـ احنا نعمل حفلة زار، ونقف كلنا عند مقام سيدنا، ونطلب من السما ترجعه لنا.. ثم صمت برهة، بدأت دموعه تنهمر، وأردف بلهجة غاضبة معاتبة:

ـ هو قاعد بيعمل ايه هناك؟! ولو الملايكة مرضيوش نحدفهم بالطوب!

لم يثر حديث بيومي أي رغبة لديهم بالضحك، فالموقف جلل، والملط فوق عربة الكارو، مستلقي الجسد، مربوط اليدين والقدمين والوسط، كأنه بهيمة نافقة، أخذها صاحبها مستعوضًا ربنا فيها، ليرميها بعيدًا عند المصرف الكبير..

رجع الرجل إلى البلد منذ يومين، وأغلق على نفسه باب داره، لا يختلف إلى الجامع، الذي أُغلقت أبوابه، ولم يعد أحد في الكفر يركعها، ولا في صلاة الجمعة نفسها، بعدما حصل من بيومي والعيال..

ففي يوم جمعة، وبعدما أزفت الساعة، وحان موعد صلاة الظهر، ولم يحضر إلى الجامع مصلٍ واحد، وكان بيومي ومن خلفه العيال، يلف البلد، وإذا به يدخل الجامع، ويرتقي المنبر، بينما الصغار قاعدون غارقون في الضحك، وصاح وهو يقلّد الشيخ محروس، بصوته القوي الجهوري:
ـ اللـهم العن النسوان في كل كتاب، اللـهم خذهم أخذ عزيز مقتدر!
والعيال يؤمنون خلفه:
ـ آمييييين!
وتطرق إلى العفاريت وسيرتهم، وسماسم زوجته التي كان لها نصيب الأسد من الدعاء فوق المنبر، وكذلك أولاده منها.. ولم ينتهِ من خطبته الشهيرة، قبل أن يأتِ بسيرة الشيخ، الذي ليس له في النسوان، فعضوه أصغر من عُرف الديك، لحظتئذ صمت قليلًا، وانطلقت قهقهات الأطفال، ثم واصل خطبته، وسأل بصوت خفيض قليلًا وهو يحني رأسه، ويرمق بطرف عينيه ذات اليمين وذات اليسار، كالسارق:
ـ تعرفوا مراته الغريبة؟
أجابوا بصوت واحد:
ـ إيوة!
قهقهه عاليًا، وقال بعدما أمرهم أن يكتموا سره في صدورهم:
ـ كل ليلة بتديني ربع جنيه بحاله!
سأله الولد ديسطي بصبر نافد، وفضول يشعل الحرائق في صدره:
ـ ليه يعني؟!
أجابه وقد بدا على ثغره ابتسامة ثقة، بينما اللعاب يسيل من فيه، والمخاط يتدلى فوق شفته:
ـ عاشقاني يا عيال!
لم يكمل حديثه، وساد الهرج والمرج في الجامع، وسأله بسيوني:
ـ احكيلنا بتعلموا ايه انتَ وهيا؟
أجاب العبيط، بينما مازال يعتلي المنبر:
ـ قلة أدب!
وخرج العيال من الجامع، وهم يهتفون لدى باب دار الشيخ محروس:
ـ عايزين ربع جنيه زي بيومي!
فألقى الرجل اليمين ثلاثًا على امرأته، وأحكم إغلاق باب داره على حاله، وهو يسبّ ويلعن كفر الدكر وأهلها، الذين لم يُضبطوا متلبسين يومًا وهم يقولون لعيالهم الأوغاد، الذين يطوفون خلفه في البلد ليزفّوه ويجرّسوه؛ عيب.
وغرقت البلد في بحار التيه، لا أحد يقدر على انتشالها مما هي فيه، وانتشرت الآراء والتحليلات. ذهب أحدهم إلى أن ما تمر به كفر الدكر من ابتلاءات ليس سوى غضب من اللـه، لقد انتشرت الرذيلة، فالكاتعة تمارس البغاء على عينك يا تاجر، ولا أكبرها شارب في البلد يستجرئ أن يقول لها عيب، أو يجأر بكلمة واحدة ترضي ربنا في حقها، بل هم راضون فرحون، يختلسون أوقات الليل المظلمة ليختلفوا إليها من وراء زوجاتهم، المستلقيات طريحات الفراش فاغرات أفواههن، يشخرن من الكد والتعب طوال النهار، سواء كان في الغيطان أو في الدور.. عمّ الفساد في أرجاء البلد، فلم يعد أحد في البلد طولها بعرضها يركعها.. لنحمد اللـه أنه لم يسخطنا قرودًا، تتقافز فوق

الأشجار لحدّ اليوم.. اتفق معه الكثيرون، وقالوا إن هذه البلد لم تعد مكانًا صالحًا للأطهار أمثال سيدنا أبو داوود، الذي طار مع الملائكة وتركنا نغرق في ظلام المعاصي.. لكن رجب أبدى اعتراضًا وامتعاضًا بدى على وجهه النحاسي، وصاح:
ـ يعني ربنا هيغضب من بلد غلبانة زي كفر الدكر، وهيسيب البندر اللي كله مسخرة!
ورجع بعد حفلة زار، واستجابة للكاتعة مؤسسة الطريقة الداوودية، التي قالت قبل مجيئه بنهار أنها رأته في المنام، يمتطي صهوة جواد أبيض، ويلبس جلبابًا أبيض، وشالًا أبيض، كان النور ينبثق من جسده المبارك، قال لها بعد أن نزل من فوق الحصان بصوت رقيق حنون، وعينان دامعتان:
ـ ايه اللي بيجرى لكفر الدكر من بعدي؟
تضيف الكاتعة، أن لسانها عجز عن الردّ عليه، واكتفت ببكاء استحال إلى نحيب، فمسح على شعرها باكيًا، حتى بللت دموعه الشريفة المباركة لحيته البيضاء التي تشع نورًا، وتساقطت فوق رأسها، وهمس:
ـ متخافيش على البلد، آني عمري ما هاسيبها أبدًا!
صرخت ومدت يدها ناحيته كالتي توشك على الغرق، بينما كان يهمّ بامتطاء جواده ثانية:
ـ رايح فين يا سيدنا؟ ماتسيبناش!
التفت إليها وقد أشرق وجهه بابتسامة نورانية، وقال:
ـ هستأذن من الملايكة وارجع!
فتهلّل وجهها وافتر ثغرها عن ابتسامة رضا، واستيقظت، وأخذت تدور في البلد، مثل بيومي العبيط، وهي تصيح بأعلى صوتها، حتى بحّ:
ـ سيدنا راجع يا كفر الدكر، الطاير راجع!
وضرب الناس كفًا بكف، ومصمصوا الشفاه، وحوقلوا، وقال العمدة موسى وهو يائس حزين أن المواشي وحدها هي التي ستحتفظ بعقلها في كفر الدكر!
كيف يرجع من طار إلى السماء؟ لقد مسّ الكاتعة ما مسّ بيومي والملط وحمارته.. هكذا اعتقدوا.
وتحققت المعجزة، وعاد إلى عشته، وعمت الأفراح أرجاء كفر الدكر، وذبح الناس الولائم للدروايش والمجاذيب، وساد التفاؤل والسكينة في البيوت، التي أوشك أغلبها على الخراب، فالنسوان حديثات الزواج لم يحبلن بعد، كأن عقمًا ضرب أرحامهن بعدما طار سيدنا..
وذهب إليه جناب العمدة ودسوقي الدكر، وبصحبتهما نفر من أهل البلد، بعد نزوله المقدّس بساعات قليلة، انتصبوا واقفين أمام العشة، بينما دلف الرجلان داخلها، وقدّما إليه التحية، وهما يحنيان جذعهيما عن آخره حتى قاربا الأرض، وساقيهما ترتعدان، وناظريهما مطرقان.. فقال أبو داوود بصوت مرعب، كأنه خارج من أغوار الزمن:
ـ الملط ماله يا عمدة؟!
ارتعش جسد العمدة النحيل، واصطكت أسنانه، وتأتأ:
ـ عقّله يا سيدنا!
ابتسم وظهرت أسنانه التي تختفي خلف طبقة من السواد، وقال:
ـ عملوها كفر أبو علي!
انتصب قوام الرجلان، وبدا على وجهيهما المفاجأة، وهتف دسوقي الدكر:
ـ مالهم كفر النسوان؟علموا ايه؟ يكونشي...

قاطعه سيدنا وهو يشير إليه بالصمت، واضعًا راحته فوق فمه، وقال بصوت مبحوح، وهو يحدّق في سقف العشة كمن يبحث عن شيء مفقود، ما أثار الخوف في نفس دسوقي والعمدة، الذي لعن في عقل باله الملط وسيرته والبلد كلها:

ـ بقى كده يا كفر أبو علي.. أغيب يومين تهبلوا البلد!

ثم صمت وأغمض عينيه، وأشار إلى الرجلين أن ينصرفا حالًا من أمامه، لقد حضر الأسياد لتوهم لزيارته، ولا يجب أن يكون في استقبالهم أحد من بني البشر.. فأخذ كل منهما ذيل جلبابه في أسنانه، وهمّا بالخروج، فانحشرا في الباب الضيق، وسقطا فوق بعضيهما، وزحفا بجسديهما إلى الخارج.

١١

اللعنة على كفر أبو علي، لم ينسوا ثأرهم القديم مع كفر الدكر، فصنعوا ذلك العمل البغيض، مع رمز من رموز البلد، شيخ خفرها، قائد أمنها واستقرارها، الملط الذي كان يُحسب له ألف حساب في العبّ كله، انتهى به المطاف عريانًا فوق الأشجار، يتقافز بين أغصانها، ما صنع من الكفر وأهله أضحوكة ومسخرة بين البلاد المجاورة، التي كانت تخشى أن يأتي إليها الملط ولو في منامها..

الحكاية أنه، لما زار شيخ الخفر كفر أبو علي، دبّر له أهلها مكيدة، وكان قائد هذه المؤامرة شيخ خفر هذا البلد، الذي استقبل الملط وأحسن الاستقبال والضيافة، وأولم له وليمة مخصوصة، وتشاركا معًا نرجيلة واحدة، فشربا الحشيش وغاب الملط عن الوجود، وصار يهذي بحديث غير معقول، فكان يردّد وهو يترنح مترنمًا:

ـ محلاها كفر النسوان..

انتفخت أوداج شيخ خفر تلك البلدة، وكذلك ثارت ثائرة أهلها من هذا الضيف عديم الذوق، وكانوا قد أعدّوا العدة، والتي «تدلّى» أحد خفرها إلى البندر من أجلها، وذهب نفر منهم عند الساقية الكبيرة، ورشوا الماء المسحور فوق الأرض، ومر من فوقها الرجل المسطول هو وحمارته..

لن يُبطل تلك الأفعال الشيطانية سوى سيدنا أبو داوود، الذي استشاط غضبًا وهو يروي لدسوقي تفاصيل تلك المؤامرة الدنيئة، التي لم يكن المقصود منها حماه وحسب، بل كفر الدكر بأسرها..

استغلّ هؤلاء طيران الرجل إلى السماء، وظنوا أن البلد لم تعد تحفّها الملائكة، التي غادرت هي الأخرى بصحبته، لكن اللـه لم يُرد أن يكسر بخاطر الكفر، ووقف بجانب أهلها وأعاده إلينا، ليذبّ عن هذا البلد المقدّس..

كان دافعهم إلى ذلك الحقد الأعمى والكراهية السوداء لكفر الدكر.. لا يعلم أحد تاريخ ذلك الصراع المرير، من العنف تارة والمكائد تارة أخرى بين البلدين، لكن من المؤكد أن هذه العداوة لها أوجه عديدة..

كل ما يعرفه أهل كفر الدكر أنهم وُلدوا وجذوة الصراع ما تزال مشتعلة مع الجيران.. حتى الذين تخطّوا عتبة الثمانين من العمر، يجهلون السبب خلف هذه الكراهية المفرطة، لكنهم يتذكّرون جيدًا، وهم يضحكون حتى تدمع أعينهم التي ضيّقها الزمن، كل الخناقات التي كانوا أبطالها، كأنه لم يمر عليها سوى ساعة واحدة..

أهل كفر أبوعلي في عيون بلدنا هم جماعة من الجبناء، لايقوون أبدًا على مجابهة جدعان كفر الدكر، حاقدون، لايعرفون كيف يواجهون الرجال الأشداء، فيدبّرون المكائد.. كل شيء في كفر النسوان قبيح، ماعدا نسوانها، فهن ذوات عيون واسعة مثل عيون البقر الهولندي، وأرداف متناسقة، وصدور مكتظة، تثير رغبات الدكاروة، الذين ينظرون إلى رجال ذلك البلد العدو باعتبارهم مثل أعواد قشّ الأرز، ليست منها فائدة، ولا يحسنون صنعًا مع نسوانهم، اللائي يراهن الجدعان كالفرسات الجامحات، تحتاج إلى فرسان حاذقين مثلهم.. ويتبادلون الحكايات والأساطير، التي تحطّ من شأن البلد الجار الغريم.

في سنة من السنين، لايستطيعون تحديدها على وجه الدقة، أصاب رجال كفر أبو علي عجز جنسي، وصاروا يمشون برفقة نسائهم، اللائي صبرن مليًا، مثل الخراف المخصية بجوار النعاج، ومازالوا على حالتهم المزرية..

الرجل منهم يغلق باب داره، ويعلف بهائمه، وينوّم عياله، ويذهب لينام بجوار امرأته، قبلها كان يعدها بليلة حميمية خالدة، فتنتظر المسكينة، وقد أعدت ما يمكن تجهيزه لتلك الليلة الموعودة، وكلها لحظات تُعدّ على أصابع اليد الواحدة، وتجد رجلها غارقًا في سابع نومة، فتندب الحظ والبخت المائل، ثم تكتم خبرها، لكي لا يُفتضح أمرها.. وتُصبّر نفسها، لعلّ اللـه قد يحدث بعد ذلك أمرًا جميلًا، ويستيقظ هذا الفلاح البليد من سباته العميق، ويعرف أن عليه التزامات لابدّ أن يقوم بها..

ليس ثمة شيء يلوح في الأفق.. الرجل يعِد بينما هو في الغيط، والمرأة تقيم الأفراح والليالي الملاح في قلبها انتظارًا لغشيان الليل، الذي ما إن يسدل ستائره، ويغلق باب داره وينوّم العيال ويعلف المواشي، وينام جوارها فاغرًا فاه عن آخره، كأنها آخر نومة!

الأيام استحالت شهورًا، والنسوان في كفر أبوعلي كاتمات حافظات أسرار أزواجهن، حتى فاض بهن الكيل، من هؤلاء الرجال الذين صاروا مثل عجول العلف، لا يبرعون سوى في تسمين أنفسهم فقط.. وخرجت إحداهن في الليل شبه عارية أمام دارها، ورقعت بالصوت الحياني بعدما استبدّ بها اليأس:

ـ الحقوني يا أهل البلد.. آني نايمة فريح أختي يا ناس!

وخرج الرجال والنساء من ديارهم، والتفّوا حول المرأة، وقال أحدهم بصوت خفيض وهو مطرق الرأس:

ـ اختشي يا بت عيب كده!

فصرخت زوجته في وجهه، وهي تضربه بيديها فوق صدره بعنف وغضب:

ـ تختشي ليه يعني، ياعيني عليا وعلى بختي الاسود!

وزعقت ثالثة، وهي تُحرك يديها وفمها ذات اليمين وذات اليسار، وتشير ناحية بعلها:

ـ ياحظي القطران ياني، لما انتَ مالكش في الجواز كنت بتتهبب ليه، كنت قعدت في دار أبويا أكرملي!

انهتك سر رجال كفر أبوعلي، ورقعت النسوان بالصوت، يندبن حظهن الغابر، وينعين رجولة أزواجهن، الذين صاروا يمشون مطرقي الرؤوس، ينظرون إلى أقدامهم الحافية وهم شاعرون بالخزي والعار والجُرسة، وسارت شائعة أن امرأة شيخ خفرهم، وكذلك امرأة العمدة، قد طلبتا الطلاق من زوجيهما.

ومضى زمن على هذا البلد، كان فيه الرجال كالخراف المخصية، واعتصمت فيه النساء بالصبر، فالمصيبة عامةلم تضرب زوج إحداهن بمفردها، كانوا يحيطون سرهم هذا بسياج من حديد، خشية أن يذاع في العبّ، وتشم كفر الدكر خبره.. ورغم كل التدابير الاحترازية التي اتخذوها، وصلت أخبارهم إلى كفر الدكر.. وكان يسكن هذا البلد رجل يقال له الدكر، قوي الشكيمة والبدن، واسع الصدر، عريض المنكبين، ممدود القوام، ذو وجه حسن، وشعر طويل ناعم، كان إذا عطس أدبرت كل المخلوقات من أمامه.. وإذا عاشر امرأة ماتت في ليلتها من شدة مضاجعته..

علم بماحصل لتلك البلد، فتدفقت السعادة في أوردته، وذهب متخفيًا في ثياب ليل الريف شديد السواد إلى هناك، ففرحت النسوان، وأصبحن يلتقين به في الغيط، كن يقفن أمامه متزاحمات كطابور الجمعية، تنشب بينهن المعارك والخناقات.. وكان يختار بينهن كأنه شهريار.. يتردد أنه ضاجعهن جميعًا في ليلة واحدة مرتين، بينما كان لامرأتي العمدة وشيخ خفره نصيب الأسد من المعاشرة..

عمت السعادة كفر أبوعلي، وعلت البسمات وجوه نسوانها، وصرن لايشتكين عجز رجالهن، ما أثار الشك والريبة في نفوسم، فتتبّع كل منهم امرأته مراقبًا، وشاهدوا بأم أعينهم الدكر وهو يعاشرهن، وهموا بضربه والانتقام منه، لكنهن صنعن من أجسادهن سدًا منيعًا صدّ أياديهم أن تصل إلى عشيقهن، وصوّتن وقلن معايرات لهم:

ـ مركوب الدكر بألف راجل منكم!

بالطبع تلك حكاية من حكاوي أهل كفر الدكر، يرددونها جيلًا بعد جيل، يسلّمون بحقيقتها التي لا يساورها شك، حسب وجهة نظرهم، وصارت سلاحًا فتّاكًا في ألسنتهم، حين يتبادلون مع هؤلاء الخصوم الشتائم، فأول مايتبادر لأذهانهم في قاموس المعايرة تلك الرواية، وأنهم جميعًا (أي أهل كفر أبوعلي) أبناء حرام لهذا الرجل الفحل، جدهم الذي يدعو للفخر.. فيتصاعد الدم في رؤوس أهل كفر أبوعلي، وتنتفخ عروقهم، وتحمرّ وجوههم غضبًا، وتنطق أعينهم شرًا مبرمًا، من ذكر تلك الحكاية التي يرونها وهمية، خيالية، تعيش فقط في رؤوس كفر الدكر، وليس لها على أرض الواقع أقدام ثابتة..

دائمًا يرددون أن أهل كفر الدكر لا يحسنون صنعًا في الحياة سوى نسج الخيال، فهم تجار كلام مهرة، يكوونه كما يكوي المكوجي في البندر الملابس، ويبادلون الهجوم بالهجوم، ويذكّرون بقصة الولد مصطفى ابن الدكاروة، الذي كان طولًا بعرض، يعرش على زريبة العمدة نفسها..

في يوم من الأيام كان راجعًا من السوق ممتطيًا حمارته العرجاء، كادت قدماه الحافيتان تلامسان الأرض، وفي طريق عودته مرّ على كفر أبوعلي، ولمح صبية، كانت محنية الظهر، تنقي الدود من أوراق القطن، فأوقف الحمارة تشرب من القناة، وتصنّع التشاغل بها.. وتفحّص جسدها، وأخذه جمال ردفيها، وخصرها النحيل، وخرجت من فيه آهة، وهتف متغزلًا، وهو بيرم شاربه، ويحرك حاجبيه:

ـ آه يا فرسة، محتاجة دكر!

سمعت البنية، والتفتت إليه باسمة، فهاله سحر عينيها السوداوين الواسعة، ووجهها الأبيض الرائق، وغمازتها الفاتنة، وقالت بدلع ودلال ضاحكة:

ـ عايز ايه يادي الجدع؟

قال مترنمًا:

ـ رايد الوصل والمحبة يا ست الحُسن والدلال!
أجابت وهي تشير ناحيته بيدها البيضاء الناعمة، وتضع الطرحة فوق وجهها من الخجل، فبدا في عينيها الضاحكة بريق ساحر:
ـ امشي يسترك ربنا من هنا، قبل ما أبويا يطب علينا، ويقطع خبرنا!
ـ مش ماشي إلا لما أحدته، طالب القرب والمحبة!
وظل مصطفى «بالقلادة» أمام الصبية، وجاء أبوها، وطلب يدها، وكانت الموافقة في الحال والأوان، وعاد إلى البلد محدّثًا أهلها، أنه لقى القمر المنير ينقي دود القطن في كفر أبوعلي..
وكانت ليلة الفرح المشئوم، جاءت العروس راكبة فوق الجمل، وخلفها حشود من قريتها، الذين توعدهم جدعان الكفر قليلو الذوق والواجب، وأنذروهم بأن العريس ابن بلدهم، سوف يُورّم عيونهم تلك الليلة، وأن العروس المسكينة ابنتهم باتت أيامها فوق الأرض معدودة، فلقد تزوجت دكرًا من ظهر دكر، لن تطيق مضاجعته.. ونشبت معركة بين شاب من كفر أبوعلي، اندلعت حرائق الغضب في صدره، وجدع من البلد، أخذت تتسع دائرتها، كما يصنع حجر حين يُلقى به في مياه الترعة الكبيرة.. وكان الضحايا كثرًا، من بينهم جدع من البلد، عاير رجال كفر أبوعلي بضعفهم الجنسي، ففقد في تلك الليلة رجولته وصار يعيش على أطلالها، بعدما ضربه شاب من تلك البلدة متخفيًا في ظلمة الليل بين فخذيه بقبضة يديه، ضربة غشيمة قوية.
وتمر الشهور، وتضع المعركة أوزارها، ويتناسى الناس ما جرى، بينما بطن العروس كما هي، لا أثر لحبل، فبدأ النسوان في الغيطان يتساءلن، والشكوك تساورهن، لكن المسكينة التي انطفأ نور وجهها، ظلت كاتمة في نفسها، وأتت أمها يومًا لزيارتها، وانفجرت كالبركان، وأدلت بكل أسرارها لها.. العروس مازالت كما جاءت من بيت أبيها، والعريس لا يجيد فنًا في الحياة غير فن الكلام، هكذا صرخت في وجهه، وهي تطلب منه الطلاق لابنتها، فهي لم تخرج من بيت أبيها لتأكل عنده وتشرب فقط!
جلبت لنا تلك الحكاية الجُرسة والعار، وصارت مضغة تلوكها ألسنة كفر أبوعلي، لا يتقابل جدع من بلدنا مع واحد منهم إلا وذكّرهم بالملعون مصطفى، الذي ضيّع سيرة أجداده العظام.

الفصل الثالث

١

تسكن الأساطير عقول أبناء كفر الدكر، ينسجون حولها الحكايات الخرافية التي لا يمكن لعاقل من خارج البلد تصديقها، تبدأ بأحداث بسيطة، وتنتهي لما هي عليه، بعدما تتلقّفها الأجيال، ويضعون عليها بصماتهم الإبداعية، التي تتواكب مع كل عصر يعيشون فيه، حتى تصير كائنًا خرافيًا عملاقًا، لا يمكن التصدي له،إلا وأرداك المؤمنون به قتيلًا، لأنك تجرأت وأنكرت ما هو معلوم بالضرورة..

تلك الحكايات الأسطورية التي نسجها أبناء كفر الدكر، مزّقها الولد مصطفى، وصار الناس في البلاد الجارة ينظرون لها بعين من الريبة والشك. منه للـه، أضاع هيبة الدكر الكبير، الذي كان مضرب الأمثال في العبّ كله، وكما في المثل الشعبي»حبيبك بيتلع لك الزلط، وعدوك يتمنى لك الغلط»، لم تجد كفر أبوعلي فرصة سانحة كتلك، فأخذت ألسنتهم تلوك سمعة البلد كالمضغة سنين عدة، إلى أن جاء اليوم الذي شاهد فيه الناس بأم أعينهم مولد أسطورة جديدة، فاستردّ الكفر سمعته وهيبته..

ذات يوم، اختلف الناس إلى دكان الكاتعة، ووجدوه مقفولًا، فسألوا عنها ابنها ديسطي، الذي كان مفطورًا من البكاء، ولم يحر جوابًا، وتمضي الأيام في البلد، والناس يبحثون عنها في الغيطان وفي المصارف وفي الترع، وأرسل جناب العمدة تليغرافًا ليبلغ المركز عن غيابها، لكن كل مجهودات البلد ذهبت سدى.. حتى سيدنا أبو داوود الطائر، حين ذهب إليه وفد من البلد ليساعدهم في العثور عليها، قال بصوت كفحيح الثعابين:

ـ الكاتعة راحت تخدم الأسياد.

ثم سكت وأطبق الصمت في المكان، وأشار إليهم أن انصرفوا، وغادروا وهم غارقون في بحر الأسئلة التي لم يجدوا لها جوابًا..

وتمر الشهور، ويشاهد النسوان في الغيط امرأة ترتدي جلبابًا أبيض وطرحة بيضاء، تحمل بين يديها رضيعًا، ملفوفًا في خرقة قماش بيضاء، كانت تمضي في سبيلها، دون التفاتة منها.. أخذن يتساءلن من هي، وقالت واحدة منهن بصوت خفيض وهي تضع فمها في أذن جارتها:

ـ تصدقي يابت الولية داهي شكل الكاتعة!

لكزتها جارتها وقالت بصوت عالٍ:

ـ كاتعة مين يامزغودة انتِ؟

وسارت المرأة في طريقها، وحوّدت ناحية الدكان، كان الولد ديسطي يلعب أمامه، حين شافها صاح بعلو صوته الطفولي الرفيع:

ـ أمي رجعت يا أهل البلد!

ضربته الكاتعة على صدره، وأطبقت يدها فوق فمه، وأدخلته عنوة داخل الدكان، وأغلقته، وتجمع الناس حول المكان، وخبطوا على الباب.. وخرجت إليهم بوجه شاحب، فتهللت أساريرهم، ودبت السعادة في أوصالهم، وهتفوا مرحبين بها:

ـ ألف حمدللـه على السلامة، نوّرت دارك ومطرحك!

بينما هم يتضاحكون بأصوات عالية، وهم يتذكّرون أمامها كيف كانوا يبحثون عنها بقلوب مرتعدة في المصارف والترع والغيطان، وكيف انخلع قلب رجب الكلاف، عندما انزلقت إحدى قدميه، حين حاول أن ينظر في عمق البئر الكبير المسكون، باحثًا عنها.. إذا بصراخ رضيع ينبثق من داخل الدكان، يخترق أصواتهم، احمرت وجنتاها، وساد صمت كان مشوبًا بالاستغراب والدهشة للحظات.. كسرته بعدما توجهت إلى الداخل، وعادت وبين يديها ذلك الرضيع.. ضربت الصدمة عقولهم، وألجمت ألسنتهم.. ثم زعق دسوقي الدكر غاضبًا، وهو يهم بالفتك بها وبرضيعها:

ـ جايبة واد من الحرام يا بنت الكلب!

لم يكمل صياحه، وسمع الناس سيدنا أبو داوود الطائر ينادي من بعيد، وهو يتوكأ على عصاه، بصوت خارج من أغوار الزمن السحيق:

ـ محدش يهوب من الطاهرة بنت الطاهرين!

تقهقر ابن الدكر إلى الخلف، وأفسح الناس المكان لسيدنا، حتى وصل عندها.. استغربوا وجوده بينهم وهو الذي لم يغادر عشته قط، إلا عندما طار إلى السماء، واستشعروا أن الأمر جلل.. وخاطب الموجودين، وهو يشير بيديه ناحية الرضيع والكاتعة:

ـ قطع لسان اللي يقول عليها كلمة.. الواد ديه ابن بيومي!

يا إلهي! خبطة في الرأس توجع، فما بالك بخبطتين مرة واحدة.. شعر الناس أنهم واقفون فوق رؤوسهم من هول المفاجآت التي تنهال عليهم كالمطارق، وأردف سيدنا:

ـ وابن سماسم الجنية!

اصيبوا جميعًا بالخرس، كأن على رؤوسهم الطير، وعاود الطائر حديثه:

ـ أنا بعت الكاتعة مشوار لحد مملكة الجن، لاجل تخدم ستها سماسم لما ولدت، وهي راجعة تاني، الواد دا شبط فيها، فاستأذنت ستنا وجابته معاها عشان تربيه وتخدمه..

فسأله حمودة الحمارة بعينين مفتوحتان عن آخرهما من الذهول:

ـ هايتحدت إزاي يا سيدنا، وهو لسه ماربعنش؟!

هزّ رأسه يمنة ويسرة، وهتف:

ـ الواد ده مبروك.. مدد يا اسيادنا.. مدد!

وردد القوم خلفه، وهم يهزّون جذوعهم ورؤوسهم مثله:

ـ مدد يا اسيادنا.. مدد!

وقاطعتهم الكاتعة وهي تؤمئ بالموافقة على كلامه، وقالت:

ـ بس دي بت مش واد يا سيدنا!

ـ واد ولا بت مش فارقة!

قالها وهو يهم بالانصراف..

ضربت الحيرة عقول أهل البلد، وأخذت قصة الجنية الرضيعة ابنة بيومي العبيط تنتشر كالنار في الهشيم في البلد، ووصلت إلى مسامع البيه الدكتور ابن جناب العمدة، الذي استنكر هذا القول، وهزأ من تلك الحكاية، وضرب كفًا بكف ضاحكًا، قائلًا بصوت عالٍ أن هذا البلد صار يمشي فوق دماغه، أسيرًا لخرافات يصدّقها، وناكرًا للحقيقة.. لقد ضرب الخبل عقول كفر الدكر..

اللـه يسامح الأفندي الدكتور الذي استهزأ بأوليائنا الصالحين، وحاول دق مسمار في نعش حقائقنا المطلقة، التي لا يمكن سوى لحاقد فقط أن يُعرض عنها.. مدد يا سيدنا الطائر.. العون ياستنا

الكاتعة.. شي للـه يا أهل اللـه!
كما يقول المثل الشعبي «يضع سره في أضعف خلقه»، أعاد إلينا بيومي العبيط الثقة في أساطيرنا، التي شكّك فيها الكارهون والحاقدون.. فالرضيعة ابنة ستنا الجنية سماسم، موجودة في دار الكاتعة، ومن يتشكك في الأمر ماعليه سوى زيارة الدكان، والتحقق بأم عينيه من أساطيرنا الخالدة.. فرجال كفر الدكر لايكتفون بمضاجعة النسوان، بل صاروا ينامون مع الجنيات أنفسهن.. لتخسأ كفر أبوعلي، وكل الحاقدين في كل مكان يسخر منا..
سبحان اللـه، له في ذلك حِكَم، لا يعلمها سواه وأولياؤه، الكاتعة التي ما تركت رجلًا في العبّ كله إلا ورفعت له ذيل جلبابها، تلبس اليوم أبيض في أبيض كالملائكة، ويختارها الأسياد الذين لا يقبلون سوى الصالحين لخدمتهم.. في بادئ الأمر أصيبت البلد بالدهشة والاستغراب، وربما الحقد عليها..
ذات قيلولة، كان رجب ودسوقي ونفر من الرجال، قاعدين تحت ظل شجرة التوت الخاصة بالعمدة.. كانوا يطرحون الحكايا للنقاش فيما بينهم، لتشغلهم ولو قليلًا عن شقاء اليوم، وتشحن نفوسهم ببعض البهجة.. إلى أن جاء الكلاف على ذكر الكاتعة، فأطبق الصمت على المكان، كانوا يتبادلون النظرات، دون أن ينبسوا ببنت شفة، فلا أحد منهم يستجرئ أن يبدأ بذلك الحديث، الذي لايؤمن عواقبه، فلربما نقل أحد الحاضرين كلامه إلى سيدنا، فتصير أيامه كلها أسود من ليل كفر الدكر.. قرأ ابن الدكر الرعب في أعينهم، وربط جأشه، وأعلن تمرده على الخوف، وقال بصوت خفيض وهو يضرب كفًا بكف، وعلى وجهه ترسم علامات الخوف أشكالها الظاهرة للعيان:
ـ عيشنا وشوفنا الكاتعة بتخدم الأوليا!
تشجع رجب وقال وقد افتر ثغره عن ابتسامة قلقة:
ـ الكاتعة؟! على رأي شيخ الخفر.. شكلها القيامة هتقوم قريب.. واحنا مش دريانين!
عاود ابن الدكر حديثه، وقد بدا أكثر اطمئنانًا بعدما ضحك الحاضرون على حديثه هو والكلاف:
ـ اللي نامت مع طوب الأرض!
طلب رجب منهم أن يقربوا رؤوسهم منه، وهمس بصوت لم يسمعه أكثرهم:
ـ البيه ابن العمدة بيقول إن البت دي بنت حرام!
احمر وجه دسوقي ومن معه غضبًا من ذلك الحديث، وصاح حمودة الحمارة:
ـ بتتكلم إزاي يا جدع انت، حرام ايه؟ يا سنة سوخة.. بنت حرام ليه؟!
وأدلى آخر بدلوه:
ـ دي كان يبقى آخر يوم في عمرها!
خفتت نيران الغضب في صدر ابن الدكر، وقال بصوت هادئ:
ـ ياجدعان بقى هنصدق البيه الدكتور ابن العمدة ونكدب سيدنا الطاير؟ جرى ايه ياناس؟! لأ وبنقول البركة انعدمت ليه في كفر الدكر، ماهو من عمايلنا السودا! نصدق الأفندية، ونكدب الأوليا.. يارب خدني حداك قبل ما انسخط قرد!
أبدوا موافقة على كلامه، رغم ذلك شرع كل منهم في سرد حكايته مع الكاتعة، وضحك وهو يروي عن خناقته معها، حين طالبته «بعرقها»، فقال لها وهو يضع يده في جيبه:
ـ ما حيلتيش اللضه!

ودست يدها غاضبة كالمجنونة في جلبابه لتزاحم يده، وخرجت خالية الوفاض، وقالت مهددة، وهي مازالت شبه عارية، وتشير بيدها ناحية فخذيها:
ـ جرى ايه يا دلعدي، انتَ هتضحك عليا، هتنصب على مرة حلّى اللباس زيي، طيب واللـه لا قايلة لفُتنة!
وانخلعت مفاصله من الرعب حين سمعها تأتي على ذكر زوجته، وقال مستسمحًا:
ـ عرقك هايجيلك الليلة الجاية!
لكنها رفضت وصرخت بصوت عالٍ، فهي ذات «وجه مكشوف» لا يهاب الفضيحة:
ـ دلوقتي يابن الدكر!
فعاد إلى داره، ودخلها على أطراف أنامله، وحاول القبض على رقبة أوزة، ليعطيها للكاتعة، لكن الأوزة زعقت، وتضامن معها باقي الأوز والبط، وعملوا فضيحة، فاستيقظت فُتنة، مفزوعة ومستغربة، غير مصدقة أن ثمة حرامي على وجه الأرض يستجرئ على اقتحام دار ابنة شيخ خفر كفر الدكر غريب الملط، وهرولت ناحية الزريبة، طفقت تمشي هي الأخرى على أطراف أصابعها، ممسكة بفأس في يدها، وداهمت اللص بضربة سقطت فوق أم رأسه، فخر مغشيًا عليه في الحال، ورقعت بالصوت الحياني:
ـ حرامي ياناس.. حرامي يادسوقي..
غريب أمر بلدنا، انتفخت أوداجهم، واحمرّت آذانهم غضبًا، حين اعتقدوا أن الكاتعة أنجبت طفلة من السفاح، وأشهر كل منهم سيف العيب والحرام في وجهها، حفاظًا على الشرف والنزاهة، رغم أنهم جميعًا، أقاموا معها علاقات آثمة، وربما كانت هذه الرضيعة ثمرة لتلك العلاقة!

٢

لما طار سيدنا، توهم أهل كفر أبوعلي أننا صرنا كالأطفال اليتامى ليس لنا من عائل، وأصبحنا لقمة سائغة، لكن اللـه خيب ظنونهم، وأعاده إلى الأرض ثانية، لينتشل البلد من بحار التيه الغارقة فيها.. لم يسترح إلا قليلًا، رغم رحلته المرهقة من السماء، وطلب على فوره من جناب العمدة أن يأمر الخفر وأهل البلد جميعًا، أن يتكاتفوا ويُنزلوا غريب الملط من فوق أغصان الأشجار، ويوثقوه من يديه وقدميه كالبهيمة، ويأتوا به إلى العشة المقدّسة..
نفخ بيومي العبيط في زمارته داعيًا الناس، وهتف العيال خلفه:
ـ تعالوا يا اهل البلد، عشان تنزلوا الملط من فوق السجرة!
ثم سكت قليلًا وأردف ضاحكًا، وهو يهرش في لحيته الكثة التي يكسوها التراب واللعاب السائل من فمه:
ـ مش بكفاية أهبل واحد فيك يا كفر الدكر!
ثم أشار بأصبعه على نفسه:
ـ البلد يدوبك تستحمل واحد.. وآني اللي اتهبلت الأول!
ضحك الناس على حديثه، بينما خلعت فُتنة امرأة دسوقي الدكر مركوبها وانهالت به فوق رأسه، وصاحت غاضبة وهي توزع النظرات الغاضبة على الضاحكين:
ـ بكره يرجعله عقله يا بلد، وترجعوا تناموا من المغرب يا غجر!

ربت دسوقي فوق كتفها، وهو يضع يده فوق فمه، حتى لا يفتضح أمره أمامها، وقال بصوت يجاهد ألا يظهر فيه الضحك:
ـ اختشي يا فُتنة، مايصحشي كده!
التفّ الناس حول الشجرة، ونادى جناب العمدة موسى وهو يشير بخرزانته إلى الملط، الذي كان يتقافز فوق الأغصان:
ـ انزل يا شيخ الغفي!
لم يستجب غريب للعمدة، ونادى عليه بيومي العبيط مهددًا:
ـ انزل بقولك بدل ما أبعت أجيب سماسم مراتي تيجي تقطع جتتك!
استمروا في التوسل والطلب إليه، لكنه أبى، وأخذ يقلّد أصوات الذئاب، واستبدّ بهم اليأس، وأشار العمدة لدسوقي:
ـ اطلع ياجدع نزل نسيبك!
هزّ منكبيه، وقال مهمهمًا:
ـ وآني هطلع لوحدي يا جناب العمدة؟!
وصاح رجب، وقد تفتق ذهنه عن شيء:
ـ مفيش قدامنا يا رجالة إلا إننا نقطع السجرة!
نهره العمده، وشخط فيه بصوته المسرسع:
ـ بتهبب ايه هنا؟ يعني بتصيمح هنا، وسايب البهايم من غيي علف!
رد دسوقي مقطبًا حاجبيه وهزّ كتفيه:
ـ بهايم ايه يا جناب العمدة دلوقتي؟ مش لما ننزل شيخ الغفر بتاعك من على السجرة؟!
أحس الرجل بالخجل، وهو يرمق بجانب عينيه أهل البلد، وشعر أن نظراتهم تكاد تأكل وجهه من الغضب، فتدارك موقفه، وأمر الخفر بقطع الشجرة، وقلبه يكاد ينزف دمًا من الحزن، ولما انقطعت، هوى الملط على الأرض، ككيس القطن المكبوس، ولم يحرّك ساكنًا، كان مغشيًا عليه، فانتهز الخفر الفرصة، وقيدوه من يديه وقدميه، والتف الناس حوله، ولفوا حبل حول وسطه، ورفعوه فوق عربة الكارو، وطافوا به شوارع البلد، حتى وصلوا عند العشة، وأنزلوه على الأرض مقيدًا، فكان كالجثة الهامدة، وخرج عليهم الطائر بوجهه العابس، وصاح بصوت يشبه فحيح الثعابين:
ـ مالكم ومال غريب ابن ستوتة؟ عايزين منه ايه؟
هز الناس أكتافهم، وعادوا برؤوسهم إلى الخلف، وقد ضربهم الاستغراب من سؤال سيدنا المفاجئ، وقال العمدة بأسنان مصطكة من الخوف:
ـ كل خيي يا سيدنا!
لم يعر الطائر انتباهًا لكلام العمدة، وأغلق عينيه، وقال بصوت يشبه الهمهمة:
ـ رجعوا لابن ستوتة مخه وإلا قسمًا عظمًا هنسل العصاية دي فوق جتتكم!
وأشار إلى خرزانة غليظة كانت في يده.
بدأ أهل البلد، الذين كانوا ملتفين حول الملط على هيئة حلقة، يتقهقرون إلى الخلف، فاتسعت الحلقة أكثر فأكثر، وقد ملأ قلوبهم الرعب من همهمات أبو داوود المرعبة حول جسد الملط، الذي لم يبدِ حراكًا حتى تلك اللحظة.. وأردف سيدنا شاخطًا بهيئة مرعبة وبصوت متشنج تملأه العصبية:

ـ اطلعوا من جتته أحسنلكم.. آني بقولكم أهو!
ثم سكت قليلًا، وأحكم الصمت المرعب على المكان، حيث اكتفى الناس بالنظر إليه في رعب بعيون مفتوحة عن آخرها.. ثم رفع خرزانته إلى أعلى وهوى بها فوق رأس الملط، وزعق:
ـ مش قولتلكم سيبوا ابن ستوتة في حاله وامشوا!
نطق الملط بصوت كالذي ما بين اليقظة والنوم، وصرخ:
ـ مش هسيبه!
سأله وهو يدنو من الجسد:
ـ انتِ مين؟
ـ أنا شمهورة.
ـ من جماعة مين من الجن؟
ـ شرشر.
ـ مسلمة ولا نصرانية ولا ملتك ايه؟
ـ مسلمة.
ـ عايزة ايه من الراجل؟
ثم انهال على جسد الملط بعصاه الغليظة، حتى شجّ رأسه وسال الدم من أنفه وفمه، وزعق ثانية:
ـ ردي.. عايزة ايه من ابن ستوتة؟
صرخ الصوت الخارج من فم الملط باكيًا:
ـ حرام عليك معدتش تضربني!
ـ هتردي ولا اقطع خبرك؟
ـ هرد.. آني عاشقة غريب!
خفتت حدة عصبية سيدنا، وقال بصوت لاهث مرهق، وهو يمسح بكم جلبابه الأبيض العرق المتفصد من فوق جبينه:
ـ لو عاشقاه اخرجي من جتته.
صرخت:
ـ مش قادرة على فراقه!
ـ لو مطلعتيش هولع فيكي!
بكت وقالت متوسلة:
ـ أبوس رجليك بحبه وريداه!
ـ اخرجي بقولك!
ثم تمتم بكلمات غريبة، وهو يغلق قبضتيه ويفتحهما، ويحركهما إلى الأمام وإلى الخلف، فطفق الجسد يتمرغ على الأرض، بينما الصوت يستجدي ويبكي، حتى أعلن الاستسلام، وخرج في سلام، بعدما انهال عليه الطائر بالضرب، بينما كان الملط جسدًا مسجيًا على الأرض، غارقًا في الدماء دون حركة ولا صوت.

على رأي المثل «الفقي لما بيسعد، بتجيله بدل من الجنازة اتنين»، ونسوان كفر الدكر، اللائي يختلفن إلى الغيط مع أول ضوء، ويرجعن إلي ديارهن حين يسدل الليل أستاره، وجدن ما يشبعن به فضولهن الإنساني النهم، الذي يدفعهن دائمًا إلى معرفة الجديد، والبحث والتنقيب عن أحداث أخرى، تستمد أهميتها من درجة سريتها، فتكون خناقة بين فلاحين اثنين على أولية ري أرضيهما في أدنى الدرجات، ويحتل الكشف عن علاقة غير شرعية بين رجل وامرأة أعلاها.. نسوان بلدنا اللائي لا تبتلّ في أفواههن فولة، يبحثن دائمًا عن غذاء لهذا الفضول الشرِه، الذي يساعدهن دومًا على التخلص من إرهاق العمل في الغيط، وساعاته الطوال..

والنسوان في البلد من حيث الأهمية درجات، فريق منهن يكتفي بالإنصات الجيد، وآخر- وهن المائزات اللاتي ينقبن عن الفضائح- يصير وجودهن في أي غيط مثار فرح وسرور لزميلاتهن الأخريات، الفريق الأول مثل جمهور المسرح، مستمع جيد، يتفاعل مع الأحداث حسب أهميتها، بينما الفريق الثاني،كأبطال العرض المسرحي، يتوقف إعجاب الجمهور بهن على درجة وسرية الفضيحة التي يتحدثن عنها.

أقسى ساعات العمل لديهن، تلك التي لايجدن فيها ما يشبع فضولهن.. ويضطررن إلى اجترار ذكريات من الماضي لعلها تفلح في تأدية الغرض.. لكن هيهات، فأحداث الزمن الغابر قُتلت بحثًا في الماضي، وصارت مثل الطبخ البائت، لاطعم له ولا مذاق، فليس لديهن جديد، بينما الأحداث الجديدة كالفيلم الحديث الذي يُشاهد لأول مرة..

الأحداث الجديدة تتوالى على القرية، فلم ينتهين من فضيحة الشيخ محروس وامرأته «المسلوعة السوهنّة»، التي خدعتهن بلسانها الحلو، وعينيها المطرقة دومًا إلى الأرض، ووجها الذي كان يحمرّ ويصفرّ إذا حدثتها إحداهن عن العلاقة بين الرجل والمرأة، كانت تجري بالمشوار خجلًا حين تسمع ذلك الحديث وهي تغمغم:

ـ أستغفر اللـه العظيم.. بلا مسخرة وقلة حيا!

وكانت النسوة يضحكن من حيائها المتطرف.. كن حين يرمي أزواجهن عليهن يمين الطلاق، يلجأن إليها، ويستشيرنها في أمور الدين..

قالت بخيتة ساخرة في الغيط، وهي تنقي الغلت من أرض العمدة مع الأنفار:

ـ بقى البت المسلوعة دي يطلع منها كل ديه يا سنة سوخة!

صاحت أخرى:

ـ ياما تحت السواهي دواهي!

وشاركت ثالثة في الحوار:

ـ اللي تحسبه موسى يطلع فرعون!

ثم سكتت للحظات، كانت تراقب الطريق يمينًا ويسارًا، وأردفت خافضة صوتها:

ـ تعالي يا مزغودة منك ليها النحيادي!

وأشارت لهن أن يدنين منها وهي تضحك في خبث:

ـ بيقولوا الولا العبيط ديه عليه طرف قد ايد الفاس!

تعالت ضحكاتهن وقد اصطنعن خجلًا مزيفًا، وسألتها امرأة الكلاف وهي تكتم ضحكاتها:

ـ ايه اللي عرفك يا مفضوحة؟

هزت المرأة رأسها نافية، وأجابت وقد امتزج الخجل والغضب في صوتها:

ـ وآني ايه اللي هايعرفني ياختي.. دي الناس كلها بتقول!
قالت إحداهن ساخرة:
ـ واحد متجوز عفريتة هيكون طرفه قد ايه يعني يا مواكيس!
ضحكت بخيتة مقهقهة:
ـ آه لو سماسم الجنية عرفت إن المسلوعة مرات شيخ الجامع نامت مع جوزها، هتبقى سنة اللي جابوها سودا!
ساد الصمت لحظات، كن يبحثن عن كلام يليق بدور الواعظات، ليختمن به حديثهن.. كعادتهن كل مرة، يبدأن حكاياتهن بما يجافي الأخلاق كأنهن شياطين مسلسلة، وينهينه كأنهن ملائكة بأجنحة بيضاء تطوف حول عشة سيدنا أبو داوود الطائر.. وكانت واحدة منهن تنصت لأحاديثهن باهتمام دون أن تشاركهن في الحوار، لا تريد أن ينتهي الحديث، فحطمت جدار الصمت، وسألت وعيناها يملأها الخبث والمكر، وبلهجة العارف بالإجابة:
ـ بس يابت انتِ وهي، بقى معقول واحدة زي مرات شيخ الجامع تعمل كده؟
ثم سكتت لحظة، كانت تراقب فيها عيون النسوان، وأردفت وهي ترفع حاجبيها وتومئ بيدها بإشارة رفض مصطنعة:
ـ دي حاجة ماتتصدقشي خالص!
أجابتها بخيتة:
ـ بيقولوا ياختي والعلم عند ربنا عشان مانظلمشي الوليه، انها نادت على المفضوح بيومي بالليل، وكان راجلها مدّلي البندر، ودخلته عندها، ونام معاها، وكانت بتديله أكل وفلوس كمان..
عاودت الأخرى الحديث وهي تهزّ كتفيها، مصطنعة عدم اكتراث مزيف:
ـ يلا يا اختي احنا مالنا.. ربنا يدي كل حي على قد نيته.
وردت بخيتة، وقد ارتدت لتوها عباءة التقوى:
ـ على رأيك يا اختي دعي الخلق للخالق.. ربنا يسترها علينا وعلى ولايانا.
ومات الحديث، وصارت عودته للحياة مرة أخرى أمرًا لا يجوز، فثمة أصول متعارف عليها، رغم أنها ليست مكتوبة ولا حتى منطوقة ولكنها محسوسة.. أنه حين ينتهي الكلام وقد لبسن ثياب الملائكة، فلا يجب أن ترتدي إحداهن رداء الشياطين، وإلا صببن عليها جام غضبهن، وأعلنّ براءتهن منها ومن حديثها، الذي كن يشاركنها إياه منذ لحظات.. فالنسوان في بلدنا كما الرجال، يخترن الوقت والمكان المناسبان الذي يصرن فيه شياطين وكذلك ملائكة.

٤

لمّ المسكين شيخ الجامع هدومه، وأخذ عزاله، وهجر البلد، مستترًا في جلباب ليل كفر الدكر المعتم، طفش من لسان الناس الطويل، وقلة أدب العيال، ووقاحة النسوان اللائي كن يسخرن منه حين كان حظه العاثر يقوده للمرور من أمامهن، هجّ الشيخ محروس إلى البندر، هناك في بلاد اللـه الواسعة، حيث لا أحد يعرف له طريق جرة، فلن يتعثر في الرائحة والغادية ببيومي العبيط والعيال الصغار خلفه يسخرون ويهزأون منه..
والعجل إذا سقط في بلدنا تكثر سكاكينه، وشيخ الجامع حين وقع، شهرت النسوان ألسنتهن، وخضن في سيرة الرجل، الذي كن يضمرن له في صدورهن مشاعر الكراهية والغضب، فكانت

خطبه فوق المنبر يوم الجمعة،كلها تهديد ووعيد بنيران جهنم، التي أعدت لهن.. كان لا يترك فرصة سانحة إلا وصب جام غضبه عليهن، متهمًا إياهن بأنهن شياطين تمشي على الأرض، وأن كيدهن غلب إبليس المسكين بجوارهم، كان يردد أن اللـه خلقهن ليبتلي بهن عباده الرجال..
هجر محروس، وأغلق الجامع أبوابه، ولم يعد يختلف إليه أحد من كفر الدكر، صارت البلد كلها لا تركعها، وانتشرت الشائعات أن اللـه سوف ينتقم من بلدنا أشد انتقام.. جزاء لما اقترفه أهلها في حق شيخ الجامع، ولكن بيومي العبيط كان يرد بلسانه الثقيل:
ـ وآني مالي؟! مراته هي اللي كانت بتخليني أنط عليها!
وقال دسوقي الدكر:
ـ حد كان قاله يتشاقى ويروح في أنصاص الليالي للكاتعة؟ بدل مالهوش في النسوان كان يتبط ويسكت، مش كل يوم جوازة، ويطلع في الآخر زي الخروف المخصي!
ولم تمضِ سوى أيام، وكان ميعاد حصاد القمح، وضربت البلد رياح عاتية، أكلت الأخضر واليابس، وأتت على المحصول كله، فلم يجني فلاح واحد ولو حبة قمح واحدة.. كان الرجال يبكون كالنسوان في الغيط على خراب بيوتهم المستعجل، وجوع أولادهم وبهائمهم، بينما النسوان يرقعن بالصوت الحياني ويصرخن ويلطمن خدودهن ويقطعن جلابيبهن، ويندبن حظهن، ويتبادلن الاتهامات.. ورجع العمدة من البندر، وضرب بكلتا يديه على رأسه وصاح وهو يهيل التراب على عباءته، بينما شيخ الخفر يهدئ من روعه:
ـ بيتي اتخيب ياناس، خيبتوا بيتي يا ولاد الكلب!
فغمغمت النسوان في سرهن:
ـ بيت ايه اللي اتخرب يا راجل يا بخيل انت، دا انتَ قاعد على كوم فلوس.. على رأي المثل مابتهونشي إلا على الغلابة!
ساد الخراب في البلد، واستدان الناس من جناب العمدة ليبقوا على قيد الحياة، كان يقرضهم الجنيه بعشرة أمثاله، وكان الفلاحون المغلوبين على أمرهم، يرضخون للأمر الواقع، بعيون منكسرة..
كانوا يتبادلون الاتهامات عن المسئول عن الخراب الذي حلّ بكفر الدكر، كل يلقي باللائمة على الآخرين، فهم جميعًا شاركوا في تطفيش الشيخ محروس، وأغلقوا الجامع من بعده، كيف تريدون من اللـه أن يرزقكم دون أن تعطوا له حقه؟
جمع شيخ الخفر الناس، بعدما عفى اللـه عنه، ورجع إليه عقله، وصار يلبس جلبابه كبقية الخلق..
كانت البلد بأسرها هناك في جرن العمدة، واقفون كعساكر جيش مهزوم، وجوههم مطرقة تنظر إلى أقدامهم الحافية، وعيونهم تملأها دموع الحزن والانكسار، لا يخاطب أحدهم جاره ولو بكلمة، ينتظرون الخلاص من الملط، أي خلاص، حتى لو أمر خفراءه، أن يطلقوا عليهم الرصاص، كانوا كمن يعيش ينتظر النهاية، أو كأم تتلهف لرؤية طفلها التائه، فلم يعد بمقدورهم مواصلة الحياة وخراب الأرض من أمامهم وديون جناب العمدة، التي سلسلت رقابهم، من خلفهم.. ليس أمامهم من مفر غير اللجوء إلى العالم الآخر، الذي ربما يكون أكثر رفقًا بهم وبحالهم. لكن كيف يكون أفضل، وقد جاروا على شيخ الجامع؟
وقف الملط تحت ظل شجرة التوت الرابضة على دماغ الجرن، وجمع ضفتي عباءته، وبرم شاربه، وتمخط وبصق أرضًا.. ثم صاح بصوته الذي يملأ الرعب في قلوب الموتى:
ـ عرفتوا يابلد ما جبتش راجل أخرة عمايلكوا السودا؟

لاذوا بالصمت، وهم على هيئتهم الأولى المستسلمة، ورد أحد خفرائه وقد استشعر الحرج من سكوتهم، وقال وهو يضرب على صدره بعينين تكاد تدمعان، ووجه مستعطف متوسل:
ـ عرفوا يا حضرة شيخ الغفر غلطتهم!
صاح الملط بصوت أعلى، وهو يرمق الوجوه المنكسرة الذليلة، ضاربًا كفًا بكف:
ـ خلاص القيامة هتقوم يا ناس!
تظاهر ابن الدكر بالسعال، ثم وجّه حديثه إلى حميه بصوت خفيض، وهو بجواره تحت ظل الشجرة:
ـ اللي اتكسر يتصلح ياحضرة شيخ الغفر!
التفت الملط ناحيته ورمقه بنظرة غاضبة، وقال وهو يضع إصبعه فوق فمه ويشير ناحيته:
ـ اقطم انتَ كمان، اهو انتَ روخر مش فالح غير في الكلام!
احمرّ وجهه خجلًا، ولاذ بالصمت لحظات، كان يراقب عيون الناس الشامتة فيه، وهمس لنفسه في سره:
ـ الحق عليا آني غلطان، كنت سيبتك تقزح على السجر زي القرود، بقى دي آخرتها يابن الرافضي!
ثم وجّه إليه حديثه بصوت متلعثم، مقترحًا وعيناه مطرقتان إلى الأرض، وقلبه يرتجف من الرعب:
ـ احنا ندوّر على الشيخ محروس ونستسمحه يرجع البلد تاني ويفتح الجامع.
ساد الصمت، كان يقطعه صوت المواشي الصادر من زريبة العمدة، وتبادل أهل البلد النظرات الموافقة على اقتراحه، وهتف صهره بوجه زارته ابتسامة نادرة:
ـ أول مرة في حياتك تقول حاجة عليها القيمة.
وطاف الناس في كل القرى المجاورة والبعيدة، سوى كفر أبوعلي، و«تدلّى» بعضهم إلى البنادر، حتى العاصمة التي لم يختلف إليها ولا نفر من بلدنا يومًا غير العمدة، سافر إليها شيخ الخفر، وزار مقام سيدنا الحسين طالبًا العون والسند، وكنس السيدة باحثًا عن الرجل، الذي كأنه فص ملح وذاب، ولم يعد له أثر في البلاد.. ابن خاله عباس أفندي الذي يعمل باش كاتب قد الدنيا في المحكمة، والمقيم في المنصورة؛ لايعلم عنه شيئًا، يبدو أنه هام على وجهه في بلاد اللـه البعيدة..
كان بيومي العبيط يطوف هو الآخر في البلد بزمارته، والعيال من خلفه، ويردد:
ـ محدش شاف الشيخ محروس يا ولاد الحلال؟
صرخت بخيتة امرأة رجب في وجهه:
ـ داتك وجيعة تاخدك، ماهو انتَ السبب، الراجل طفش من عمايلك السودا، قال أهبل قال، والنبي احنا اللي هبل!
توقف بيومي للحظات ورمقها بنظرات غاضبة، وقال بلسانه الثقيل مهددًا:
ـ طب واللـه لقايل لسماسم مراتي تعرفك شغلك يا حرمة الكلاف!
انخلعت مفاصلها من الرعب، وبدا الفزع والخوف في عينيها ووجهها الذي اصفرّ، وقالت بصوت أقل حدة، مستعطفة:
ـ دا آني بهزر معاك يا ولا!
ثم ضحكت ضحكة قلقة مبتسرة، وهي تضربه على صدره برفق، وقالت:

ـ طب والله ما عاد لساني مخاطب لسانك طول ما آني على ضهر الدنيا.. يالا بقى هيه!
ورجع شيخ الخفر والرجال الذي ظلوا يبحثون عن الشيخ محروس دون جدوى، واستحكمت حلقات اليأس، ولم يعد من سبيل أمامهم غير إعلان استسلامهم..
وتوالت المصائب على البلد، فلم تمضِ أيام ونفقت البهائم والطيور، بينما ظلت مواشي العمدة وشيخ الخفر بعيدة عن أيدي ذلك المرض المعدي الذي حصد أرواح مواشي الغلابة فقط.. كأن كفر الدكر بأسرها صارت سرادق عزاء كبير، الرجال يبكون والنسوان يصوّتن والعيال الصغار يصرخن على مواشيهم التي يشيعونها نافقة إلى مثواها الأخير على شطّ المصرف الكبير، كانت مواكب حزينة، يسير فيها الناس منخفضو الهامة، يكلم كل منهم نفسه في ذهول واستغراب، ماذا حصل ليجري كل هذا؟
وفي وسط عتمة الأيام في كفر الدكر، لم ينسَ القمر دوره هو الآخر، وشارك في هذه السيمفونية الحزينة، واحتجب عن الظهور، كأنه يُبدي تضامنًا مع الشيخ محروس..
وخرج النسوان والأطفال في شوارع البلد بعد المغرب، وأخذن يضربن أوانيهن ببعضها ويغنين كالمجانين، وهن يتوجهن بأعينهن إلى السماء يفتشن عن القمر في عتمتها:
ـ فاطمة بنت النبي، عملت رز بلبن، حلفت مادوقه، إلا إن فتح القمر.
ـ يا بنات يا حور الجنة ما تسيبوا القمر يتهنا.
ـ يا بنات الحور سيبوا القمر.. ده القمر معذور معندناش خبر.
وعدن إلى بيوتهن، ولم يستجب القمر إلى ندائهن، وأشارت الكاتعة لنفر منهم، كانوا يقفون أمام دكانها يسألونها سيجارة واحدة، وتسجلها في دفاترها إلى أن يأتي الفرج ويسددون ما عليهم:
ـ بالذمة سايبين سيدنا الطاير، ورايحين تدوّروا على غيره، آه يا بلد، ساكنها الحمير!
رد دسوقي الدكر:
ـ أهي ودي كانت تايهة عن بالنا فين، جدعة يابت!
وذهب إلى حميه راكضًا، وقال وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، بينما كانت امرأته حاضرة مع أبيها:
ـ البت الكاتعة بتقول نروح لسيدنا الطائر!
صرخت فُتنة في وجهه بصوتها الذي يشبه صوت أبيها:
ـ كنت بتهبب ايه يا راجل الغبرة عندها؟
برطم ابن الدكر وهو مطرق الرأس:
ـ أهي يا فُتنة هو دي وقت كلام ماسخ!
هزّت جسده، وقالت وهي تمسكه من ذراعه كالطفل الصغير:
ـ قول يا سيد الرجالة، يا بلوى من بلاوي الزمن اتحدفت عليا، كنت بتهبب ايه حداها؟ ياترى حرضتك تسرق ايه تاني؟
احمرّ وجهه خجلًا، وأطرق إلى الأرض، ونهر الملط ابنته قائلًا:
ـ خلاص يا بت انتِ، هو مفيش كبير هنا؟
التزمت بالصمت، وكذلك زوجها، وأردف الملط وهو يشير ناحية صهره:
ـ قوم معايا دلوقتي نوصل لحد سيدنا.
وذهب الرجلان إلى العشة، وبصحبتهم نفر من الخفر وأهل البلد، واستأذن غريب الملط من سيدنا في الدخول، لكنه لم يأذن لهم، وطلب منهم المكوث أمام العشة قليلًا، لينتهي من تخريج الجن

والعفاريت التي تسكن جسد امرأة سمعت عنه وجاءت إليه من آخر البلاد، باحثة عن الشفاء وإنجاب الأطفال، لتنقذ حياتها الزوجية التي باتت مهددة..

٥

قعدوا على الجسر أمام العشة في انتظار الإذن، كانوا يسمعونها وهي تصرخ وتتأوّه، فقال رجب بلهجة آسفة حزينة وهو يمصمص شفاهه:

ـ اللـه يكون في عونها.. يارب اشفي كل مريض.. غلبانة الولية دي!

وقال حمودة الحمارة بنفس الحزن والأسف، وهو يهزّ رأسه:

ـ شكل الجن اللي راكبها يهودي ابن كلب!

لكنه لم يكمل حديثه والتزم الصمت حين سمع ضحكات خليعة تشق آذانهم تخرج من العشة، فتبادلوا النظرات المستغربة والمتعجبة، وقطع دسوقي الدكر الصمت وهتف بلهجة مستبشرة، وبابتسامة عريضة على وجهه الذي لوّحته الشمس:

ـ اللـه أكبر.. اللـه حي.. الولية ربنا خد بيديها، كله ببركة الطاير.. عقبالنا لما ربنا ياخد بيدنا ببركة سيدنا..

وخرجت تمشي متبخترة، على وجهها تشرق ابتسامة، أشعلت النيران في قلوب أهل البلد، قوامها الممشوق يتمايل يمينا ويسارًا، فمالت معه العيون المفتوحة عن آخرها، تطاردها وتشيّعها بنظرات الإعجاب والذهول، كأن على رؤوسهم الطير، ساهمون ساكتون يتابعونها بأنفاس لاهثة، يبتلعون ريقهم بصعوبة، غاص كل منهم في بحر أحلامه، وزارته الخيالات أن تلك الملكة، التي تمشي على الأرض بخطوات وئيدة واثقة، تشير إليه بإصبعها الصغير، وبعينين ضاحكتين، فيذهب إليها طائرًا..

شيّعتها العيون حتى اختفت عن الأنظار، وفتح سيدنا الباب، ونادى على الملط، فانتصب الناس مفزوعين كأنهم استيقظوا لتوهم من سبات عميق، وتوجّه شيخ الخفر بصحبة صهره ابن الدكر، دلفا داخل العشة، وجلسا بين يدي الطائر، القاعد فوق أريكته الخشبية الوثيرة، وبينما الدخان يتطاير، قال بلهجة معاتبة وهو يسبّح بمسبحته ويفتح عينيه الواسعتين ويغلقهما:

ـ ابقى موجود في البلد، وتروحوا تدوّروا على حد غيري؟!

أجابه دسوقي متوسلًا ومستعطفًا بعينين تكادان تدمعان، وهو يضع يده فوق صدره:

ـ حقك علينا ياسيدنا، دا أنتَ تاج راسنا!

وقاطعه الملط موجهًا حديثه للطائر:

ـ عارفين إن وراك مشغوليات ياما.. بس لما غُلُب حمارنا، قولنا مفيش غيره، اللي يقدر يفك كربنا وزنقتنا، بكفاية إن العالم من آخر الدنيا بتيجي حداك، عشان تداويهم!

ضحك أبو داوود مقهقهًا، وهو ينظر إلى سقف عشته مزهوًا، ثم ردّ بصره إليهما وقال:

ـ المرة البندارية اللي انتم شوفتوها خارجة دلوقتي جاية من المنصورة مخصوص لي، طلع عيني، على ما ربنا خد بيدها وطلعنا العفاريت اللي كانت على جتتها.

أومأ دسوقي برأسه، وقال الملط:

ـ اللـه يكون في عونك، احنا كنا سامعينها بتصوّت وبتستجير، الظاهر العفاريت كانت كتير قوي!

عبث سيدنا بحبات المسبحة، وقال وهو يهزّ رأسه ببطء إلى أعلى وإلى أسفل:

ـ كتير ياما، إيشي مسلم، وإيشي نصراني، وإيشي يهودي، وإيشي كافر من غير ملة والعياذ باللـه، كلهم عاشقين المرة، وبيتخانقوا عليها، دي عايز ينام معاها، والتاني عايز ينام معاها، غير جوزها بقى اللي اللـه يكون في عونه.. الجن المسلم يقولهم دي على ملتي وأنا أحق بها.. والنصراني يقوله دي رايداني آني.. واليهودي يقولهم لا بتحبني آني، والكافر يقولهم دي عشقاني آني لواحدي.. وكل ساعة يدبّوا مع بعض خناقة، والغلبانة تجري عريانة في الشارع زي المهبولة.. راحت لمشايخ ياما ومفيش نتيجة، بس الحمد للـه، ربنا عاني وقدرني وطلعت الجن اللي عليها كلهم ماعدا المسلم، اللي وعدني أنه هيطلع الجلسة الجاية.

قال دسوقي بصوت مخنوق، وهو يبتلع ريقه بصعوبة من الخوف:

ـ يا حفيظ، دستور يا أسيادنا!

وتهلل وجه الملط وقال:

ـ بسيطة الجن المسلم أهو مننا وعلينا!

ثم سأل:

ـ ومين اللي عاملها العمل؟

أجاب الطائر:

ـ حرمة كانت منكادة منها، وعايزة تخطف جوزها.

هدأ دسوقي قليلًا وقال:

ـ آه منهم النسوان، الواحدة منهم لو قدرت مابتعفيش.. على رأي الشيخ محروس ربنا يرد غيبته، إن كيدهن عظيم!

أصاب الاضطراب والغضب وجه سيدنا، حين سمع ابن الدكر يأتي على ذكر سيرة الشيخ محروس، وأراد تغيير دفة الحوار:

ـ آه يا بلد! قصره، عايزين ايه دلوقتي؟

تبادل الرجلان النظرات، وأجاب الملط:

ـ البلد اتخربت، محصول الغلّة كله راح، والبهايم ماتت، والحريم سقطت واللي في بطونهم نزل!

ثم تنحنح وهمس بصوت خفيض، وهو يقرب رأسه ناحية سيدنا:

ـ حتى رجالة البلد، بقوا عاملين اللـه يعافينا زي الشيخ محروس، ونسوان الكفر زي ما انتَ عارف عينيهم يندب فيها رصاصة بدأوا يتكلموا.. واقعين في عرضك يا سيدنا!

هتف بصوت من أغوار الزمن السحيق:

ـ إن شاء اللـه خير، كله بأمر اللـه والأوليا، مداااااااد ياحسين مداااااااد يا ستنا الطاهرة، مداااااااد يا سيد يا بدوي!

ثم أمرهما بالصمت، وأخذ يرتّل نصوصه الغريبة، التي قذفت الرعب في قلبيهما، كان صوته ينخفض تارة، ويرتفع تارة أخرى، فيقفز الرجلان من فوق الأرض فزعًا.. ثم سكت عن الكلام، وأغلق عينيه للحظات، وقال بصوت أقرب إلى الهمس غير ذلك الذي كان يحدّثهما به من قبل:

ـ كفر الدكر معمولها سحر، اللي عامله واحد كان بينا وسابنا وراح لعدونا.

صاح الملط وهو يشير بيديه غاضبًا:

ـ مفيش غيره!

ابتسم سيدنا وهزّ رأسه، وصاح:

ـ خلي كفر أبو علي ينفعوه!
ضرب دسوقي على رأسه، وقد بدا على وجهه الصدمة والذهول، وصاح:
ـ يا سنة سوخة يا ولاد، الشيخ محروس يعمل كده؟ ايه اللي جرا في الدنيا يا عالم.. الشيخ محروس!
فقال الملط هازئًا:
ـ خايب بلاده، خايب بلاد الناس، واللي مالهوش خير في أهله، مالهوش خير في حد!
عاود دسوقي حديثه:
ـ شور علينا يا سيدنا، ساعدنا في مصيبتنا، نعمل ايه؟!
تنحنح أبو داوود الطائر، وقال وهو يهز رأسه أسفًا وحزنًا:
ـ العمل مدفون في أرض مزروعة في زمام العمدة، وانتم عارفين الراجل ديه بخيل قد إيه!
صاح الملط مبديًا شبه اعتراض:
ـ وهو يقدر يقول لأ.. آني دلوقتي داهوا همشي من حداك وهروحله.
ثم سكت هنيهة، وأردف:
ـ البلد كلها في ضيقة، وإن ماكنش عمدتها يقف فريحهم، مين تاني هيقف؟
وخرج الرجلان، مطرقي الرأس، على وجيههما علامات الانكسار والخسارة، بينما هتف المنتظرون في الخارج:
ـ مداااااد يا سيدنا الطاير.. مداااااااد!

٦

ركب مطيته، التي عاد إليها عقلها هي الأخرى بفضل سيدنا أبو داوود، ومن خلفه كان يركض الخفر حاملين بنادقهم الميري فوق مناكبهم، وتوجه ناحية الدوار واجمًا، ودلف استراحة العمدية دون استئذان، وقصّ على العمدة دون أن يلقي عليه السلام، ما قاله الطائر، وأخبره أن العمل مدفون في زراعته.. صاح الرجل متهتهًا، ونهض من فوق الأريكة مستربعًا:
ـ يا سنة سوخة!
سأله الملط:
ـ والعمل؟
هز منكبيه مبديًا عدم اكتراث، وقال:
ـ وآني مالي!
صرخ في وجهه:
ـ انتَ عمدة البلد!
هزّ كتفيه ثانية:
ـ في محاضي الحكومة بس، آني سايبلك كل حاجة فيها.. اتصيف انتَ بقى بعيد عن أيضي.. دا قوتي وقوت عيالي!
ـ الناس لو عرفت إن العمل في أرضك، هتقوم حريقة في البلد محدش هيقدر يطفيها!
ـ انتَ بتهددني ياملط، نسيت نفسك، كنت حياله خفيي حافي، وآني اللي خليتك شيخ الخفي!
صرخ في وجهه، فانكمش فوق الأريكة مرتعدًا:

ـ وآني شايل عنك كل حاجة، والفلاحين اللي بتشغلّهم عندك زي السخرة ومبياخدوش اللضى، آني اللي مش بخلي واحد فيهم يرفع عينه فيك، بقى دي أخرتها؟ أخرة خدمة الغز علقة؟!
أشار العمدة بيده مهدئًا شيخ خفره الثائر وعيناه تمتلئان رعبًا، وقال وهو يضيق عينيه ويكرمش وجهه:
ـ بس الزياعة هتبوظ يا أبو فُتنة!
خفت حدة غضب الملط:
ـ اللي هيبوظ.. الناس هتصلحه تاني.
أشار بيده، وقال مستسلمًا والألم والحزن يعتصرانه:
ـ اللي انتَ شايفه اعمله!
ثم دفن رأسه بين يديه، وراح يندب مثل النساء، وهو يضرب رأسه بكلتا يديه:
ـ يا خياب بيتك ياموسى، خياب ومستعجل ياعالم، الزياعة هتبوظ، منه العوض، وعليه العوض!
وانصرف راكبًا مطيته، والخفر من خلفه، تنادي على أهل البلد أن يحضر كل منهم فأسه، ومقطفه، وامرأته وعياله، ويتبعهم عند أرض العمدة الفوقانية، ليبحثوا عن العمل، هرول كل من سمع النداء مستجيبًا.. كان الرجال يحفرون في الأرض، والعيال تملأ المقاطف، والنسوان يحملنها فوق رؤوسهن بعيدًا، وظل العمل متواصلًا حتى دخل الليل، ولم يجد أهل كفر الدكر العمل، ولم يقصر شيخ الخفر في توبيخهم وتأنيبهم، متهمًا البلد ومن فيها أنهم جلابون للنحس والفقر.. كان القمر غائبًا، كأنه كان متواطئًا مع صاحب العمل، وفقد الناس الرؤية، فأمرهم أن يتركوا فؤوسهم، ومقاطفهم، ومطياتهم في نفس المكان، ويرجعوا إلى ديارهم، ومع أول ضوء لا يستأخرون دقيقة واحدة، وإلا بعث إليهم خفره، يجرونهم من فوق أسرتهم، مثل الكلاب..
وتواصل البحث، وامتد لأيام، كانوا يمنون أنفسهم بالعثور على ذلك العمل، من ثم ينتقمون من فاعله أشد الانتقام، فالخراب عمّ على البلد، والنسوان الحوامل اجهضن، ورجال كفر الدكر لم يعد يربطهم بماضيهم العريق غير ذكريات الدكر الكبير، الذي ترك سمعة ملأت العبّ كله..

٧

بحثوا في أرض العمدة كلها، ولم يجدوا شيئًا، واستبد بهم اليأس، فلقد خربت البيوت، وانتشرت المجاعة، وصار الناس لحمًا على عظم.. إنه ابتلاء من الرب، كما ابتلى قوم موسى من قبل بعدما انصرفوا عن عبادته، واتجهوا لعبادة العجل.. قالها أحد الأفندية، الذين جاؤوا في زيارة إلى ذويهم في البلد.. وقامت عليه البلد كلها ولم تقعد، يومئذ انتفخت عروق الملط، واحمر صدغيه، وصاح في وجهه غاضبًا:
ـ بقى انتَ جاي من آخر الدنيا تكفّرنا، يابن الرافضي!
وزعق دسوقي وهو يهم بالفتك بالزائر:
ـ هو انتَ عشان لبست قميص ومنطلون هتعمل نفسك نص الدنيا، وهتديلنا حكم ومواعظ؟!
وصاح رجب وهو يبعد ابن الدكر عن الأفندي:
ـ بقى دي آخرتها ياحضرة الأفندي، بتقول علينا بنعبد العجل؟!
وانصرف الأفندي عائدًا لتوه إلى البندر، بعدما حلف عليه شيخ الخفر يمينًا بالثلاثة، ألا يبات في كفر الدكر، بعدما أهان أهلها..

وذهب أهل البلد، ومعهم عيالهم، إلى دوار العمدة، وسألوه أن يفتح مخازن الغلال، ويمنحهم مايبقيهم على قيد الحياة، الأطفال لا تكفّ عن الصراخ والبكاء من الجوع، والمواشي ماتت، والأرض باتت صحراء جرداء.. هزّ الرجل منكبيه، وقال متصنعًا الحزن والمسكنة، مكرمشًا وجهه النحاسي، وهو يضرب راحتيه في بعضيهما، ويشير بيديه الخاوية:

ـ منين؟ أجبلكوا منين؟

هتف حمودة الحمارة، بينما طفله بجواره يصرخ من الجوع:

ـ من حداك ياراجل ياكافر!

اربدّ وجه جناب العمدة، وصاح مهددًا بصوته الأنثوي، مداريًا خوفًا عارمًا يجتاح أوصاله من الناس:

ـ آني بقيت كافي على آخية الزمن يابلد، اشهدوا ياناس الولا ابن الحيام، بيقول عليا كافي!

عاود حمودة مغمغمًا، مادًا عنقه إلى الأمام متحديًا، ومشيحًا بيده، ونحيب طفله يزداد:

ـ إيوه كافر ابن كفّار كمان!

وضع الخفر أياديهم فوق فمه، وزعق أحدهم:

ـ انكتم يابن الهرمة، كتمة تاخدك وتاخد اللي جابوك!

وقال آخر موجهًا حديثه للعمدة متملقًا:

ـ ماعاش ولا كان اللي يقول كلمة على جنابك، انتَ الخير والبركة، وكلنا عشم!

هزّ رأسه، وانصرف من أمامهم، تبعه شيخ خفره ورجاله، واستشاط الناس غيظًا وكمدًا، كانوا كالغارقين في بحور من التيه، لايعرفون ولا يلوون على شيء، وقفوا ساهمين، صامتين، مطرقي الروؤس كأنهم أسرى حرب، بينما الأطفال يصرخون وينتحبون من الجوع.. فجأة، جاء صوت من بعيد، اخترق آذانهم، فرفعوا رؤوسهم، ولووا أعناقهم مطاردين مصدره.. كان صاحبه يركب مطيته، ومن خلفه أتباعه، الذين تسابقوا في الوقوف أمام المطية والإمساك بحبلها.. وهتف أحد رجاله بصوت جهوري قوي:

ـ اسمعوا يا أهل كفر الدكر، ابنكم الحاج فوزي...

أصابهم الذهول والاستغراب، وهم يرمقون الغتت ينزل من فوق حماره، بجواره حراسه، وأردف المتحدث:

ـ الحاج مايخلصهوش البلد تموت من الجوع.

وأمسك الغتت طرف الحديث، وصاح وعلى وجهه القمحي ترتسم علامات الجدية والغضب، وأخذ يشير بذراعه يمينًا ويسارًا:

ـ مش كفر الدكر اللي تموت من الجوع، طول ما آني عايش على وش الدنيا، البلد دي لحم كتافنا من خيرها، ومش هنتخلى عنها أبدًا!

وركب مطيته وانصرف، وخلفه حاشيته يهتفون:

ـ عاش فوزي.. عاش ابن البلد الأصيل.

وعاد المساكين إلى ديارهم الخاوية، وقد ركبهم الهم والحزن، مثلهم مثل مطية هزيلة نحيلة عجزت، ركبها رجل معدوم الضمير والدين يزن كيس قطن مكبوس، لا يرأف بحالها ولا بسنوات خدمتها المديدة.. مستسلمون إلى مصيرهم المحتوم، فحتى سيدنا الطائر لم يفلح في إنقاذهم.. ويدخل الليل، وينتصف، ولم يمكنهم الجوع من النوم بعد، وينادي منادٍ من رجال الغتت، مبشرًا،

فخرجوا جميعًا من بيوتهم، بوجوه نحيلة مستبشرة، وعيون جاحظة من سوء التغذية، وأجساد هزيلة كالهياكل العظمية.. كان يصيح بصوت عالٍ قوي:
ـ يا أهل كفر الدكر، زي ماوعدكوا ابنكم الحاج، تعالوا كل واحد يستلم شوال الغلة بتاعه.
كانوا يتسابقون في الجري، ووقفوا في طوابير نظمها رجال الغتت، كانت أياديهم ممتدة متضرعة، وعيونهم باكية متوسلة، ونشبت المعارك بينهم، وكان الحاج فوزي الغتت يهتف وهو يمسك بمسبحته الكبيرة ويقف بعيدًا عن الطابور مراقبًا الناس، مرتديًا جلبابه الصوفي، الذي لا يقدر على ثمنه سوى جناب العمدة موسى وحضرة شيخ خفره:
ـ كل حي هياخد يا أهل البلد.
ثم يصيح شاخطًا في رجل من أتباعه، رمقه يعامل الخلق بشي من القسوة:
ـ بالراحة على الناس يا بجم انتَ!
ووزعت حاشيته أجولة القمح على أهل البلد، الذين عادوا إلى ديارهم، ضاحكين متفائلين، كمن نفخت فيهم الروح من جديد، واشتعلت نيران الأفران الطينية في ديار الكفر، ولم يكتفِ بذلك، فلقد أمر رجاله بذبح العجول وتوزيعها على الناس، فانتشرت رائحة اللحوم المطهية، ما أغرى العمدة نفسه أن يطلب حقه هو الآخر، فهو حسب رأيه واحد من أهل البلد، فسخر منه الناس، وقال أحدهم:
ـ أبو تسعة وتسعين نعجة بيبص للي حداه نعجة واحدة!
وقال آخر:
ـ اللـه يعمر داره.. الحاج فوزي الغتت!
لم تمر تلك الحادثة مرور الكرام على الملط، لقد نزلت عليه كالصاعقة، فالرجل لا يرى سوى نفسه فقط من يملك القرار والرجال في البلد، العمدة نفسه يعيش تحت إبطه، وإذا به يسمع، ثم يرى بأم عينيه الجاحظتين، فوزي الحرامي وقد صار يدعى في البلد بالحاج، وحاشيته من خلفه تهتف بحياته، وما زاد وغطى أن أهل البلد أنفسهم أصبحوا يهتفون باسمه ويدعون له، ماذا جرى في كفر الدكر؟ قال محدثًا نفسه في صمت وذهول:
ـ يكونشي الولا الغتت هو اللي عمل العمل للبلد، عشان ولاد الكلب الجرابيع يجروا يمشوا وراه زي البهايم ويدعوله؟ ولا القيامة خلاص قربت؟ آه يا بلد!
كبر فوزي، وصار حيلته رجال يسدون عين الشمس، وبدأت يد شيخ الخفر تفقد السيطرة على البلد، لكنه مازال يملك السلطة والنفوذ، فهو ممثل الحكومة وسطوتها في الكفر، هو القائم على إنفاذ القانون وتحقيق الأمن والأمان، بينما مازال الغتت مصدر تهديد للأمن والاستقرار، مازال لصًا تراقبه الحكومة وعيونها المتمثلة في الملط وخفره، مازالت يد غريب هي الطولى والأعلى..
لم يزر النوم عينيه أيامًا عدة، كان يفكر في أمره وأمر ذلك الحاج الذي ظهر على ساحة البلد فجأة، اللـه يرحم أيام زمان، زمان كان الغتت مجرد فلاح أجري بسيط، يحرث ويزرع ويقلع في أرض جناب العمدة، كان غريبًا عن البلد، يمشي فيها مطاطئ الرأس منكسرًا، لايقوى على فتح فمه، وكان الناس يشفقون عليه، ويفتحون له ديارهم ليأكل ويشرب، كان يلفّ في البلد شبه عارٍ، وسخر منه بعضهم وأطلق عليه لقب الجربوع.. صار «الجربوع» اليوم يرتدي جلاليب من الصوف والحرير لا يحلم بها أهل البلد..

٨

في ظهيرة يوم من الأيام.. كان قاعدًا على شط الترعة تحت ظل شجرة العمدة، وإذا بذكر بط شارد من صاحبته، يسبح في الترعة بخيلاء، راود الشيطان نفسه، وقاوم الفلاح الأجري الإغراءات وذكر البط السمين.. لكن الجوع الكافر يهصر معدته، ويفتك ببطنه، فاستسلم المسكين، وقفز في الترعة بجلبابه الرث المرقّع، وأمسك بذكر البط، وطلع في الحال وذهب إلى الكاتعة، فطهته، وتشارك الاثنان في أكله..

ولم تمر سوى سويعات قليلة ودلف الليل، ولم يرجع ذكر البط بعد، ذهبت صاحبته إلى الترعة ومعها جيرانها، وشرعن يبحثن عنه في الترعة وفي الغيط وفي أياديهن لمبات الكيروسين، لكن لا أثر للذكر المغدور.. وعادت المرأة إلى دارها، ورقعت بالصوت الحياني، واجتمع النسوان حولها يربتن على كتفها، وهي قاعدة فوق عتبة الدار ضاربة بيديها بقوة فوق رأسها، كن يواسينها ودموع الحزن المتأثرة تتلألأ في عيونهن:

ـ فداكِ يابت يا هبلة، وفدا العيال، ومايبقاش عقلك صغير كده!

وكانت تزيد الضرب والصوات، وهي تندب وتضرب بيديها ساقيها التي تعرت:

ـ المحروس جوزي قالي ادبحيه يا بت للعيال يرم بدنهم، وآني من خيبتي كنت بقوله لأ أبدًا..دا لو رجع من الغيط وعرف، هيقطع خبري من الدنيا!

ربتت إحداهن على كتفها باكية:

ـ يا بت متعمليش في نفسك كده، حرام عليكِ نفسك!

وعاد زوجها إلى الدار، ورأى النسوة حولها، فرقعها علقة، تكسرت فيها بعض ضلوعها، وانتفخ وجهها وتورمت عيناها..

ولم تمضِ سوى أيام، وكان زوج صاحبة ذكر البط ضيفًا باحثًا عن المتعة لدى الكاتعة، وفي لحظة صفا، كان فيها مزاجه عالٍ، أفشت له بالسر، فانتفض من مضجعه، ولبس جلبابه وهو يفتح الباب، وهرول مسرعًا ناحية دار شيخ الخفر، وخبط على الباب بكلتا يديه، ففزع من في دار الملط، وفتحت فُتنة الباب، وهي تردّد مرتعدة «اللـهم اجعله خير».. ودون أن يلقي عليها التحية والسلام، سأل:

ـ حضرة شيخ الغفر فين؟

أجابت غاضبة:

ـ مش هنا.. عايزه في ايه؟

ـ الغتت سرق دكر البط!

زعقت بصوتها الذي يشبه صوت أبيها، وهي تضربه بكلتا يديها على صدره، فكاد يسقط أرضًا:

ـ بقى بترزع على ببيبان الناس في أنصاص الليالي عشان دكر بط.. يامفضوح يابن الكلاب امشي غور من هنا!

ثم صمتت لحظات، همّ فيها بالانصراف محمرّ الوجه من الخجل.. وأردفت:

ـ بقى كده يا بلد.. عايزين تجعزوا عروسة في ليلة حنتها؟!

انصرف الرجل، وطفق يبرطم في سره غاضبًا:

ـ عروسة قال.. دا شكلك يسد نفس الكلاب الجربانة.. اللـه يكون في عونك يا بن الدكر!

ومع أول أضواء النهار ذهب إلى الملط، واشتكى من الغتت، فأحضره الخفر من الغيط في الحال مقيدًا بالحبال، وألقوا به تحت قدمي شيخ الخفر، الذي زعق فيه وهو يركله بنعليه، ويشده من شعره:

ـ بتسرق دكر البط ليه؟

أجاب باكيًا ومتوسلًا، رافعًا ذراعيه إلى أعلى، بينما هو قاعد مقرفص:

ـ محصلش ياشيخ الغفر!

صفعه على وجهه غاضبًا، وصاح:

ـ كمان قليل الربابة.. شيخ الغفر حاف كده يابن الحافيين!

أدرك الغتت خطأه، وقال مكرمشًا وجهه ومضيقًا عينيه:

ـ محصلشي ياحضرة شيخ الغفر.. إياك أعدم نضري ما حصل!

هدأ الملط قليلًا، ثم توجه إلى الرجل المسروق بالسؤال:

ـ عرفت منين يا وله إن المدعوق ديه هو اللي سرق الدكر؟

طأطا الرجل رأسه، ورمق زوجته بجواره بطرف عينيه متحرجًا، وقال متنحنحًا وهو يهزّ كتفيه:

ـ عرفت وخلاص يا حضرة شيخ الغفر.

زعق الملط فيه، فانخلعت مفاصله ومفاصل زوجته، وقفزا إلى أعلى من الرعب:

ـ رد عدل يا بن المراكيب!

أجابه وهو ينظر خائفًا إلى امرأته:

ـ الكاتعة!

ضحك وقهقهه معه خفراؤه.. بينما كرمشت الزوجة وجهها وجحظت عينيها من الغضب، وعاود الملط حديثه:

ـ وكنت بتبهبب ايه حدا الكاتعة؟

أجاب أحد خفرائه ساخرًا، وانفجر الباقون في الضحك:

ـ كان بيلعب حداها البخت!

فخلعت المرأة مركوبها، وانهالت عليه وهي ترقع بالصوت الحياني:

ـ كل ليلة أسألك كنت فين؟ تقولي.. كنت في الغيط، وانتَ داير على حل شعرك، يا أبو ديل نجس!

وحجّز الخفر عن الرجل، وحالوا دون أن تفتك به، وهم يضحكون، وأمرهما الملط بالانصراف، وتسوية خلافاتهما في الدار.. بينما حلوا الحبال التي كان مربوط فيها الغتت، وصاح فيه بعدما أوقفه:

ـ لو سمعت ولا عرفت إنك سرقت قشاية من البلد.. الدبان الأزرق مش هايعرفلك طريق جره.. مش بكفاية البلد متاوياك!

وانصرف الغتت إلى غيط العمدة حيث يعمل في الزراعة، وحيث يعيش، كان يمشي مطأطئ الرأس، وكان العيال الصغار يتبعونه إذا نزل البلد، ويهتفون خلفه:

ـ حرامي البط أهو.. حرامي البط أهو!

انكسرت نفسه، كان يجلس في الغيط وحيدا دون أنيس، وانقطعت زيارته القليلة إلى الكاتعة متخفيًا في جلباب الليل، فالكاتعة التي شاركته أكل ذكر البط، أعلنت هي الأخرى للرجال الذين يأتون إليها ليلًا أنها لن تنام مع حرامي، ولو انطبقت السماء على الأرض!

وكما يقولون صعوبة الأمر في أوله، فلقد لمعت فكرة السرقة في رأسه، وما عليه سوى أن يتدارك هفوات المرة الأولى، ولايجعل من البلد التي تأويه ميدانا لشغله..
واختلف إلى سوق الثلاثاء في البندر، وظهرت موهبته واضحة، فكان يمد يده في جلباب أحد سيئي الحظ، دون أن يشعر به، وينفّضه عن آخره.. وكان الرجل بعدها يتحسس جيبه، ولا يجد أثرًا للفلوس، فيلطم ويبكي ويصرخ:
ـ حق العجل راح يا ناس، يا ريتني كنت آني اللي روحت في داهية.. يا خراب بيتك يا بن مسعودة!
ويذهب إليه الغتت مواسيًا مع الناس، ويربت على كتفه بيد، بينما الثانية ممتدة في جلباب آخر..
وهكذا يعود إلى كفر الدكر، وقد امتلأ جيبه وبطنه، واشترى جلبابًا ومركوبًا جديدين..
وانتشرت الشائعات في البلد عن سر النعمة التي ظهرت فجأة عليه، وطفق كلٌ يدلي بدلوه، منهم من أكد أنه شاف بأم عينيه التي سوف تحصدها الديدان الولد فوزي الغتت، وهو قاعد عند البئر المسكون بجواره جنية، شعرها أطول منها، وعيناها واسعتان بيضاوان، وجسدها نصف إنسان ونصف حيوان، كان يداعبها مداعبة الرجل لامرأته، وكانت تضحك وتغنج. ارتعدت فرائص الجدعان الجالسين حول الراوي، وزعق أحدهم وكأنه يحاول أن يطرد تلك الفكرة المرعبة من رأسه:
ـ اسكت ياجدع انتَ.. عفريتة مين اللي هترضى بالاجرب ديه؟
وقال آخر، ويبدو أنه راقه ما قاله راوي الحكاية:
ـ الوله طول النهار والليل متلقح في الغيط، والشيطان ابن الرافضي شاطر.. زمانه عمل معاها حاجة!
وانصرف الجدعان من القعدة تحت ظل شجرة التوت، وهم يفكرون كيف سيمرون بجوار البئر، إذا صادفهم سوء حظ واضطروا للسفر ليلًا..
وتمضي الأيام وصاحبنا تزداد حوله الغمزات واللمزات، حتى حانت اللحظة التي انكشف فيها المستور..

٩

ففي ليلة من ليالي شهر طوبة شديد البرودة، راح الخفر في سابع نومة، وهم مشعلون حولهم راكية نار بغرض التدفئة، وهبط الغضبان ومعه رجاله على زريبة جناب العمدة، ونفّضوها عن آخرها، حتى العجول الصغيرة لم يتركوها، ثم أضرموا النيران في الزريبة، وفروا، ولمح رجل كان عائدًا من عند الكاتعة ألسنة النيران عالية في السماء، فصرخ وزعق:
ـ حريقة يا بلد.. حرييييقة.. حريقة في زريبة العمدة!
انتفض الناس من مضاجعهم، وهرولوا صوب الزريبة، وتبعتهم النسوان وهن يصوتن ومعهن أوانيهن، التي كن يملأنها بمياه الترعة، ويضعنها فوق رؤوسهن، ويذهبن إلى الزريبة ويرمينها فوق النيران ثم يُعدن الكرة غائدات من الترعة رائحات إلى الزريبة في نشاط وهمة، دون أن تتوقف حناجرهن عن الصوات والصراخ والدعاء للرب أن يأتي بالعواقب سليمة، والطلب من الأوليا أن يقفوا مع البلد في هذه المحنة التي حلت فوق رأسها.. وكان الرجال يبعدون أجولة القمح

والأرز المخزنة، كي لا تمتد إليها يد النيران المستعرة.. بينما كان العمدة واقفًا بسرواله الداخلي، يندب حظه ويضرب رأسه ويهيل التراب على نفسه، وهو يصيح:
ـ ياخياب بيتك يا موسى!
وانطفأت النيران مع طلوع النهار، وبدت الزريبة كأثر بعد عين، فألسنة اللـهب لم تترك شيئًا إلا والتهمته، وامتلأت نفوس البلد بالغضب والغيظ والحنق على ما حصل، كان أشدهم شعورًا بذلك شيخ الخفر، الذي أحس وكأن أحدهم صفعه على قفاه، على رؤوس الأشهاد، بينما نام العمدة في الفراش فاقدًا النطق والحركة أيامًا عدة، متأثرا بما جرى لزريبته..
يعلم الرجلان وغيرهم، أن تلك الفعلة النكراء لم تخرج من بين أيدي كفر أبوعلي الأوغاد، الذين يضمرون شرًا مبرمًا للكفر، ولاينسون ما جرى لهم بداية من الجد الدكر الكبير وإلى اليوم، كما أن أصابع الغضبان بارزة في هذه الواقعة، فمن المعروف عنه أنه لا يكتفي بالسرقة فقط بل يشعل النيران في المكان، متّبعًا سياسة الأرض المحروقة..
ساد شعور عام في البلد بالحزن والإهانة، بينما عمت الأفراح في البلد الغريم، فابنهم الغضبان صفع كفر الدكر كلها على قفاها.. الغضبان الذي لم ينسَ أهل بلده من سرقاته، وأمر رجاله بذبح الذبائح وتوزيعها عليهم.. وكانت الأخبار تصل إلى مسامع العمدة، فأصابته بجلطة على الفور.. وإمعانًا في الذل والإهانة والسخرية؛ أمر أتباعه أن يرموا ماتبقى من جلود المواشي ليلًا أمام دوار العمدة ودار الملط.. فاندلعت حرائق الغضب في نفوس البلد، وأخذ كل حي فأسه، وهموا متوجهين إلى كفر أبوعلي، ليهشموا رؤوس أهلها، ويجعلوا عاليها سافلها، لكن رجلًا كان يسكن في الغيط، لم يتدخل يوما في صراع، ولايعرف عنه الغيرة على البلد، فهو ليس ابنًا من أبنائها؛ أشار عليهم، بينما هم مجتمعون حول الملط، وقال بصوت هادئ واثق:
ـ لازم نبقى حويطين ياحضرة شيخ الغفر.
أشاح الملط بيده غاضبًا، وشخط فيه:
ـ غور.. داهية تاخدك.. معدش إلا حرامي البط يتكلم!
عاود حديثه، وقال وهو يدنو من شيخ الخفر مبتلعًا الإهانة على مضض:
ـ احنا نعمل اللي عملوه فينا.. ونرد الصاع صاعين.
برقت الفكرة في خاطر الملط، والتمعت عيناه من الإعجاب، لكن سرعان ما ارتدّ وجهه عابسًا، وقال:
ـ هم حداهم حرامي مجبتوش ولادة.. إنما احنا...
ولم يكمل حديثه، وقاطعه الغتت مبتسمًا في ثقة:
ـ سيبها على اللـه وعليا.
قهقهه الملط هازئًا، وهو يرمقه بازدراء من أعلى رأسه إلى أسفل قدمه:
ـ انتَ؟!
قال متحديًا وهو ينفخ صدره:
ـ إيوه آني!
ضحك الفلاحون والخفر، فأردف متحديًا وهو يشير بيده:
ـ والليلة كمان..

ولما انتصف ليل كفر الدكر، انتفض أهل البلد من مضاجعهم، على صوت الغتت، ينادي بصوت كعويل الذئاب:
ـ حقكوا رجعلكوا يا أهل البلد. حقك رجع يا كفر الدكر!
لم يصدق الناس أنفسهم إلا حين رأوا بأم أعينهم مواشي عمدة كفر أبوعلي مربوطة أمام دوار العمدة، جحظت أعينهم من الإعجاب بهذا الغريب الصعلوك، الذي استطاع أن يعيد للبلد كرامتها المهدرة على يد الغضبان ومن معه.. من لحظتئذ تستطيع كفر الدكر أن ترفع رأسها لتلامس السحاب كما كانت.. إذا كان عندهم غضبان، فلدينا ألف غضبان وغضبان، عندنا الغتت، تستحق يده أن تتلف في حرير، فالرجل بمقدوره أن يسرق الكحل من العيون المفنجلة، انقضّ على زريبة عمدة الخصوم، وأخرج البهائم، بينما الخفر جالسون، يحتسون الشاي ويشربون الجوزة ويقهقون بصوت عالٍ، وهم يتذكّرون ما فعله ابن بلدهم في كفر الدكر وأهلها، ويقلدون عمدة بلدنا وهو يضرب على رأسه وينده مثل النسوان.. أتى الغتت على آخر الزريبة ولم يترك فيها روحًا واحدة.. وعاد إلى البلد، يجر خلفه المواشي، بصحبة رجاله الذين لا يعلم عنهم أحد شيئًا..
شهق العمدة حين رأى المواشي أمام زريبته، وقال مبديًا إعجابًا بالغتت:
ـ تقولشي الواد ديه.. معجون بمية عفاييت!
أطرق خجلًا من الإطراء.. وذهب إلى حال سبيله، مشيعًا بنظرات الحب والإعجاب والامتنان من أهل البلد، الذين كانوا يحدّثونه قبل ذلك من أطراف أنوفهم..
واندلعت منذ ذلك التاريخ خناقة جانبية بين الغتت والغضبان،، تنضم لمثيلاتها من الخناقات بين البلدين، التي تأخذ صورًا وأشكالًا متعددة.. صار التحفز والتحسب بين الفريقين قائمًا، فرجال الغتت، وكذلك غريمه، صار لهم أدوارًا أخرى غير السرقة، ومهمات خاصة، منها السهر على حفظ أمن حدود البلد، والدفاع عنها حال حدوث أي اختراق أمني من جانب العدو، وكذلك نفر يدسون أنوفهم في شئون الآخر، ليجمعوا المعلومات عنه، وهؤلاء البشر ذوو قلوب قوية لا ترتعد ولا تهتز أبدًا، أصحاب مهام انتحارية، فلو اشتمّت أنفا الغريمين وجود جاسوس بين حاشيتيهما، لاسودّت أيام ذلك الخائن، ونال جُرسة وفضيحة لم ينلها حرامي وسط مولد سيدي أبو داوود الطائر..
ديك النهار، استيقظ الناس على رجل من أتباع الغضبان، يركب حمارًا أعرج بالمخلوف، حيث صار وجهه ناحية مؤخرة المطية، ويرتدي جلبابًا نسائيًا بالمقلوب، رثًا فيه من الرتق أكثر مما فيه من القماش، وخلفه بيومي العبيط بزمارته والعيال يزفونه:
ـ من دا بقرش وبقرشين!
لم ينسَ الحاج الغتت يومًا فضل كفر الدكر عليه، هكذا كان يتحدث دائمًا وسط الناس، فهؤلاء الطيبون استقبلوه غريبًا، وأحسنوا ضيافته، وتزوج منهم، وصار واحدًا منهم، دكرًا من ضهر دكر مثلهم، كان يمازحهم وهو وسط رجاله يطوف في البلد، ويقول:
ـ بلدك منين ياجحا؟ قال البلد اللي فيها مراتي!
وصار الناس ينظرون إليه بمزيد من التبجيل والاحترام، يكفيه شرفًا أنه لم يسرق يومًا ولا قشة من البلد، من بعد حادثة ذكر البط المشهورة، فالرجل أعلنها صريحة وسط الأشهاد، أن يده لو امتدت إلى ممتلكات أحد من كفر الدكر، لاستحقت بترها..

لما اشتدّ القحط، واستبدّ اليأس، واستحكمت حلقاته، حتى ضاقت على أهل البلد، لا سيدنا الطائر نافع، ولا الجامع الذي أعادوا فتحه ثانية شافع، ولم يعد أمامهم من سبيل إلا الاستسلام.. شق الأمل طريقه إليهم، وبعث اللـه الحاج الغتت، الذي جاء نجدة من السماء، وأعلن أنه لن يتخلى عنهم، وما هي سوى ساعة زمن، وجاء الفرج، فوق المطيات أطنانًا، وزعتها حاشية الحاج على الناس بالعدل وبالقسط، وسط دعوات منهم للرجل أن يعمر اللـه بيته، ويسعده، ويخليه للبلد وأهلها.. ونظرات من الغيظ والحقد والغيرة والغضب من الملط، الذي طفقت يده تفقد السيطرة على مقاليد الكفر وأهله..

غاب الغتت عن البلد ساعة، وذهب إلى كفر أبوعلي ومن خلفه رجاله بمطياتهم القوية المتينة، وانقضوا على مخازن عمدتها كالأسود الجائعة، ولم يترك فيها حبة واحدة، وعادوا بها إلى البلد، فعمت الأفراح والليالي الملاح..

وتبادل الناس التهاني والتبريكات، لن ينسوا له معروفه أبدًا، فالرجل ينوي الترشح في البرلمان.. والبلد بأسرها.. رجالها ونسوانها وعيالها، وحتى الأجنة في بطون أمهاتهم؛ سيقفون خلفه. وكما أن مياه النهر لاتعود إلى الوراء، كذلك الحاج وسيرته لن ترجع إلى الماضي أبدًا، فنحن أبناء اليوم وغدًا، أعداء الأمس.. إذا كان سيئًا، صنعنا معه قطيعة أبدية لن تعود مهما كان السبب، وتحت أي ظرف من الظروف..

ولكن ثمة ما يكدر أي فرحة تعمّ كفر الدكر، كذرات من التراب في كأس من الماء، فقد قال أحد أتباعه، الذين كانوا معه في مهمته الوطنية في كفر أبوعلي، أنه سمع بأذنيه الكبيرتين التي تلتقطان دبة النملة، خفيرين من كفر أبوعلي، وهما يتبادلان الأحاديث، التي كان يبدو أن للحشيش أثر كبير فيها.. قال الخفير بلسان ثقيل:

ـ آني شوفت الشيخ محروس الدكاراوي، حدا العمدة.

رد الثاني، وهو يقاوم انغلاق عينيه:

ـ بتخرف وبتقول ايه يا وله؟.. لما انتَ مالكش في الحشيش بتشربه ليه؟

ـ يا بجم بقولك آني شوفته بعينيا دول.

سمع الناس كلام رجل الحاج الغتت، وألقوه خلف آذانهم، فالشيخ محروس رجل قلبه أبيض مثل الحليب، لا يمكنه أن يصنع شرًا بأهل بلده، وينضم لخصومها.. لكن العيار الذي لايصيب يدوش.. وليس ثمة نيران من غير دخان، وما هي إلا سويعات قليلة وتأكد الخبر، الذي حلّ على كفر الدكر كالصاعقة، فلقد شاف واحد من بصاصي الغتت الذين يعملون لصالحه في كفر أبوعلي بأم عينيه، الخائن يمشي خفية ليلًا بجوار جدار دار العمدة، واضعًا شالًا فوق رأسه ووجهه، وارتاب البصاص في أمره، وتبعه، ورمقه يدخل دوار عمدة كفر أبوعلي، مزيحًا الشال عن وجهه، بعدما اطمأن أن لا أحد يطارده..

لما تأكدت الأنباء، ضرب الملط كفًا بكف، وهتف:

ـ عليه العوض ومنه العوض.. بقى دي أخرتها يامحروس؟ كان حداه حق سيدنا، قالها من زمان هو اللي عمل للبلد العمل.. هي القيامة هتقوم امتى يا ولاد؟ شكلها هتقوم قريب.. الشيخ اللي بيقول قال اللـه وقال الرسول.. يعمل في أهله كده!

ولم يفوّت بيومي العبيط الفرصة، وأخذ ينفخ في زمارته والعيال خلفه يهتفون:
ـ محروس المخصي عملنا عمل!

الفصل الرابع

١

باءت محاولات دسوقي الدكر في انتشال ابن أخيه من غياهب الرسوب المتكرر كل عام بفشل وخسران مبين، فبسيوني يجتاز السنة الدراسية في ثلاث سنوات، وكان الرجل يذهب إلى المدرسة ويمسك في خناق الناظر المتآمر.. الولد أقسم مرات ومرات بشرف جده الدكر الكبير، أنه كان يجيب عن الامتحان كله، ولا يترك مكانًا في ورقة الإجابة شاغرًا دون كتابة، وثمة عيال معه أدنى منه ذكاء، وأقل منه نبوغًا وتفوقًا، وينجحون بينما يرسب هو بفعل فاعل..

لم يقنط العم، الذي لن ينسى يومًا حديث العرافة لنبوية، وما زال يناديه في الرائحة والغادية «بالضاكتور بسيوني»، رغم التحاقه بشق الأنفس بالمدرسة الثانوية الزراعية!

وكان ذلك مثار «تهزيء» و«نأورة» من فُتنة، التي كانت ترى الولد مثل عمه لا يفرقهما عن الحمير شيء غير الذيل، وكان تزيد من سخريتها، واضعة يديها الغليظتين في خصرها، وهي تتفرج عليهما وهما يكنسان الزريبة، وتوجه حديثها لبسيوني، بينما دسوقي محني الظهر، مطرق النظر، يكتم غيظه وحنقه، مغمغمًا بحديث لم يسمعه غيره:

ـ هتجيب الذكاوة منين يا دلعدي؟!

لا ترى في «الضاكتور بسيوني» ـ هكذا كانت تناديه ساخرة ـ سوى فلاحًا يرعى مواشي عمه، وزوجًا مستقبليًا لواحدة من بناتها الست، اللاتي يشبهن أمهن الخالق الناطق.. لا يجب أن يختلف إلى المدارس، فإنما وجدت تلك المدارس لذوي العقول النيرة، لا لأصحاب العقول المظلمة.

كانت تسخر منه زاعقة، وهي تخبط يديها السمينتين في بعضيهما بقوة وعنف، أنه منذ جاء إلى البلد وأتى الخراب في ذيله زاحفًا، فهو كالغربان، نذير شؤم، مثل نبوية أمه خرّابة البيوت، التي هربت مع عشيقها إلى البندر، بعدما ضحكت على عقول رجال البلد المخبولين، وصنعت ما صنعت مع شعبان الدكر.. ثم تسكت قليلًا، وهي ترمق الولد بسيوني، الذي كان يجلس مقرفصًا في ركن بعيد في غرفة المعاش، يتابعها وبناتها وعمه وهم ملتفون حول الطبلية، يلتهمون الطعام بشراهة كأنه آخر أكلة، كان يزدرد ريقه، ممنيًا النفس بأن يتركوا له ولو عظام ذكر البط، لكنهم كانوا يأتون على آخره، فيخيب أمله، وينتظر انتهاءهم ليتناول ما تبقى من فتات..

كان موشّحًا يوميًا، كل يوم ساعة الغداء لا تمل من إلقائه على مسامعه، بينما كان العم يبتلع لسانه في حلقه، لا ينطق بحرف أمامها خوفًا وفزعًا، لكنه كان ينتظر حتى يسرح الغيظ برفقة ابن أخيه ليطيّب خاطره..

من المعروف عنها أنها صاحبة لسان طويل زالف، لا يكترث بمحظور، ولا يعبأ بقوانين العيب السائدة في الريف، ما يخطر على رأسها يطلقه لسانها دون تردد، مستندة على حائط أبيها المتين وسلطته في البلد، فلا أحد في كفر الدكر يقدر أن يرفع عينيه في ابنة الملط..

لكن مالم تقله لبسيوني، رغم أنها كادت تُصرّح به مرات عدّة وأمسكت لسانها ـ وتلك من المرات النادرة التي كانت تُمرر فيها الكلام على عقلها قبل أن تلفظه ـ أنها أسرّت لزوجها بعد وفاة أخيه شعبان بأيام قليلة، بينما هما في الفراش يبحثان عن المتعة النادرة بينهما، ففُتنة لم ينقصها سوى شارب، لتصير في تمام الرجولة.. قالت هامسة إنها رأت بأم عينيها، نبوية تضع دم الحيض في

كوب شاي، شربه زوجها المسكين دون أن يعرف، كي تتخلص منه ليخلو لها الجو، وتعيش حياة العربدة مع عشيقها، أعوذ باللـه من هذا الصنف النمرود من النسوان.
وسمع دسوقي حديثها، وأعطى لها ظهره، وراح في سابع نومة، فزغدته في جانبه زاعقة وقد انفجرت من الغيظ والغضب، وهي تضرب راحتيها في بعضيهما وتندب حظها وبختها المائل، الذي أوقعها في زوج لايحسن في الحياة سوى الأكل والشرب وتسمين نفسه، حتى صار مثل عجول العلف.. وطفق يبرطم وهو مغلق العينين ما بين اليقظة والنوم، في شبه اعتراض وشبه استجداء، طالبًا منها كرامة للنبي والأولياء الصالحين، أن تتركه في حال سبيله، ليخلد للنوم قليلًا، ففي انتظاره عمل شاق في الغيط.. وكانت تواصل صراخها وزعيقها نادبة حظها، فلقد أوقعها الرب في زوج ثور اللـه في برسيمه..
لم يكن حديث فُتنة في تلك الليلة ذا أهمية لدى دسوقي، فالرجل يعرف امرأته جيدًا، ويعلم أن لديها قلبًا أسود، أكله البغض والحقد والحسد من نبوية، التي سحرت عقول وقلوب جدعان البلد، وما زاد وغطى أنها أنجبت ولدًا، ليكون آخر ذكور عائلة الدكر، بينما هي أنجبت ست بنات، جئن جميعًا فوق رؤوس بعضهن..
كان الولد بسيوني يجني كراهيتها لأمه، وتسقط على رأسه إهاناتها، كما تهوي البيوت فوق رؤوس ساكنيها، وكان يهرب من حديثها، ويذهب إلى دكان الكاتعة، ليلعب مع الولد ديسطي والبنت زنوبة الجنية، ويقضي معهما الساعات على شط الترعة.. كان ديسطي يسرق السجائر المكنة من وراء أمه، ويصطحب بسيوني وزنوبة، ويذهبون عند القرافة، ويدخنون السجائر وقت القيلولة.

٢

جاء إلى الدنيا يوم خروج أبيه منها.. ويوم عاد إلى البلد صبيًا، زحف خلفه الخراب إليها كظله.. فكانت زوجة عمه تتهمه دائمًا بأن «الخضرا في ايده ناشفة»، وهي تصيح فيه وفي عمه الذي كان يقف أمامها كالعسكري المذنب أمام قائده، وتردد:
البلد كلها تبحث عن سبب الخراب في البلاد المجاورة، وتحوم الاتهامات الباطلة حول الناس، وهم لايدرون أن السبب يسكن معنا في دار واحدة..
لذا كان مثارًا للسخرية من الجميع في القرية، وأطلقوا عليه اسم «وش الفقر» كما كان يناديه زوج أمه، وكان يردّ دائمًا على سخريتهم وهم في الغيط يحرثون ويعزقون ويروون الأرض، مازحًا:
ـ أبويا اللـه يرحمه كان أبو المفهومية.. قالك آني خلاص عملت اللي عليا.. وخلفت واحد من عظماء الكون!
كانوا يلقون بفئوسهم وشقارفهم ومقاطفهم جانبًا، ويستلقون على بطونهم على الأرض من أثر الضحك، ويرد الولد ديسطي ساخرًا، وهو يشير ناحية الفلاحين:
ـ آه صحيح ياجدعان، صدقوا وش الفقر.. ده أبوه يا عيني لما شافه وهو في ايدين الولية الداية مات علطول!
فيبرطم ويزمجر ويزعق في محدّثه:
ـ ليه؟ لهو زي أبوك الصايع، اللي طفش من أمك، ودابر على حل شعره في البلاد؟
فيربدّ وجه الولد ديسطي ابن الكاتعة، ويزعق وهو يهم متوجهًا ناحية بسيوني الدكر ليشق رأسه بفأسه، بعدما استشاط غضبًا من ردّه الذي جلب له السخرية والتهكم، ويعترض الفلاحون طريق

وصوله لوش الفقر، ويبرطم بعضهم بصوت زاغٍ وسط صياح المتعاركين وتخليص المخلصين:
ـ لا تعايرني ولا عايرك، الهم طايلني وطايلك.. ماهو الحال من بعضه، وش الفقر أبوه مات من هنا، وأمه ما صدقت وخلعت ع البندر واتجوزت راجل تاني، وابن الكاتعة أبوه هج وخلع بجلده وقال ابقوا عدولي.
بسيوني هكذا أسماه عمه، ودوّن في سجلات الحكومة، التي كانت شاهدة على إضافة ذكرًا جديدًا لينضم لعائلة الدكر الكبيرة في القرية، «أكبر عيلة فـ البلد»، هكذا كانوا يفتخرون في الماضي، وكان خصومهم من العائلات الأخرى المتنافسة في التباهي والعظمة يرددون «العدد في الليمون»، وينشب صراع وعراك لرب السما مع غيرهم دفاعًا عن اسم العائلة المجيدة، يكون ضحيته سيئي الحظ من رجال الدكاروة الذين تزوجوا من عائلات الخصوم، ويجبرون على رمي اليمين على نسوانهم.. يمين يردّ ثانية.. حين تعقد الجلسة العرفية، وتحكم لصالحهم، ويكون الحكم عادة تغريم سليط اللسان الذي استفزّ تباهيهم بأنفسهم؛ بجاموسة أو بقرة أو حتى عنزة.. عقابًا له لأنه كان الشرارة الأولى التي اندلعت بسببها العركة..
لكن ماذا لو كان صاحب الشرارة من هؤلاء الذين ليس حيلتهم اللضى، الذين يكملون عشاءهم برسيمًا من الغيطان كما البهائم؟ ذات مرة،كان دسوقي في صدر شبابه يعزق وسط الأنفار أرض شيخ الخفر.. وأبرز صدره، ورفع فأسه عاليًا، وهوى به أرضًا، وصاح متباهيًا:
ـ يا دكر يابن الدكر!
على الرغم من تأخره عن رفقائه، الذين سبقوه فكانوا على مشارف ذيل الأرض، بينما هو لم يغادر رأسها بعد.
فالتفت إليه حمودة الحمارة، وقد توقف عن العمل، واتكأ على فأسه وصاح ساخرًا:
ـ ما تبطل يا جدع النفخة الكدابة بتاعكوا دي!
انفجر غضبًا وزعق ليسمعه الأنفار:
ـ ما بقاش إلا انتَ يا حمارة، تتحدت عن أسيادك!
أشاح حمودة بيده، وقد اتخذ وجهه هيئة المتقزز، وصاح:
ـ يا أخي روح في داهية وانتَ نصك كلام على الفاضي!
ثم صمت قليلًا وأردف ضاحكًا:
ـ روح اتدارى بعيد عن عزرائيل.. مابقاش إلا انتَ والمحروس اخوك من الدكاروة!
فرفع دسوقي فأسه عاليًا، وركض ناحية الحمارة ليشج رأسه نصفين، لولا الأنفار الذين تركوا العزيق، وحالوا دون وصوله لخصمه، وكذلك حضور الملط الذي أطلق شخرة اضطربت منها أسماعهم، ثم شخط فيهم، وهو يطوّح الهواء بذراعيه:
ـ سايبين اللي وراكوا وواقفين تتخانقوا.. من حقكوا يا ولاد الرافضي، ما انتوا بتاكلوا من قتاية محلولة!
فانكفأ كل منهم على خطه، وتركوا ابن الدكر وخصمه بين يدي الرجل، يركل هذا بقدمه، ويلسع ذاك على قفاه، وأخبرهم بانعقاد جلسة عرفية لترى من المذنب..
وجاء رجل غريب قاضيًا، ضمانًا للعدالة ونزاهة الهيئة الموقرة في القعدة العرفية، وأعلن وسط الجلسة حكمه على الحمارة بالعمل أجيرًا دون مقابل في أراضي آل الدكر، طالما لايملك الصدا..
فاستلقى الناس على أقفيتهم من الضحك.. فاستشاط غضبًا وارتدى عباءته وأحكم تلفيعته حول

رأسه، وهمّ بالانصراف راكبًا مطيته، لولا الملط الذي طيّب خاطره، وتنحى به جانبًا ورساه على الدور، وقال بصوت يحاول كتمان الضحك بصعوبة:
ـ الدكاروة مالمهش سنتي واحد ملك فـ البلد، ماحيلتهمش إلا البراغيت المرشقة في دكك لباسهم..
أفلح شيخ الخفر يومها في نزع فتيل أزمة كادت تتحول إلى صراع مرير مع قرية البراهمة، فلا يعقل أن يستدعوا أحد أعيانها للتحكيم فيما شجر بينهم، ثم يتمسخرون عليه بهذه الطريقة، نجح في تجنيب البلد خناقة مالها إلا النبي، فهؤلاء البراهمة لايقدر عليهم إلا القدرة نفسها..

٣

آه يازمن، مالك تأتي على عائلة الدكر العريقة، صاحبة التاريخ المجيد، لو كان مؤسسها حيًا ماحصل لأحفاده من بعده ما يجرى لهم اليوم، وما خلصه أن يكونوا مسخرة بين العائلات، التي استوطنت الكفر الذي يحمل اسمه، ويعيشون على أمجاده وسمعته التي ملأت الدنيا، ومازالت تقذف الرعب في قلوب الخصوم..
جاء الدكر الكبير إلى هذا المكان واستوطنه من أقصى البلاد، كان ذا مال وحسب ونسب، يقال والعلم عند اللـه، فليس هنالك تاريخ موثق أكيد، أنه كان سليلًا لأحد أمراء الأندلس، الذين فروا من الاضطهاد المسيحي، واشترى تلك الأراضي الشاسعة، واستخدم العبيد الذين اصطحبهم معه في رحلته في الزراعة، كانت الأراضي صحراء جرداء، وبفضل هؤلاء صارت خضراء تسرّ الناظرين..
تلك أسطورة كغيرها من الأساطير التي نُسجت حول الرجل، لا يمكن الحكم عليها، سواء بالتصديق أو بالنفي، غير أن أحفاده كانوا لا يبرحون حديثًا دون أن يدسوا فيه سيرة جدهم الأكبر، ويتطرف بعضهم في تفاخره، ويلقبه بالأمير، وسط سخرية باقي العائلات، التي لا ترى في هذه الأحاديث إلا هراء، فهؤلاء لايجيدون صنع شيء سوى تجارة الكلام، فيبادلهم الدكاروة الإهانة بأخرى أشد، مرددين أن تلك العائلات كانت في غابر الزمان عبيدًا لدى جدهم الأمير الدكر، ما يصيبهم بالضحك الهستيري، ساخرين من الدكاروة، واصفين إياهم أنهم مثل «عريان الطيز ويحب التأميز»..
آه يازمن، لولا تواطئك على الدكر الكبير، ما شرع أحدهم عينه في عين واحد من أحفاده، لكنه الزمن والنسوان وحدهم من أطاحوا به وبعائلته أرضًا، حتى تجرأ عليهم رعاع الناس..
يردّد آل الدكر أن جدهم الكبير كان صاحب مزاج عالٍ، باع نصيبه في الأندلس، وصرفه على نسوان أوروبا الحسناوات، حتى لم يبقَ لديه سوى القليل، فهبط على هذه الأرض، واشتراها من مالكيها، وعاد إلى سيرته، ومثلما أضاع ملكه في الأندلس باع أرضه في البلد، وصرف على النسوان والصرمحة والخمر والحشيش، الذي لم يكن واحد في بر مصر كله يعرف ماهيته.. طيّر الرجل أمواله، كما تطير أدخنة الحشيش، منه للـه، أضاع الأندلس، وباع الأرض لكل من هبّ ودب، وصار العبيد، عراة الثياب، حفاة الأقدام، سود الوجوه؛ أصحاب أملاك، وأصبح أولاد الأصول أبناء الأمير الدكر، لايملكون حتى الفتات..
يردّدون كذلك وفي شيء من السرية والكتمان، أن يعقوب الجد الأكبر لجناب العمدة موسى عمدة البلد، كان من بين العبيد الذين اصطحبهم الأمير في رحلة فراره من الأندلس إلى الكفر، وأن هذا اليعقوب ينحدر من أصول يهودية خالصة، وكتم عن الناس أمر دينه، وكان يعمل باشكاتب عند

الدكر المؤسس، يدوّن الوارد والصادر، وكان يُظهر للرجل، كعادة أجداده، بخلاف ما يُبطن، وسعى في الوقيعة بين الناس وبعضهم.. فكان الدكر يستيقظ من نومه بعد الظهر ليقضي بين الناس، الذين تركوا الأرض، وتشاغلوا بالمشاجرات التي كان يُشعل فتيلها، ذلك الرجل ذو الوجه الأبيض، الأمرد، نحيل الوجه والبدن، الذي كان يختلس الأموال من وراء ظهر سيده، المنشغل بالنسوان الحسناوات في كفر أبوعلي، كان يعقوب «يرصّ» الفلوس فوق بعضها حتى صارت تلالًا.. ويحيك المكائد، ويحرّض عملاءه على إشعال الحرائق في الأراضي قبل الحصاد، فزحف الخراب المستعجل على الدكر، وصار لا يملك في داره كسرة خبز، فمدّ يده إلى حفيد الموسويين، الذي كان يعطيه الجنيه بعشرة أمثاله.. ولما لم يعد قادرًا على السداد، بدأ يبيع له الأرض قطعة على أثر قطعة، وصارت أغلبها في حيازة يعقوب، بينما صاحبنا غارق في أحضان النسوان، غائب خلف سحب دخان الحشيش.. منه للـه أضاع الأرض على عائلة الدكر، كما أضاع الأندلس على المسلمين..

تلك الأسطورة يحفظها أبناء الدكر عن ظهر قلب، يردّدونها جيلًا بعد جيل، بيد أنها حكايات خرافية لا يمكن لمنطق أو لعقل أن يصدقها.. لكنهم استحسنوا الحكي في الماضي الذي تنسجه خيالاتهم الخصيبة، عوضًا عن صنع حاضر يفتخرون به، شأنهم شأن الكسالى في الكفر، الذين يواصلون الليل بالنهار نيامًا، مجترين الماضي ومفتخرين بتاريخ أغلبه كان من نسج الأوهام..

لكن ما أصاب تلك العائلة العريقة لم يصب قومًا من قبلهم أو بعدهم، فهؤلاء الرجال الذي يفتخرون دومًا أنهم أحفاد الدكر الكبير صانع مجد الكفر، صاروا لا ينجبون سوى البنات، وكأن أرحام نسوانهم باتت ترفض أن يستقر في أعماقها ذكور، أو أن أحد أبناء الحرام صنع عملًا وسحر لرجال العائلة، لئلا ينجبوا الأولاد، وينقرض نسلهم، ولا يعيش من ماضيهم غير ذكريات يحكيها الناس، ساخرين من الدكر وعائلته، حقدًا وبغضًا لهم، لكن لايجب أن نغوص في بحر الظنون لكي لا تُغرقنا، ونجني صراعات خاطئة، في أوقات أكثر خطأً، فمن يمتلك زمام الحقيقة ليلقي التهمة على أهل البلد؟ أليس لقصة الدكر الكبير، يوم أن ضاجع امرأة من كفر أبوعلي، شيء من الصواب، وكانت تلك اللعينة قد دبرت مكيدة له.. فبعد أن غشيها، أحضرت له شرابًا، وشرب الغرير، دون أن يعرف أنها قد صنعت له سحرًا يجعله ونسله لاينجبون سوى الإناث، لتنتقم لابنتها التي ضاجعها من قبل وماتت في الفور من شدة المعاشرة، ولتأخذ بالثأر لبلدتها.. ولم تنجح المؤامرة تمامًا في ذلك، فلقد أفلت بعض الذكور من هذا العمل، وكان آخرهم بسيوني..

٤

كان يوم ولادة آخر دكر يومًا مشهودًا، يومها عجّت الدار بالعائلة التي كان غالبيتها الكسيحة من النسوان، الذين ملأن المكان زغاريد، فرحة وابتهاجًا بالولد، الذي من أجله زاروا الأولياء وناشدوا الأضرحة حتى لا تنقرض عائلة الدكر، وتصير نسيًا منسيًا، الآمال باتت معقودة عليه، ليعيد مجد جده الكبير، وليصنع لنفسه حاضرًا، يزهو به الأبناء والأحفاد، يوم مولده هتفت النسوة، بحناجر عالية وبقلوب تكاد تقفز من الصدور فرحًا وسعادة:

ـ الدكر ما متش، احنا ولاد الدكر، اللـه أكبر، احنا ولاد الأمير ابن الأمير!

كانوا قد استيأسوا من أن يرزقهم اللـه ذكرًا من قبله، كانوا يمشون مطرقي الرؤوس، يبكون تاريخًا عريقًا، ومجدًا سامقًا شيده الجد المؤسس، في الماضي لم يكن آل الدكر يزوجون فتياتهم

سوى لجدعان العائلة، حتى لا يُعكر نقاء السلالة المقدّسة أي معكر، ولا يختلط دمهم بدماء غيرهم من «العبيد»، هكذا كانوا يصفون باقي عائلات البلد.. لكنه الزمن، صنع صنعته، وضرب ضربته، ودبّر مكائده، وصارت نسوان العائلة أضعاف رجالها، فطأطأ الجميع رأسه له، ليدوس على عاداتهم وتقاليدهم، فبناتهم صرن كالأرض البور، ورجالهم أوشكوا على الانقراض، فاختلطت الدماء، وصار العبيد رأسًا برأس مع أسيادهم..

بالطبع تلك حكايات من أساطير، تلفّها العائلة حول نفسها، كأنها سياج يحميها من سخرية الساخرين، واستهزاء المستهزئين.. بيد أنها ليست لها أقدام ثابتة من الحقيقة تقف عليها، فهي كما يردّد الناس في البلد، أحاديث كالدخان الطائر في الهواء، لا يمكن لأحد أن يحكم عليها قبضته سوى بيومي العبيط وغيره من مجانين أبناء الدكر، الذين ينظرون دومًا إلى ماضيهم مزهوين، ولايرمقون حاضرهم ولو بنصف عين..

فلا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة سوى بيومي العبيط وأقرانه من المجانين من أحفاد الدكر، الذين لايرون سوى لونًا واحدًا منها، ورواية واحدة للتاريخ، بالطبع تلك التي تُمجّد جدهم الكبير، ويولون الروايات الأخرى الأدبار، فهي في نظرهم لا تُعبّر سوى عن حقد أعمى وكراهية عميقة لهم، رغم ما يكابدوه من فقر مدقع ينخر عظامهم كالسوس.. فالرجل من آل الدكر يكفيه أن يجلس تحت ظل شجرة، بينما أقرانه يعملون تحت سياط الشمس الحارقة، ويسرد تاريخه، ويمجّد ماضيه، وليس في جيبه سوى الهواء، وفي الليل يذهب عند دكان الكاتعة، طالبًا سيجارة لف «على النوتة»، وتعطي له المرأة ظهرها، معرضة عنه، فالنوتة لم يعد فيها مكان شاغر لتسجل الجديد، وقبل أن يفغر فاه، ويبدأ بإلقاء القصائد عن جده الكبير، تغرقه في سيول التقريع والتهزيء والتوبيخ، وهي تزعق بصوتها الرجولي الذي تبدّل تمامًا كأنه صوت آخر غير ذلك الأنثوي الناعم الذي تُلاقي به زبائنها طالبي المتعة الليلية.. تبدأ موشحها في التوبيخ، بشخرة تخرج من فيها، كأنها آتية من أطراف أنامل قدميها، لتزلزل المكان، وتصيب المعني بها بالرعب، هي ليست من هؤلاء الناس «الخرعين»، الذين يصبرون على سماع تلك الأسطوانات الدكراوية دون أن يحركوا ساكنًا، فهي كما كانت تردّد بعدما تنتهي من شخرتها وتوابعها المزلزلة: «الكاتعة والأجر على اللـه»، وقد ينتهي ذلك الموشح إذا احترم الرجل نفسه، واستهدى باللـه، وغادر المكان على الفور، دون أن يفتح فمه بحرف، لاعنًا السيجارة وشاربها، وللأمانة كان أغلبهم يفعل ذلك، فعواقب أن يفتح فمه بكلمة معترضة وخيمة.. وما حصل لشعبان الدكر في صدر شبابه لمثال. لم يكن من المعروف عنه حب الشغل في الغيط، رغم أنه ليس حيلته اللضى، لكنه كان «كيّيف»، يشرب السيجارة فى أثر السيجارة، وكان يختلف إلى الكاتعة وتعطيه ما يريد وتُدوّن فى النوتة، إلى أن جاء يوم وامتلأت، وكان الشاب الغرير شعبان «خرمان»، يكاد الكيف يفتك برأسه، فروث الحمير الذي كان يشعل فيها النيران لم يضبط الدماغ، كذلك شواشي أعواد الذرة، لم تُؤتِ أُكلها، وطلب منها ولو سيجارة واحدة، يعدل بها ما اختل من رأسه، لكنها أعرضت، فأخذته العزة بالإثم، وصاح كالمجنون، فاتحًا عينيه عن آخرهما، ومتوجهًا ناحية الدكان، ليقتحمه وهو يصيح:

ـ انتِ مش عارفة آني مين؟ آني ابن الدكر على سن ورمح!

فشخرت له في الحال، شخرة لو اجتمع رجال البلد على أن يأتوا بمثلها لباءوا بفشل وخذلان عظيم، وأمسكت في خناقه، ورقعت بالصوت الحياني مستنجدة، وهرول الناس من كل حدب

وصوب، وكادوا يفتكون به، بينما طفقت تخلع عنها جلبابها، الذي ترتديه دون سراويل تحته، وزعقت، وهي تشير إليه بيديها، ثم تشير إلى مابين فخذيها:
ـ إن كنت دكر من ضهر دكر قرب مني يا ولا.. داني الكاتعة.. آني أهو عريانة قرب كده.. قرب يابن الدكر!
ثم ضربت راحتيها ببعضهما بقوة وصاحت:
ـ داني مرة حلّه اللباس!
اختلس الرجال النظر إليها عارية، كانوا يرمقونها بطرف أعينهم، وبالطرف الآخر ينظرون إلى نسوانهم خائفين، وإذا ضبطت امرأة أحدهم زوجها متلبسًا بالنظر إليها، كان يداري خجله وخوفه، بالصياح مستجديًا، لابسًا ثوب الحكيم تارة، وجلباب الواعظ الديني تارة أخرى:
ـ مايصحش كده، استري نفسك، الجدعان واقفة، عيب!
وكانت النسوة، يكظمن غيظهن وحنقهن منها، ولا يستطيعن أن يجأرن محتجات عليها، فلا يمكن الحديث مع ذلك النوع من النسوان، صاحبات الوجوه المكشوفة، اللاتي ليس لديهن سقف محدد من الشرور والخلاعة..

٥

يومئذ، لم يُخلّص الولد من بين يديها غير شيخ الخفر الملط، الذي كان لتوه قد ناسب عائلة الدكر، ووضع يده في يد دسوقي، لكن بعد ماذا؟ فلقد حصلت الفضيحة والجُرسة في البلد، وأصبحت سيرة الغشيم على طرف كل لسان في البلد، حتى النسوان اللائي كن يسرحن الغيط لم يسلم من لسانهن، وأخذن ينسجن حكايات من خيالهن عنه، وكيف نالت منه صاحبة العين المتبجحة، التي لا تعرف عيبًا ولا تفهم شيئًا في قواعد الأصول.. كن يضحكن ويقلدنها، وهي عارية ماسكة في خناق شعبان، الذي كان بين يديها مثل الكتكوت الغارق في مياه الترعة، كن يتحدثن ويسخرن منه، ويرمقن بطرف أعينيهن البنت بخيتة، التي كان يتردد أنها «حاطة عينيها عليه»، رغم أنه طالع في العالي، وعامل نفسه نصف الدنيا، مثل باقي آل الدكر، ولا يعيرها أدنى اهتمام.. أضرمت سخريتهن نيران الغضب في صدرها، حاولت كتمانها في البداية، لكن لم تطق صبرًا، وانفجرت في وجوههن زاعقة والدموع في عينيها تتلألأ:
ـ انتوا مالكوا ومال الجدع، ما كل حي يخليه في حاله.. صحيح نسوان قليلة الحيا والربابة
انتفضن منتصبات بعدما كن محنيات الظهر، ينقين الدود من أوراق القطن، وقالت إحداهن معاتبة، وهي تضرب بيديها السمراوين على صدرها المكتنز:
ـ بقى احنا نسوان قليلة الحيا يا بنتي؟ ده انتِ ماتجيش من دور عيلة من عيالي!
طأطأت البنية رأسها، وانكفأت على شجرة القطن، ولم تنبس بحرف.
وقالت صبية تبدو من نفس عمرها، وهي تربت على ظهر المتحدثة، وتضحك بخبث وترمق بخيتة بطرف عينيها الماكرتين:
ـ معلشي يا خالتي!
ثم أطلقت ضحكة خليعة، وأردفت:
ـ الحب بيعمل أكتر من كده، ياعيني على اللي حب وماطالشي!

وضحكت النسوان وهن يرمقنها، بينما كانت دموعها تتساقط فوق أوراق القطن، وقالت المرأة مازحة:
ـ حب ايه يامزغودة منك ليها؟ دا انتوا لسه ماطلعتوش من البيضه، وبتتمسخروا وبتقلوا أدبكم، دا الواحدة مننا كانت بتقعد لحد لما تجيب أول بطن، ماتعرفشي اسم الدلعدي راجلها، وانتِ يا اختي انتِ وهي بتحبوا وبتتصرمحوا، صبايا آخر زمن، منه للـه الراديون بتاع حضرة شيخ الخفر، هو اللي علّم الناس المسخرة، وفتح عينين الصبايا على الكلام الفارغ!
ثم سكتت برهة راقبت فيها وجوههن.. وضربت راحتيها ببعضهما، وأردفت مازحة:
ـ دا احنا مكناش صبايا!
وشاركت أخرى في الحديث معضدة رأي سابقتها:
ـ على قولك يا ختي، دا الواحدة مننا زمان لما كان بيعدي جدع من جنبها، كانت بتحس كأن سلك كهربا عريان لبد في جتتها من الكسوف.. اللـه يرحمه الدلعدي جوزي، يوم فرحنا، بعد ما المعازيم ما روحوا، قالي يلا اقلعي يا بت.. قومت راقعة بالصوت الحياني، روحولي ياهو، انجدوني يا خلق، لحد مالميت عليه أمة لا إله إلا اللـه، وجرسته، كل اللي يسألني فيه ايه يا عروسة، أقوله المفضوح وأشاور على الراجل، بيقولي اقعلي هدومك، وأمي وصتني قبل كده، وقالتلي ماتحليش لباسك من على وسطك أبدًا، لو حصل ايه، ولو حد قالك كده، صوتي وفرجي عليه الخلق.. يومها الناس قعدت تضحك.. وجوزي اللـه يسامحه بقى، دوّر فيا الضرب، وقالي فضحتيني يابنت الكلب!
تهالكت النسوان من الضحك على ذكريات العجوز، بينما بخيتة الولهانة منكفئة على أعواد القطن، تندب حظها، وتلعن قلبها الذي سقط أسيرًا لولد من عائلة الدكر، لا يحسن في الحياة صنعًا غير الصرمحة والتفاخر بتاريخ جده المزيف، ورغم ذلك كله لا يرضيها ولو بنظرة عابرة، ولسان حالها يقول، وهي تؤنب نفسها، فليس فيه ما يغري حتى الكلاب الجرباء لمعاشرته، «رضينا بالهم والهم مش راضي بينا».

٦

هناك عيال في البلد، مدهونين بماء العفاريت، بيد أنهم بشر من لحم ودم، وثمة بنت هي العفريت نفسه، إحدى عجائب كفر الدكر، التي يفاخر بها الجدعان أقرانهم من البلدان الأخرى، وعلى رأسهم كفر أبوعلي.. فالرجل في بلدنا لا يكفيه معاشرة نسوان الإنس، ويضاجع الجن والعفاريت، رجال البلد ذوو قلوب ميتة لاتهاب.. وانتشرت الأساطير حول علاقة الإنس والجن في القرية..
يرددون أنها بدأت بالدكر الكبير المؤسس، الذي نال إعجاب نسوانهم، وعرضن عليه أن يجعلوه ملكًا عليهم، بيد أنه أعرض وأبى، وأعلن أنه لا يمكن أن يرتدي تاجًا آخر غير تاج الأندلس يومًا ما.. هكذا كان يحلم جدنا.. وظلت وشائج المودة والحب موجودة بين جدعان البلد ونسوان الجن، ودخل كثير منهم في علاقات غرامية ملتهبة انتهت في بعض الأحيان نهايات درامية مأساوية، تستحق كثير منها أن تدوّن بمداد التاريخ ليحفظ تلك الحكايات الملحمية، التي دارت أحداثها على أرض كفر الدكر، وكان أبطالها لايقلون عن عظام الرومانسية، أمثال روميو وجولييت وغيرهم من قصص الغرام العالمية..

كانت تنخلع مفاصل رجال البلدان الأخرى، حين يسمعون عن علاقة غرامية بين رجل من كفر الدكر وجنية، مرددين كلامًا فارغًا في الهواء، بأن جدعان البلد كثيري الكلام، دون أثر على أرض الواقع، وأن اللـه أخذ منهم كل شيء ولم يترك لهم سوى لسانًا طويلًا يمتد لأمتار، وأنه من العبث أن تقارع واحدًا من كفر الدكر في ميدان الكلام، فهم لا يحسنون غيره، وتمجيد تاريخ يراه خصومهم زائفًا، منذ أساطير الجد المؤسس وإلى الآن، لذا كذّبوا، أو لم يريدوا تصديق، أن كفر الدكر حطمت كل قواعد المنطق وقوانين الماورائيات، وأن مايرونه مستحيلًا كان ممكنًا في هذه القرية، وهناك من القصص الغرامية الملتهبة ما يدمي القلوب ويفلق الحجر تأثرًا..

وحكاية الشاب بسطويسي الرايق مازالت عالقة في أذهان البلد، على أنه آخر شهيد للحب في الكفر.. كان مفتول العضلات، ممشوق القوام.. ذا صدر عريض، وشعر ناعم طويل مسبسب، يطرف عينيه حين تداعبه نسائم الهواء.. يعمل عند جناب العمدة أجريًا، كغيره من الجدعان.. كان يروي الأرض، وتأخر في الغيط عند البئر الكبير المسكون، ودخل الليل، ولم يعد يسمع غير نعيق الغربان، وأصوات المواشي المعلقة في الساقية، اضطرب، وارتعدت فرائصه وهو يراقب ماحوله، مثل الغريق في البحر، يطلب النجاة، لكن ظلام ليل كفر الدكر ابتلعه، واستسلم لمصيره.. حتى رجال البلد، الذين ابتسم لهم الحظ، وأكلوا من كبد الذئب ولم يعد الخوف يزور قلوبهم، لا يستجرأون أن يمروا من أمام البئر، وخاصة مع ارتخاء ستائر الليل..

قرفص بسطويسي، ودفن رأسه بين ركبتيه، وراح يبكي بصوت خفيض، لكي لا يسمعه سكان البئر، لكنها كانت هناك تقف بجواره، فتاة مديدة القامة، منحوتة القوام، نحيلة الخصر، بيضاء الوجه، شعرها طويل.. جلست بجواره نصف جلسه، دون أن يشعر، وربتت على كتفه، فارتجف بدنه، ورفع رأسه، وصرخ متوسلًا، دون أن يرمقها:

ـ مش عايز أموت ياست العفريتة، سايق عليكي الأوليا!

ابتسمت وبدت أسنانها في لون الحليب، وقالت وهي تزيح شعرها الناعم من فوق عينيها الواسعتين الساحرتين:

ـ ماتخفشي يا بسطويسي، آني هنا لحمايتك!

خفتت حدة الرعب والقلق لديه، ورمقها بنظرة مترددة من الخوف، فتلاقت عيناه بعينيها، وسارت بداخله حالة من الطمأنينة، وتهلل وجهه، وسألها:

ـ انتِ مين؟ إنس ولا جن؟

وابتسمت، فأنارت المكان، كأن النهار دخل، وقالت بصوت ذي نغم عذب:

ـ آني حبيبتك يا بسطويسي!

زقطط الجدع، ولكنه رأى أن يؤجل الفرحة حتى يستفهم منها ثانية، وسألها وهو يشير بإصبعه ناحية صدره ويهزّ رأسه:

ـ آني؟!

أجابته ضاحكة بضحكة خلعت قلبه من مكانه من السعادة:

ـ إيوه يا سي بسطويسي!

ثم وضعت عينيها في الأرض، وقد احمرّ وجهها خجلًا، فأصابته حالة من الثقة والغرور، وقال وهو يفتل شاربه الكث:

ـ وانتِ عايزة مني ايه؟

جثت على الأرض، وطفقت تُقبّل قدميه الحافيتين، وهي تتوسل إليه:
ـ رايداك!
أبعد قدميه، وقال وهو يُتأتئ:
ـ بس آني من الإنس وانتِ من الجن!
نهضت وقالت وهي تُضيّق عينيها متوسلة ومستعطفة:
ـ وايه يعني ياسي بسطويسي؟
لكنه أبى، وقال متحاشيًا النظر في عينيها ثانية:
ـ مش هينفع!
وترك الغيط والبهائم في الساقية، وعاد إلى البلد مهرولًا، بينما كان الخلق عند دكان الكاتعة، وقبل أن يصل إليهم صرخ مستغيثًا:
ـ إلحقوني.. غيتوني ياعالم!
ثم سقط مغشيًا عليه في مكانه، وهرول الناس ناحيته حاملين لمبات الكيروسين، ونادى أحدهم على امرأته أن تحضر بصلة في التو واللحظة، فالجدع بين الحياة والموت، ولما أحضرتها شقها إلى نصفين، وأخذ يقرب شطريها من أنف بسطويسي، الذي استفاق وهو يردد بجسد مرتجف:
ـ عفريتة.. عفريتة.. عفريتة!
جحظت عيون الحاضرين من الخوف، وطفق بعضهم يردّد:
ـ دستور يا اسيادنا!
ولما هدأ، منحته الكاتعة سيجارة لف «جدعنة»، وقالت وهي تربت على كتفه:
ـ خد يا اخويا عفّر، وروّق دمك.. واحكيلنا اللي حصلك.
وأشعل له حمودة الحمارة سيجارته، وأمسكها بين إصبعيه مرتجفًا، وقصّ عليهم ما جرى، ولما انتهى من حديثه سأله أحدهم:
ـ اوعى تكون بصيت في عينيها يا ولا يا بسطويسي!
أجابه بعدما أخذ نفسًا، وأغلق فمه للحظات.. ثم فغره فاندفع الدخان على دفعات:
ـ ربكم والحق، آني أول ماشوفت عينيها قولت لنفسي.. اوعاك يا ولا يا بسطويسي تبص في عينها تاني، دي فيها سحر عفاريتي ياجدعان.. آه صحيح هي كانت واقعة في العبد للـه لشوشتها، وبتترجاني اتجوزها..
أصاب الغضب والحنق كثيرًا من الحاضرين من غرور ذلك الشاب، الذي كان منذ لحظات يصارع الموت من الخوف والفزع.. لكن أحدهم لبس ثياب الثبات والشجاعة وقال مستعرضًا حكمته:
ـ لو كنت اتغاشمت وبصيت تاني في عينيها.. كانت سحبتك زي العجل البقر وأخدتك معاها البير.. آني حصلي اللي جرالك قبل كده.. وجات بت جنية قليلة الحيا من إياهم.. وقالتلي رايداك.. قومت نازل عليها بالعصاية اللي معايا، وفين يوجعك.. لحد ما بان لها صاحب. وقالت حرمت وجرت على البير!
كانوا يستمعون على مضض لذلك الرجل، الذي دخل على خط الدراما، مستعرضًا قصته التي يعرفون أنها من غزل خياله الخصيب.. وطالما أقيم مولد الحكي، فلم لا يدلي كل منه بروايته مع العفاريت.. قصص حتمًا ستُكتب لها النهاية التي يريدها صاحبها.. ولا يضر أن يستعرض الكل

بطولاته أمام رفقائه، طالما كان الكلام في الهواء الطلق، ففضاء كفر الدكر يستوعب الكثير.. غير أن أحدًا من الأبطال المزيفين لم يجرِ له كما حصل للمرحوم..
لما انفض السامر، وذهب كل حي إلى داره، وعاد بسطويسي إلى زريبة العمدة حيث يبيت، كان خبر ما جرى عند دكان الكاتعة قد وصل لتوه إلى جنية البئر الكبير سهير، يقال إن بيومي العبيط سامحه اللـه هو الذي نقل ما حدث لسماسم، وانتقلت الأخيرة في التو واللحظة من عند المقابر، حيث تسكن، إلى البئر حيث تقيم شقيقتها الكبرى، وزجرت ونهرت ابنة أختها، عشيقة بسطويسي، على خنوعها وانكسارها أمام إنسي، فلا يصح أبدًا من واحدة من سلالة ملك الجن العظيم، أن يبدو ضعفها أمام فلاح جربوع من عيال الإنس.. بيد أن أختها رفضت حديثها، وصرخت في وجهها وهي تضرب راحتيها في بعضيهما:
ـ دوّري على نفسك يا اختي.. المحروسة بنتي ماتعملشي كده.. قطع لسان اللي يقول عليها كلمة!
ثم أطرقت ناظريها، وأولت لها ظهرها وأردفت:
ـ الدور والباقي على اللي اتجوزت إنسي.. لأ وكمان مهبول!
استشاطت سماسم من الغيظ، وأضرمت نيران الغضب بداخلها، وقالت بلسان العتاب والحزن وهي عائدة إلى دارها، حيث بيومي العبيط في انتظارها:
ـ الحق عليا يا اختي إني جيت أقولك الكلام اللي داير في البلد على بنتك!
ثم انفطرت في البكاء، وأردفت:
ـ واللـه ماعدت داخلالك مطرح!
أشاحت الجنية الكبيرة بيدها ناحيتها، وضيّقت عينيها، وقطبت حاجبيها، وصرخت:
ـ روحي داهية تاخدك وتاخد الدلعدي العبيط جوزك!
وأرسلت في طلب ابنتها صاحبة الشأن، وسألتها بصوت كالرعد:
ـ كنت فين ليلة امبارح يا مقصوفة الرقبة؟!
أطرقت الفتاة، ولم تحر جوابًا، وانفطرت في البكاء، وانهالت عليها بالضرب والسب والتقريع:
ـ على آخرة الزمن بنتي تروح تحب رجل إنسي.. يافضيحتي وسط الجن والعفاريت!
ولم تمر سوى أيام تُحصى على أصابع اليد الواحدة، وسمع أهل البلد من بيومي العبيط، أن البنت عشيقة الولد بسطويسي ماتت منتحرة، وسار الخوف والرعب مع الدم في أوردة المرحوم من انتقام أمها، وهو ما حصل بالضبط..
ففي ليلة من ليالي الشتاء الباردة، تنكرت الأم في هيئة حمارة، وطفقت تنهق أمام زريبة العمدة، حيث ينام بسطويسي وحيدًا بعدما أنعم اللـه على رفيقه رجب الكلاف وصار لديه دارا وزوجة، كان نهيق الحمارة قويًا كالرعد، أصاب أذني الجدع الذي كان غارقًا في سابع نومة من أثر الشغل الشاق طوال النهار.. بادىء الأمر تكاسل، وعاود النوم لكن صوتها اشتد، ولم يعد هناك مفر من أن يقوم بربطها، لئلا تهرب بعيدًا، ويأتي جناب العمدة في الصباح يولول مثل النسوان، ويطلب من حضرة شيخ الخفر أن يرميه في الحجز، لحد ما يبان له صحاب..
كان شخيط وزعيق غريب الملط له في الزنزانة، ونهيق الحمارة؛ يتعاركان في رأسه، وبالطبع انتصر شخيط الأول، وغلب صوت العقل، فنهض من فراشه مهابة ذلك السيناريو المخيف، وخرج يبحث عن حمارة العمدة، التي مشيت بخطوات وئيدة نحو الغيط، وكلما اقترب منها أسرعت، إلى أن قادته دون أن يدري عند البئر، وهناك حاول أن يولي الأدبار ويعود من حيث

جاء، وهو يلعنها وصاحبها والملط، لكن أزفت الآزفة، ونفذ السهم، ولم يعد ثمة مفر من لقاء الجنية الأم سهير، التي وقف أمامها كأنه كتكوت صغير بجوار فيل كبير.. جثى على ركبتيه، وسجد على الأرض، وقبّل قدميها اللتين تشبهان حافري الماعز، وصرخ متوسلًا:
ـ في عرضك ياست الجنية!
ولم تمهله كثيرًا، وأطبقت على ظهره، وضربته بكلتا يديها ضربتان لا ثالث لهما، انتقل بعدها المسكين إلى العالم الآخر...
واستيقظ الناس مع أول أضواء الصباح، وسرح كل حي منهم ببهائمه، فوجدوا جثته مستلقية بجانب البئر، وعلى ظهره علامات يدي الجنية.. يردد الناس أن المرحوم بسطويسي سامحه اللـه، ضحك على عقل البنت الجنية، ونام معها في تلك الليلة، فخافت أمها الفضيحة والجُرسة وسط أهلها من الجن، وقتلت هي وأولادها بنتها، وأقسمت ما تبات ليلتها في بئرها قبل أن تغسل عارها بيدها، وتنتقم من بسطويسي.

٧

وأرسل جناب العمدة إشارة إلى مركز الشرطة، وحضر المأمور ووكيل النائب العام.. في المرات العديدة السابقة لم يكن التحقيق يأخذ أكثر من دقائق، بعدها تُقيد القضية ضد مجهول، بيد أن هذه المرة، جاء إلى البلد وكيل نيابة جديد، لم يعتد على تلك القضايا في بلدنا، وأصر ذلك الشاب الذي لم يتجاوز عمره الثلاثين عامًا أن يعاين الجثة بنفسه، وأن يستدعي على وجه السرعة الطبيب الشرعي، على الرغم من أن زميله السابق لم يكن يرى أن ثمة فائدة من حضوره، فكان في القضايا الماضية يأمر على الفور بدفن الجثة، فإكرام الميت دفنه.. لكن هذا الأفندي الجديد الذي عُيّن حديثًا ليست لديه خبرة سابقة، كان حنبلياً متطرفًا في إعطاء الأوامر، مزهوًا بنفسه، يكلم الناس من طرف مناخيره.. ما تسبب في إزعاج المأمور، الذي اعتاد أن ينشغل حين يحط رحاله في البلد ويستقر في دوار العمدة؛ بالفطير المشلتت والعسل واللبن الذي يعشقهم، ويطلب الشهود، الذين يقفون أمام الدوار في انتظار الاستدعاء، وينتهي التحقيق وتُقيد القضية ضد المجهول.. بينما مازالا، هو ووكيل النيابة السابق، يغوصان في أعماق الحمام المحشي وذكور البط المشوية التي أعدها العمدة خصيصًا لتلك المناسبة، رغم ما كان يتسبب له ذلك فيه من ألم، حيث كان يلعن في سره القاتل والمقتول والبلد كلها، التي تسببت في خسران أكثر من ذكر بط وأوز وحمام، ذهبت كلها في بطون الجماعة الضيوف، الذين كانوا يأكلون ويمسحون أياديهم في الحيط..
رفض الوكيل المكوث في الدوار، وطلب من مرافقه أن يصطحبه إلى مكان وقوع الجريمة بصحبة الطبيب الشرعي، الذي حضر على عجل ممتطيًا حمارة الملط، في بادئ الأمر حاولوا أن يثنوه عن عزمه، لم التعب والإرهاق والقضية مصيرها معروف، ومثل كل مرة، الشهود موجودون في انتظار التحقيق، والأسئلة واحدة وكذلك الردود نفسها.. لكنه رفض، وأعلن الذهاب ولو وحيدًا إلى مسرح الجريمة، فتبعوه على مضض..
كانت جثة المرحوم مسجية على الجسر مغطاة بقش الأرز، يحيطها الخفر، والرجال والنسوان وعيال البلد يقفون على شكل دائرة، يبكون، ويصرخون، ويندبون الشاب الذي لم يدخل دنيا بعد، ويواسون خطيبته التي راح صوتها، وجلست القرفصاء بجوار الجثة تلطم خديها وتهيل التراب

على وجهها، وقد خلعت طرحتها، وبدا شعرها الأكرت منكوشًا.. وراحت تندب ثانية بصوت ضعيف مبحوح:
ـ جات الحزينة تفرح.. مالقتلهاش مطرح!
والنسوة حولها يربتن على ظهرها ويرددن:
ـ ماتقوليش كده يا هبلة.. دا احنا كلنا ضيوف عليها.. تفى من بقك.. واستغفري ربنا!
أخذ بعضهن يمصمصن شافههن وهن يرمقونها، ويتبادلون الهمسات الباكية:
ـ غلبانة بختها في الدنيا قليل.. دا كانت دخلتها متل النهارده!
ووصل الوكيل والمأمور والطبيب الشرعي، وأفسح الناس لهم المكان، كانت خطيبته تندب وتصرخ، كأنها تُحدّثه، بينما هم يفحصون الجثة:
ـ نام واستريح يا اخويا.. يا ترباس الباب.. الجماعة الأفندية جايين يشوفوك!
ضجر وكيل النيابة، وأصاب الضيق الآخرين، فصاح الملط فيها وهو يفحص وجهها المترب وشعرها الأشعث، والكحل الأسود السائل من عينيها الدامعة، وجلبابها الذي مزقته من جيدها:
ـ ايه يابت داهية تاخدك وتاخد أمك.. له حق يموت ويطفش من وشك اللي يقطع الخميرة من الدار.. انتِ عاملالك غلبة ليه؟ البهوات مش عارفين يشوفوا شغلهم!
ارتعدت فرائصها، وانحشر الكلام في حلقها، والتزمت الصمت على مضض، بينما ضحك الأفندية من حديث شيخ الخفر الساخر.
وأشار الطبيب، وهم في طريق عودتهم إلى الدوار ثانية، أن المجني عليه مات على إثر ضربة بآلة حادة يُرجّح أنها شومة على مؤخرة الرأس.. ردّ الملط الذي استنكر هو والعمدة حديثه:
ـ دي العفريتة ياحضرة الحكيم اللي موّتت الوله ديه!
لاقى هذا الرد القبول في صدر المأمور، الذي يريد أن يقتنص الغداء السمين، ويلحق العودة إلى البندر قبل دخول الليل.
وابتسم وكيل النيابة، وسأل:
ـ عفاريت ايه ياشيخ الغفر؟!
هزّ الملط رأسه مستنكرًا السؤال الذي بدا له شديد السذاجة، وقال:
ـ العفاريت اللي مالية كفر الدكر يا بيه!
قهقهه وسأله ساخرًا:
ـ طيب ابعت هاتلي اتنين من العفاريت نستجوبهم!
جحظت عيونهم من حديث الشاب الغر الساخر من الجن والعفاريت.. وحدّث العمدة نفسه:
ـ اللـهم احفظنا.. سامحوه يا أهل السماح.. آني ماليش دعوة.. وحياة الأوليا ماتحيقوش دوايي!
بينما بصق شيخ الخفر في صدره مستغفرًا.. وقال وهو يرسل عينيه تدوران في المكان:
ـ مايصحش كده يابيه.. اللي بيتمسخر من العفاريت، ربنا يحفظنا، مش بيسبيوه في حاله!
انفجر غاضبًا وصاح زاعقًا، وهو يشير ناحية الملط بإصبعه، وعلى وجهه علامات التقزز والاشمئزاز:
ـ أنتَ ازاي تكلمني بالطريقة دي؟
وفُتح التحقيق في ساعته وفي تاريخه، واستدعى أول شاهد، وكان الكلاف.
وسأله وكيل النيابة، وهو ينفث سيجاره وينظر إلى أوراق المحضر الذي بين يدي الكاتب:

ـ اسمك؟
أجابة متأتئًا:
ـ خدامك رجب يا بيه.
ـ ايه علاقتك بالقتيل؟
ـ كل خير.. اللـه يرحمه كان زي حالاتي مقطوع من سجرة.. وكان شغال معايا عند جناب العمدة.
ـ كان له عداوات مع حد من البلد؟
ـ ولا برا البلد يابيه.. دا كان جدع طيب بيمشي جانب الحيط.. مفيش غير اللـه يسامحها ويجعل كلامنا خفيف عليها وعلى عيالها!
رفع الشاب رأسه ونظر باهتمام لرجب، وسأله:
ـ مين؟
أجابه:
ـ سهير الجنية اللي ساكنة البير الكبير يا سعادة البيه.. علامات ايديها لسه على ضهر المرحوم.
استشاط الوكيل غضبًا وأشاح بيديه طاردًا رجب.. واستدعى آخرين، أكدوا جميعًا شهادة الكلاف، ما أصابه بالإحباط واليأس، وأعلن الاستسلام، وقُيّدت القضية كسابقتها ضد مجهول..
وبعد تلك الحادثة بأسبوع، سمع أهل البلد خبر وفاة وكيل النيابة، يتردد في كفر الدكر أن جنية البير بعدما وصل إلى مسامعها حديثه الساخر والهازئ منها، أصرت على الانتقام منه، وكان لها ما أرادت، حيث عقدت العزم وبيتت النية، وأرسلت واحدًا من عيالها يترصد خطواته وتحركاته، وبعدها «ادّلت» بنفسها إلى البندر، وانتظرته في مكان «مقطوع» في طريق عودته من مقر شغله إلى استراحته التي يقيم فيها، وأحكمت الخناق حول رقبته، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، وتركته وعادت إلى البئر الكبير، تقيم أفراحًا وليالٍ ملاحًا، احتفالًا بالثأر من ذلك الشاب الغرير المتغطرس الجاهل بقوانين كفر الدكر.. فلهذا البلد قوانينه الخاصة، التي لا يمكن أن تُطبق على بلد آخر في العالم، ففيه حين يُقتل القتيل، تُقيّد القضية ضد مجهول، ويصير الباحث عن ذلك المجهول كالذي يطارد دخانًا.. في كفر الدكر حيث منح عزرائيل أختام الموت للجن والعفاريت، تقبض أرواح من تشاء في الوقت الذي تريد.

٨

كل الآمال باتت معقودة على آخر ذكر في عائلة الدكر، ليسترجع ماضيًا عريقًا، بناه جده الأكبر المؤسس، صار صبيًا يافعًا، يُجيد الحرث والزرع والحصد في أرض عمه، التي لا تتجاوز أربعة قراريط، يصحو من النجمة، ويسرح الغيط، حيث يبتعد عن لسان امرأة عمه، فالبعد عنها غنيمة، هناك في الغيط بجوار المواشي أو حتى تحتهم، أرحم من أن يسمع كلامها، وسخريتها و«نأورتها»، التي كماء النهر الجاري لا تنضب أبدًا..
فُتنة ابنة شيخ الخفر، التي ما إن تنهال على زوجها المسكين بالسب والتقريع والسخرية من عائلته وجده الدكر، حتى يُطأطئ رأسه، ويبرطم مثل العيال، بكلام معترض لا يبلغ فاه، مثل «اهي.. مايصحش كده يا فُتنة»، بيد أنها، في كثير من الأحيان، تسلب منه حق الاعتراض ولو كان بهمهمة، وتزيد من «تهزيئها» له، غير عابئة بأهل البلد الذين يرمقونهم.. ليست لديها رفيقة تلجأ

إليها وقت ضيقها، كل النسوان هربن منها، صرن يجتنبن جلساتها، فهي مثل البحر ينقلب مزاجها سريعًا، ولن ينسى الناس ما صنعته مع بنت المرحوم عوض الخفير، رفيقتها منذ كانا صغارًا..
لما أكرمها اللـه بزوج جاء بعد طلوع الروح، وصار عندها بنات، همست إليها صديقتها يومًا ناصحة، بصوت خفيض متوجس من ردة فعلها:
ـ بقولك ايه يا فُتنة ياختي، ماينفعشي تعاملي الدلعدي اسم النبي حارسه جوزك كده.
جحظت عيناها، واحمرّ وجهها الأسود، واختلجت أرنبة أنفها من الغضب، وزعقت بصوتها الذي يشبه الرعد وهي تضع يديها حول خصرها، وتهزّ جذعها:
ـ وانتِ مالك يابنت عوض الجربان انتِ كمان.. كان اشتكى لك ولا كان اشتكى لك؟!
ابتلعت المرأة الإهانة، وهمست محدّثة ومؤنبة نفسها في ضيق وحزن:
ـ تصدقي يا بايرة آني غلطانة واستحق ضرب الصُرم عشان بنصحك!
ثم صمتت للحظات، كانت الدموع الحزينة تنساب على وجنتيها، وهي ترمق وجه فُتنة، وقالت بصوت مسموع:
ـ ماله أبويا، الراجل حدا ربه دلوقتي، بتجرجري في سيرته ليه؟
ثم أمالت رأسها جانبًا، وارتعشت عضلات ذقنها، وقالت باكية:
ـ الحق عليا ياختي عشان خايفة عليكِ، ومش عايزة بناتك يبوروا زيك، لو حد شافك «بتهزئي» الدلعدي دسوقي كده، والنبي ما مخبط عليك باب!
لم تترك رفيقتها تُكمل حديثها المعاتب، وانهالت عليها كالوحش الكاسر، وألقتها أرضًا، وأوسعتها ضربًا وركلًا، وجرجرتها من شعرها وهي مستلقية على الأرض، حتى أخرجتها خارج دارها، وهرول الناس على صراخ المسكينة التي قادها حظها العاثر إلى دار ابن الدكر، الذي كان موجودًا ولم يحرك ساكنًا، ولم يقوَ أن يقول لامرأته «عيب»، فلو فتح فاهه بحرف ربما كان مصيره كمصير تلك المرأة..
كانت تزعق في رفيقتها وهي تجذبها من شعرها، وعيناها تنطق شرًا مبرمًا:
ـ بقى انتِ جاية «تهزأيني» في داري يابنت الرافضي؟!
وكانت رفيقتها تصرخ من الألم باكية:
ـ محصلشي وحياة سيدنا الطاير يا فُتنة، إلهي أعدم نضري ما حصل!
ثم تجول بعينيها في وجوه الحاضرين باحثة عن طوق نجاة، وأردفت بصوت باكٍ متوسل:
ـ حشوني يا عالم.. غيتوني يا خلق.. روحي هتطلع يا ناس!
لم ينطق كثير من الحاضرين ببنت شفة، واكتفوا كعادتهم بمصمصة شفاههم، سوى نفر قليل منهم، انتفضوا وأعلنوا الاحتجاج عبر همهمات ضعيفة كانت تتوه وسط زعيق فُتنة.. كان دسوقي يراقب خائفًا من خلف فتحة صغيرة من شباك غرفة نومه، لاعنًا زوجته واليوم الذي شافها فيه، وأباها وحمارته التي كانت سببًا لكل المصائب، فهذه المرأة لاتحمل من الأنوثة سوى اسمها..
من يوم حادثة تلك المرأة المسكينة الناصحة، وصارت النسوان تفرّ من فُتنة، فرار السليم من الأجرب، بيد أن المسكين الذي فرح بالنجاة من زوج أمه ولسانه السليط وقع هو الآخر أسيرًا بين يديها، فجعلته يترحم على أيام مرزوقا!
وما زاد وغطى، وزاد الطين بلّة، ماحصل «للضاكتور بسيوني» في الدراسة، الولد الذي تنبأت له العرافة في البندر منذ كان في اللفة بأن يصير طبيبًا شهيرًا، أو فاتحًا عظيمًا، وأنقدتها أمه ثمن تلك

النبوءة المبهجة.. لن يصبح طبيبًا ولا حتى تمرجيًا، ولن يكون قائدًا يومًا ما، فالجواب يبان من عنوانه.. فلقد التحق بالثانوية الزراعية بشق الأنفس، كان يتخطى السنة في اثنين وأحيانًا ثلاث، وكان عمه يحلف بدلًا من اليمين أيمانًا، أن ابن أخيه ولد نابغة، وأن النظام التعليمي في كفر الدكر هو السبب فيما يحصل له، وأقسم أنه شاهد في منامه بسيوني يلبس بالطو أبيض، ويضع السماعة في أذنه، ويرطن مع زملائه الأطباء بلغة غير لغة كفر الدكر.. يومها لم يمهله الناس، الذين كانوا حاضرين يستمعون لحديثه، وطفقوا يسخرون منه ومن رؤيته، وقال أحدهم:

ـ تلاقيك ماكنتش متغطي كويس يا وله!

وسخر آخر:

ـ انتَ متأكد أنك شوفت بالطو أبيض، مش يمكن تكون شوفت حمارة شيخ الخفر، وفكرتها الوله ابن أخوك؟!

وسأله ثالث بلهجة أقل سخرية، وأكثر ادعاء بالحكمة والمعرفة، وهو يضع يده حول ذقنه، ويُضيّق عينيه:

ـ إزاي هيخش كلية الحكما وهو في مدرسة الزراعة؟

هزّ دسوقي رأسه رافضًا ومستنكرًا وهازئًا من أحاديثهم، التي بدت له شديدة الجهالة، وقال:

ـ لما انتوا آخركوا تتربطوا في زريبة العمدة.. بتتحدتوا ليه في اللي ملكوش فيه، إما صحيح عالم بهايم.. مش عارفين أيتها حاجة، وبيتحدتوا وخلاص.. مدرسة الزراعة بطلع حكما زي غيرها من المدارس!

ثم مال على واحد لم يشارك في الحوار، وظل مستمعًا لنهايته، وسأله:

ـ مش كده يا ولا؟

أجابه وهو يهزّ كتفيه ويغلق إحدى عينيه، بينما الأخرى مفتوحة في بلاهة:

ـ وآني إيش عرفني.. تكونشي أمي اللـه يرحمها كانت دخلت مدرسة الزراعة دي، ولا يمكن أبويا هو راخر كان حكيم.. ياجدع انتَ وهو، فضوكوا سيرة، وقوموا كل حي يشوف مصالحه!

ووصل رجب وحديثهم يلفظ أنفاسه الأخيرة، فجلس مستربعًا بينما هم يهمون بالرحيل، وأشار إليهم أن يقعدوا، وسأله حمودة الحمارة:

ـ حق يا وله مدرسة الزراعة بتودي كلية الحكما؟

ضحك، وهو يرمق دسوقي الذي احمرّ وجهه خجلًا وغيظًا، وأجابه:

ـ مين الحمار اللي بيقولك كده؟

أشار الرجل ناحية ابن الدكر، الذي انتصب واقفًا وهمّ بالفتك بهما، لكنهم أمسكوا به وأقعدوه ثانية، وأردف رجب:

ـ مدرسة الزراعة بتلم العيال الساقطة.

صاح فيه دسوقي زاعقًا:

ـ ما تلم نفسك يا جدع.. إلهي تسقط في البير الكبير، ومانجيبك منه إلا وانتَ رمّة!

لم يُعر الكلاف حديثه الساخط اعتبارًا، أو تظاهر بذلك، وبدا على هيئته غرور وصلف غير معهود، وقال:

ـ إنما المدرسة اللي المحروسة الضاكتورة بنتي ـ وأشار مزهوًا إلى نفسه بيده، ما أصاب ابن الدكر والآخرون بالضيق ـ اتخرجت منها من سنتين، وكانت الأولى على العبّ كله، هي اللي

بتطلع الحكما والأفندية المتنورين!
تقلصت عضلات وجه دسوقي من الغضب، وقال مكرمشًا جبينه:
ـ مين قالك كده يا أبو العريف؟وحياة النبي انتَ آخرك تعلف جاموسة، انتَ وبنتك اللي نجحت بالغشَ!
ـ هه، اسمها حضرة الضاكتورة نفيسة رجب، يافلاح يا أجرب، بكره تيجي حدايا تتحايل عليا عشان أخليها تكشف عليك.. يلا كله بثوابه!
ـ آني ياكلاف الغبرة، ياللي مش معروف لك أهل ولا عيلة!
أرجع رأسه إلى الخلف، ورفع حاجبيه، وقال متحديًا بلهجة واثقة:
ـ كلاف كلاف.. مش أحسن من اللي شورتها، تقوله يمين يبقى يمين، وشمال يبقى شمال؟!
احمرّ وجهه من الخجل الممتزج بالغضب، وقال محاولًا التماسك:
ـ هه، الانصاص قامت والقوالب نامت.. بقى الكلاف عايز يعمل راسه براس دسوقي الدكر!
أشاح بيده ناحيته مقطبًا جبينه ومضيقًا عينيه، وصاح:
ـ يا عم روح اتغطى ونام بقى، بلا دكر بلا نتاية، احنا مش بناخد منكم إلا الكلام وخلاص!
انتفض واقفًا، وعيناه تنطقان شرًا وغضبًا وحنقًا، وهمّ بأن يفتك به، بعدما تجاوز أبو الدكتورة كل الخطوط المحرمة، وسخر من قدس الأقداس، بيد أن الحاضرين وقفوا حائلًا وحائطًا منيعًا، لئلا تصل يداه إلى رجب الذي ظل يتبجح ويسخر من الدكاروة، حتى الدكر الكبير نفسه لم ينجُ من لسانه الزالف.

٩

يومئذ عاد إلى غيطه، وطلب من ابن أخيه وهو يتميز من الغيظ والغضب، أن يرد على المشككين وأولهم الكلاف، الذي يمشي في البلد رافعًا رأسه، وعاوجًا طاقيته الصوف الرثة المقطعة، كأنه جاب الذئب من ذيله، أو أنه من أحفاد أحد أمراء الأندلس، مثل آل الدكر، ويردّد بصوت عالٍ «متفشخرًا»، لم يظهر عليه قبل ذلك:
ـ آني رجب.. أبو حضرة الضاكتورة نفيسة على سن ورمح!
ويهمس للمقربين منه أن رأسه باتت برأس جناب العمدة، فلقد أنجب هو الآخر دكتورة مثل البيه ابنه..
وأقسم بسيوني لعمه أنه سيجعله يرفع رأسه عاليًا، في العبّ كله وليس في الكفر، الذي امتلأ بأناس جاحدين كارهين لماضي عائلة الدكر العريق، وتلك كما أنبأهما من قبل أحد الدروايش، علامة كبرى من أمارات الساعة..
يومئذ كانا في البندر، و«حوّدا» لزيارة ضريح أحد الأولياء، فهمس درويش كان موجودًا هناك في أذنيهما هاتفًا:
ـ لاتحزن يا ولدي أنت وعمك.. اللـه يرحمه الدكر الكبير!
استبد بهما الاستغراب والتعجب، وسألا في نفس واحد:
ـ عرفت منين؟!
أشاح عنهما بوجهه، وهتف قبل أن تبتلعه الحشود المتجمعة حول الضريح:
ـ مدد يا سيدي الدكر.. مدد!

تبعاه وسط الحشود، وأمسكا بذراعه بلهفة، واستحلفاه أن ينتشلهما من صحراء التيه، التي ألقاهما فيها، وقال دسوقي متوسلًا:
ـ عرفت منين؟
أجاب بلهجة الزهّاد:
ـ كله بأمره يا أولاد الدكر.. اوعوا تاخدوا على خاطركوا لو حد اتريق عليكوا ولا على جدكوا.
ثم صمت للحظات، وطفق يهزّ رأسه وشعره الأشعث الذي لم يُحلق منذ سنين، وتوكأ على عصاه، وهتف وهو ينصرف عنهما، بصوت خارج من أعماقه:
ـ كلنا رايحين.. محدش قاعد.. يارب هوّن يارب هوّن.. القيامة هتقوم قريب.. خلاص الدكر راح وعياله بيقلّوا، وبلده اتملت بخلق بيسخروا منه.. يارب هوّن.. مدد يا ست أم هاشم مدد!
ولم يفلحا في الحصول على مايروي ظمأهما من المعرفة من هذا الدرويش، الذي غرق عن آخره وسط الناس، واختفى عن أعينهما.. وعادا إلى الكفر ينذران أهلها من يوم الحساب الذي بات قريبًا، ومن النار التي أُعدّت لهم في جهنم وبئس المصير.. بيد أن أحدًا لم يرتدع، وإن كان من الأولى على فُتنة زوجته أن تكون من طلائع المرتدعين من ذلك النذير، لكنها كغيرها من أهل البلد، كذّبوا الرجل وابن أخيه، وصاروا يسخرون منهما في كل مكان وفي كل حين.. فكان جواب آل الدكر أن تبًا لقوم يستهزئون من جدهم المؤسس العظيم، ومن أحفاده من بعده..
لكن بسيوني لم يفِ بوعده الذي قطعه لعمه، وصار يرسب أكثر مما ينجح، وأصاب الغمّ والهمّ الرجل.. البنت نفيسة بنت رجب الكلاف وبخيتة المقشفة، دخلت معه رأسًا برأس المدرسة، وتخرجت لتوها من كلية الطب، بينما هو مازال عاجزًا عن تخطي شهادة الثانوية الزراعية، الولد ذو عقل فذّ نابه، لابد أن أحد الأوغاد، من الذين يملأهم الحقد والغلّ من عائلته، أراد الانتقام من آخر دكر، وصنع له عملًا، أو أن إحداهن ممن يمتلأن غيرة من أمه نبوية أرادت الانتقام منها، وأن ترد لها الصاع صاعين، وسقت الولد عملًا لكي لا يصير له شأنًا عظيمًا، مثلما تنبأت له العرافة ذات يوم، أو كما رأى هو في منامه..
اصطحب ابن أخيه واختلف إلى عشة الطائر، وظل واقفًا من وقت طلوع الشمس حتى كادت تغرب، ليحصل من سيدنا على إذن بالدخول، فالرجل كان مشغولًا وغارقًا في خدمة الناس، خاصة النسوان اللاتي يتوافدن إليه من كل حدب وصوب، لدرجة يقال والله أعلم، أن صيته قد تجاوز حدود الوطن، وصارت النسوان اللائي يبحثن عن الإنجاب، من تلك البلاد البعيدة، يفدن إليه وكلهن أمل أن يأخذ بأيديهن، ويجد حلًا لهن.. كان الله في عون سيدنا، مادام كان هو في عون عباده..
لما خرجت إحداهن، كان جذعها يتمايل، ذات اليمين وذات الشمال، وبدا خصرها النحيل وأردافها المتناسقة وهي تحكم الطرحة فوق رأسها، وتوزع النظرات، بعينيها السوداوين الضاحكتين، فانخلع قلب الرجل وابن أخيه من نظراتها، وغرقا في أوهام لم ينتشلهما منها غير صوت سيدنا ينادي عليهما، أن ادخلا، فولجا العشة بقلب حزين، ودسوقي ينعي بخته الذي أوقعه في براثن امرأة لايفرقها عن الرجال سوى اسمها، وحاسدًا الطائر الذي تتوافد عليه النسوان «الحقيقية» من كل مكان..
قعدا على الأرض، قبالة سيدنا الذي كان يجلس فوق أريكته الفسيحة..
ـ جاي ليه يابن الدكر؟

تأتأ دسوقي، وأردف الطائر:
ـ الواد مش فالح في المدارس.
هتف الاثنان:
ـ مدد يا سيدنا الطاير.. مدد!
ولم يسكتا إلا حينما أشار إليهما بالصمت، وقال بصوت مرعب، كعويل الذئاب، وناظراه يرمقان سقف العشة، ورأسه تهتزّ، وكذلك جسده الضخم:
ـ آه ياغلب الدكر الكبير وعيلته، العين صابت، ومفيش منجي.. الواد معموله عمل، غير اللي اتعمل لجده الكبير.
أصابهما الوجم والكدر والحزن والخوف، وقال دسوقي متوسلًا:
ـ واحنا جايين واقعين في عرضك يا مولانا!
هزّ رأسه في ثقة:
ـ كله بإذنه..
ـ الواد رايد يبقى ضاكتور يا سيدنا!
جحظت عينا الطائر من الاستغراب، وقال:
ـ ضاكتور ايه وهو أغبى من حمارة الملط؟ ماتقول كلام معقول يا بن الدكر!
طأطأ العم رأسه خجلًا، لكن بسيوني أعلن في تحدٍ:
ـ إيوه يا سيدنا، لما هخلص الدبلون هبقى ضاكتور قد الدنيا، وهفتح مستوصف في كفر الدكر.. اشمعنى نفيسة بنت رجب الكلاف!
امتعض سيدنا من حديث الولد، وطفق يرمقه بنظرات ساخرة ساخطة، وصاح:
ـ مش لما تبقى تاخد الدبلون الأول!
أمسك دسوقي في لفظة «الدبلون» التي نطقها الطائر، وقال متوسلًا:
ـ إيوه.. واقع في عرضك اعمله حاجة تفك العمل.. وتخليه ياخد الدبلون بقى!
وانصرفا من العشة وقد صنع لهما حجابًا يضعه تحت مخدع الولد، حتى ينتهي من الامتحانات، ليعطّل مفعول السحر، الذي صنعته امرأة يملأها الحقد والحسد منه ومن عائلته، هكذا قال لهما، دون أن يصرح باسمها، فالأسياد دائمًا يطلبون منه ألا ينطق بأسماء أصحاب الأعمال، حتى لا تقع فتنة في البلد، وتندلع حرائق لن يقوى أحد على إطفاءها.

١٠

لم تُفني الأيام عشقه لابنة الكلاف، بل أشعلت جذوته في صدر الولد، الذي انشغل قلبه بها منذ رآها أول يوم في الدراسة.. نفيسة البنت الصغيرة، ذات المريلة البيضاء المتسخة بروث البهائم، والعيون المنتفخة الممتلئة «بالعماص»، والوجه النحيل الشاحب، والأنف الصغير الذي يتدلى من فتحتيه مخاط، يسقط فوق شفتها العليا الغليظة، تمسحه بطرف كمها الذي فاض بآثاره، كانت الوحيدة التي تحرص على الاختلاف إلى المدرسة كل صباح، دون أن تزوغ مثل أقرانها الذين كان يتزعمهم ابن الكاتعة، كان العيال يسخرون منها ومن قصر قامتها، ويردّدون خلفها بينما هي عائدة من المدرسة وهم راجعون من الغيط، حيث كانوا «مزوغين»:
ـ السودة الكودة الأوزعة بنت رجب الكلاف بتاع البهايم أهي!

وكانت الصغيرة تبكي وتصرخ وتهدّدهم بحضرة الناظر والمدرسين، لكن لا شيء يردعهم، كان بسيوني يتوسل إلى ديسطي باكيًا أن يكفّ عن سخريته و«تريقته» من البنت، التي كلما بكت كأن السكاكين تُقطّع في قلبه، لم يكن سوى بيومي العبيط القادر على أن يُبعد هؤلاء الأوباش بعيدًا عنها، كانوا حين يرونه هناك تحت شجرة العمدة في طريق عودتهم، «يُحوّدون» عنده، ويقعدون حوله، يستمعون لحكاياته التي لا تنتهي مع العفاريت، بينما الولد بسيوني يمضي في سبيله، تاركًا متعة الجلوس مع بيومي العبيط، وإشباع الفضول بحكاياته، ليمشي خلف نفيسة، التي كانت ترفض أن يُحدّثها أحد، رغم محاولاته الكثيرة التي ذهبت جميعها سدى..

لم يرمِ المنديل، ولن يرفع الراية البيضاء، مازال مصرًا على الزواج منها، رغم ما كان وما حصل، فالبنت لم تُعطِ له ريقًا، ولم ترمقه يومًا ولو بنظرة خاطفة.. يردّد دسوقي الدكر أن أمها لم تنسَ ما جرى لها من تحت رأس نبوية، وصنعت عملًا للولد حتى يتعلق بابنتها، ويصير «دلدولًا» خلفها، ويرسب في امتحاناته.. كان يمشي مثل سلحفاة في دراسته، بينما بنت الكلاف كانت تجري مثل حصان الدكتور ابن العمدة، إنها خطة خبيثة من بخيتة، لتنتقم من أمه.. الولد كان فذًّا في دراسته في البندر، وكان المدرسون هناك يحلفون بحياته، كانوا يذرفون الدموع الحارة لحظة علموا أن عمه سوف يحرمهم منه ويصطحبه معه إلى الريف، يومئذ لولا الملامة لجثا ناظر المدرسة على ركبتيه، وقبّل نعليه، ليتركه ويعود بدونه إلى كفر الدكر، لكن سهم اللـه قد نفذ، وعاد الولد إلى البلد، والتحق بمدرستها، وصار خائبًا، إنها المؤامرة ليس إلا، الكل متآمرون؛ حضرة الناظر، المدرسون، بخيتة، ورجب نفسه، الذي يبدو أنه لم ينسَ هو الآخر ثأره من المرحوم شعبان، وقاده حقده الأسود للانتقام من ابنه المسكين.

١١

كان حبه لها ينهش في قلبه، كالأسود الجارحة المنقضة على فريستها، كان حبًا من طرف واحد، أطاح بعقله، وجعله يمشي في شوارع البلد كبيومي العبيط، يبحث عنها.. اللعنة، لقد فعلتها بخيتة وسقت الولد عملًا جعله يفقد عقله، ويهيم ببنتها الدميمة، التي تتقزز الكلاب الجربانة أن ترمقها، لم تنسَ المرأة ثأرها من نبوية، رغم مرور تلك السنون.. الأيام وحدها كفيلة أن تميت ما وقر في الرأس من ذكريات سيئة، تدهسها تحت حذائها الذي لا يرحم كبيرًا ولا صغيرًا، لكنها المرأة، من المستحيل أن تنسيها الأيام ما حصل لها من إهانات، ولو مرّ عليها قرون، حتى في القبر تبقى ذكرياتها السيئة مدفونة معها، تذكّرها بما حصل لها، وربما لا يجد ساكنو القبور الراحة في مقابرهم، حيث تنشب المعارك الحامية الوطيس بين النسوان المتوفيات، يصرخن ويمسكن شعور بعضهن، وتُذكّر إحداهن خصمتها بما فعلته في حقها، وتندلع معارك لا تفلح الملائكة المعينة لحراسة المقابر أن تفضّها.. إذا ذهبت للقاء إحداهن، فاجعل أسلحتك كلها على أهبة الاستعداد، فأنت يا ولدي المسكين تُحادث حية، ملمسها ناعم، لكن السم الزعاف يملأ فاها، هؤلاء النسوان يا ابن المرحوم شعبان لايقدر عليهن إلا القدرة نفسها، احرص منهن، واعلم وأنت تحادث إحداهن أنك تحادث شيطانًا اتخذ صورة امرأة جميلة ماكرة، تدّعي المسكنة، فإذا قدرت عليك كان اللـه بك رحيمًا.. اللـه اللـه وأولياؤه الصالحون عليهن وعلى ما يأتي من خلفهن.. كانت تلك نصيحة دسوقي لابن أخيه ذات ظهيرة بينما هما قاعدان تحت ظل شجرة في الغيط.. يومئذ أخذ الولد الكلام وألقاه في الترعة الكبيرة، مدّعيًا أنه صورة مختلفة عن عمه الخانع الخاضع لزوجته والعياذ باللـه فُتنة،

التي من سابع المستحيلات أن يتعثر في امرأة مثلها في دمامتها ولسانها الطويل الباطش، لقد تخلّق الشيطان بصورة واحدة، وسوف يصير رعبًا وفزعًا عظيمًا في الأرض، لو خُلقت امرأة ثانية مثلها، ففُتنة واحدة في هذا العالم تكفي لتملأه شرًا..

لم يسمع للنصيحة، وجرى ما جرى للمسكين، صار يمشي في شوارع البلد وينتظر في الطرقات الدكتورة نفيسة رجب الكلاف وهي عائدة من البندر في أجازة، تزور أمها وأباها وأخواتها الصغار، كان ينادي عليها بصوت ضعيف منكسر، وهو يسعى خلفها، بينما هي تحثّ الخطى متجهة ناحية دار أبيها بجوار زريبة مواشي العمدة.. الويل للدكر الكبير وأحفاده من بعده، آه يازمن، ماذا فعل الدكاروة حتى يمشى آخرهم خلف بنت الكلاف، كالشحاذ الذي يطلب منها إلحافًا، وترمقه هي بنظرات متقززة، وتقطب جبينها، وترفع نظارتها الطبية، وتصرخ في وجهه، بصوت أعذبه ورفّعه عزّ البندر، وتُشيح بيدها، فيبدو ساعدها أبيض خاليًا من الشعر الأسود الذي كان يكسوه قبل السفر إلى هناك، حتى النسوان الذين كن ينقين الغلت من أرض الأرز لم يتعرفن عليها إلا حينما كان الولد بسيوني ـ أخذ اللـه بيده وعافاه ـ يمشي خلفها.. انتصبت إحداهن بينما كانت الباقيات محنيات الظهر، ورمقت السكة العمومية، وقالت وهي تُطوّح ذراعها في الهواء، لترمي الغلت خارج حدود أرض الأرز:

ـ ياحلاوة يا ناس، على البندر واللي بيجي من حداه، شوفي يا مفضوحة انتِ وهي!

شرعن جميعًا وشخصت أعينهن ناحية السكة العمومية، وشهقت أخرى شهقة عالية، وسألت وهي تضع يدها حول ذقنها:

ـ مين دي ياختي؟ والنبي ماعرفتها، تقولشي السفيرة عزيزة!

ضحكت ثالثة وهي تزغدها في جانبها، وهمست ساخرة:

ـ لا السفيرة نفيسة ياختي، اوعي الحاجة بخيتة تسمع كلامك، لا هتاخد على خاطرها، واحنا مش قد زعل أم حضرة الضاكتورة!

هزت التي بدأت الحديث رأسها، وقالت وهي تندب حظها العاثر:

ـ ياختي يدي الحلق للي بلا ودان، بخيتة!

قرصتها جارتها في فخذها، وهتفت بلهجة تأنيب وعتاب:

ـ كان زمانها بنتك يا مزغودة، بس انتِ اتبطرتي على النعمة.. خدي رجب، دا جدع غلبان ومنكسر، لا حيلته أم ولا أخت يسوّدوا عليك عيشتك.. وانتِ بكل ألاطة بقيتِ تردي: لأ دا أسود، شكل قعر الحلة، مش هتجوز إلا جدع من عيلة الدكر، وأهو جدعان عيلة الدكر انقرضوا كأن الفرّة مسكتهم كلهم.. وانتِ قاعدة زي خيبتها، لا طولتِ بلح الشام ولا عنب اليمن!

قطبت المرأة حاجبيها، ودمعت عيناها، وهتفت بصوت مخنوق، يحاول إبداء تماسكًا يحفظ ماء وجهها أمام أقرانها من النسوان:

ـ وايه لازمته الحديت الماسخ ديه دلوقتي، ما كل واحدة تخليها في حالها!

أرجعت محدثتها رأسها إلى الوراء وقالت معاتبة:

ـ هو آني دوستلك على طرف؟ ولا الحق عليا؟ يلا أهو طلع من نصيب البت الغلبانة!

ثم صمتت برهة، كانت تراقب فيها خطوات نفيسة وهي عائدة إلى دار أبوها، وأردفت بعدما اطمأنت أن النسوان، اللائي كان جلهن من الفتيات صغار السن، ينصتن لحديثها:

ـ اسمعي يابت انتِ وهي، حاكم الجواز قسمة ونصيب، مش بالحلاوة ولا بالوحاشة، البت بخيتة دي كانت وحشة قوي، لدرجة إن محدش خبط على بابها من جدعان البلد، ولا حتى الجدعان اللي كانوا بيجوا من بره، كانوا مابيصدقوا يخرجوا من دارها، وأمك في العشة ولا طارت!
تهالكت النسوان من الضحك، ووصل صوتهن إلى مسامع المتيم الولهان ابن الدكر الذي كان يمشي خلف محبوبته، فشعر أنهن يسخرن منه، لكنه مضى في طريقه، غير عابئ بهن.. وعاودت المرأة حديثها:
ـ لولا الكلاف وعملته السودا، كان زمانها لسه قاعدة في أرابيز أمها!
ثم تنهدت وأردفت داعية:
ـ يجعل الستر نصيبكم في الدنيا والآخرة.. ويرزقكم طوابير عرسان يكسروا عليكم البيبان!
انتصبت فتاة على «وش زواج»، بعينين ضاحكتين وثغر مبتسم، وهتفت بصوت ناعم غير معهود في كفر الدكر، حيث لا يفرق بين الرجال والنسوان فيها غير الشارب للرجال:
ـ يسمع من بقك ربنا يا خالة.. على الأقل ربنا يرحمنا من الشقا في الأراضي!
وقالت أخرى وهي تحرك راحتها بالقرب من فيها:
ـ مادرتوش يا مزغودة منك ليها؟
فغرن أفواههن من سؤالها الذي أشعل جذوة الفضول لديهن، وهتفن في نفس واحد:
ـ خير يامفضوحة؟
أجابت وهي تضحك:
ـ المحروسة أم الست الضاكتورة، لما خولي أنفار العمدة راح يوصي عليها، عشان متتأخرشي في السراح.. قامت الغندورة حطت ايديها في جنبها، وقالت وهي بتتهز زي الغوازي قدامه، ماكنش يتعذر ياسي الأفندي، سألها وهو مستغرب:ليه يابت؟ ردت عليه ببجاحة بعينين تندب فيها رصاصة:بت ايه يا جدع انتَ؟انتَ مش عارف بتحدت مين؟ آني الحاجة بخيتة على سن ورمح أم حضرة الضاكتورة نفيسة ربنا يرجعهالي بالسلامة.. فنزل الخولي من على حماره وشخط فيها: جبت منين القدرة دي يا بخيتة؟ دي ركبك كانت بتسيب لما كنت بشخط فيكِ، اللـه يرحم أيام زمان!
ردت وهي بتقفل باب دارها في وش الجدع:كان زمان وجبر يا اخويا، إما عجيبة على العالم الكسيفة، عايزين أم ضاكتورة قد الدنيا، تسرح في الغيط وتوطي وسط النسوان الحَوَش!
ولما انتهت المرأة من روايتها التي رواها لها خولي الأنفار شخصيًا، رفعت الفتيات أكفهن إلى أعلى، وهن وسط نباتات الأرز الخضراء، وأقدامهن الحافية غائصة حتى منتصف سيقانهن في الطين، وهتفن وهن يرمقن السماء برقاب مشرئبة وعيون نصف مفتوحة من أثر أشعة الشمس:
ـ يارب اوعدنا!
وأكملت أخرى وهي توشك على البكاء، وترفع ناظريها صوب السماء، ومازالت رافعة كفيها:
ـ آه والنبي حبيبك يا رب.. دا آني غلبانة قوي، سايقة عليك سيدي أبو داوود الطاير، عايزة اتستت واتهنى واقعد في الدار زي بخيتة، مش كبيرة عليك، والنبي الحر كال من جتتي، ومعدتش غادرة استحمل!
لكن امرأة تبدو في سن جدتهن قالت بلهجة بائسة يائسة:
ـ والنبي ماحد سمعلك لو قعدتي تدني من هنا لبكره!

ثم صمتت قليلًا، كانت ترمق وجوههن المنكفأة على شتلات الأرز.. وأردفت وهي تبتسم ابتسامة ساخرة تبدو مواسية:
ـ اتكتب على قورتنا الشقا والغلب من واحنا في بطن أمهاتنا.
ساد الصمت وخيمت غمامة من الكآبة غير مألوفة فوقهن، وعاودت المرأة المسنة حديثها، كأنها لاقت فرصة تفضفض فيها:
ـ آني قدامكوا أهو، خلاص رجلي والقبر، وبسرح وبشقى في الغيطان، ولسه ربنا ما تابش عليا!
وانفطرت في البكاء، وانتحبن متأثرات بها ومشفقات عليها وهن يرددن بصوت مخنوق هزمه البكاء:
ـ يا عيني على حالنا وحالك!
ثم زفرت الفتاة ذات الصوت الناعم الرقيق، وقالت بلهجة يائسة والدموع تنساب على وجنتيها الحمراوين من أثر الشمس، وهي تربت على كتف المرأة العجوز:
ـ ماتزعليش يا خالة.. الظاهر احنا جينا الدنيا غلط!
صارت العجوز كأنها طفل يبكي ينتظر من الكبار أن يربتوا عليه ويهدهدوه، كانت تنتحب وتمسح دموعها بطرف كمها، وهي تدعو اللـه أن تهدهدها الأيام وهي مازالت على ظهر الأرض، لكنها أطرقت ثانية، وهزّت رأسها يائسة، وقد استسلمت لمصيرها، فيبدو أنها لن ترى في حياتها يومًا حلوًا، حتى بعد موتها، ستهوي إلى جهنم وبئس المصير، هكذا كان مولانا الشيخ محروس يخطب بصوته الجهوري مسمعًا النسوان وهن يعملن في الغيطان، تحت أشعة شمس لا ترحم، كان يهددهن بنار تشوي جلودهن، وكانت النسوة يرددن بلهجة ساخرة يائسة:
ـ يعني مش بكفاية علينا الشمس ونارها ياشيخ محروس!
كان يصيح وهو يعتلي المنبر شاخطًا، وينذر بإصبعه النسوان اللاتي ليس أمامهن من مصير سوى جهنم.. فالنار ـ بحسب الشيخ محروس ـ أعدت لهن ومن اتبعهن من الرجال..
الويل لنسوان كفر الدكر، ولدن وقذفن في سعير الحياة الذي لايرحم، وسيمتن وسوف يُلقى بهن في جهنم وبئس المصير..

١٢

كان يحذّره من النسوان ومكرهن الذي قهر الشيطان، قال له يومًا وهما يحرثان الأرض، ويرسل عينيه ذات اليمين وذات الشمال، مراقبًا السكة الوسطانية والقادمين منها، والمصارف وأولئك الذين يتخذونها طريقًا أقصر للوصول إلى غيطانهم:
ـ اوعاك تآمن في يوم يا وله يا بسيوني لصنف النسوان، ولا أي نتاية على وجه الأرض!
طوّح الولد فأسه إلى أعلى ثم هوى بها على الأرض، وسأل عمه لاهثًا، وهو يكتم ضحكه:
ـ ليه يا ابا؟
أجابه بلهجة أسفة حزينة، وهو يضع إحدى يديه في خصره من أثر التعب والأخرى مستندة على فأسه:
ـ قطيعة تقطع تشيل ما تخلي، دول سبب البلاوي كلها، اللي جرى للدكاروة كان من تحت راسهم!
سأله وعيناه الماكرتان مطرقتان إلى الأرض، مدعيًا الانشغال:
ـ النسوان كلها يا ابا ولا مرات عمي بس؟

ارتبك من السؤال المباغت، وتظاهر بالسعال، لاعنًا الجوزة وشربها، وتفكّر في أمره للحظات كان يرمق فيها ابن أخيه المنكفئ على فأسه، وجال في خاطره هاجس، ماذا لو أخذ ما قيل على لسانه، ونقله لفُتنة؟ سوف تصير حياته أسود من وجه كلاف العمدة، وازدرد ريقه وقال بصوت خفيض لا يريد الخروج من حلقه:

ـ إلا الولية مراتي.. دي ولا في الدنيا كلها..

ثم صمت برهة وضغطت ضروسه على بعضها، واتسع فمه، وبدا وجهه كالمتفزز الذي يوشك أن يتقيأ.. وأردف:

ـ ربنا يطولي في عمرها!

ضحك الفتى وهو مازال مطرق الرأس، فجحظت عينا عمه غضبًا وشخط فيه:

ـ فاشخ ضبك ليه يا بن نبوية؟

كان يناديه حين تكون غزالته رائقة ومزاجه عالٍ «بابن الدكر»وقد يزيده «بالضاكتور».. وحين يكون غاضبًا منه «بابن نبوية»

تميّز الولد من الغيظ وهو يسمع عمه يناديه بذلك الاسم الذي يكره، وقال وهو يرمي فأسه أرضًا ويهمّ بالركض باكيًا:

ـ طيب والله ماني قاعدلك فيها!

واختفى في لمح البصر، كأنه فص ملح وذاب، وسط زعيق دسوقي مهددًا:

ـ والله يا ابن نبوية لقاطع خبرك!

ولما دخل الليل، انتظر عودة ابن أخيه إلى الدار، ولم يأتِ، فخرج يبحث عنه، ووجده هناك عند دكان الكاتعة، كان يتعفرت مع زنوبة ابنة بيومي العبيط، غير عابئ بالقلق الذي كاد يفتك بقلبه، وشخط فيه وهو يقترب منه:

ـ خد ياله!

لم يكمل شخيطه وتهديده، حتى أمسكت زنوبة ابنة العفاريت بذراع الولد وغرقا في الظلام، ضرب كفًا بكف، وصاح يائسًا:

ـ عليه العوض ومنه العوض.. ضاع أملك يا جد!

قهقهقت الكاتعة وقالت وهي تنفث سيجارة:

ـ هنعمل ايه يا دسوقي يا اخويا.. لولا سيدنا الطاير ما كنت قعّدت البت، بنت العفاريت دي في داري!

ثم زفرت وأردفت:

ـ يلا نصيبنا كده ومحدش بيهرب من نصيبه!

دنا من شباك الدكان حيث تقف خلفه، وقال:

ـ اعملي معروف وابعديها عن الوله!

ردت ضاحكة حتى اهتزّ صدرها المكتنز بصوت لا ينقصه الدلع والإثارة:

ـ ياريت كنت اقدر، دي آني بحبسها من هنا، واقول هتتخمد، وبقفل البيبان، وشوية أروح أشقر عليها ألاقيها خرجت من الحيطة.. بنت عفاريت!

أولج رأسه داخل الدكان، وعينيه متسمرتان على صدرها الذي كلما اهتزّ اشتعلت في نفسه حرائق الرغبة، وأنفاسه الساخنة كانت تلفح رقبتها، كأن صوتها وصدرها خمرًا شرب منه حتى ثمل

وصار لا يعي رأسًا من قدم.. بينما كانت تتابعه بنظرات واثقة مبتسمة، كسادٍ يتلذذ برؤية خصمه يتألم.. وغمغم بصوت يشبه صوت بيومي العبيط وهو يؤمئ برأسه إلى داخل دارها، ويضع طرف جلبابه في فيه:

ـ يلا يابت!

انفجرت في الضحك، وقالت:

ـ هتجيبلي دكرين بط؟

هزّ رأسه سريعًا بعلامة القبول، فأردفت:

ـ بس لو فُتنة شمت خبر، هتقطع خبرك من العبّ كله!

فأرخى جلبابه، وأخرج رأسه من الشباك، عائدًا إلى الخلف، وارتدّ وجهه عابسًا، وهزّ رأسه كأنه يطرد أفكارًا شريرة غريبة، وقال محاولًا تغيير الموضوع بالعودة إلى سابقه:

ـ تعرفيش الاقي الواد بسيوني فين؟

أجابت وقد تهالكت من الضحك وهي ترمق وجهه، والدم يهرب منه من أثر الخوف:

ـ زمان زنوبة خدته وراحت تشقر على أمها عند القرافة!

انخلع فؤاده على ابن أخيه آخر دكر، وهو يراه يمشي خلف ابنة بيومي العبيط وسماسم الجنية.. وضرب كفًا بكف وعاد إلى داره مهمومًا.. كانت فُتنة واقفة فوق عتبة الدار في انتظاره، وكتفها مستند على قائم الباب، بينما جسدها يسده في وجهه، وصرخت وهي واضعة يديها في خصرها:

ـ كنت فين يا سي المحروس؟!

أجابها بصوت خفيض، وهو واقف أمامها مطرق الرأس كالتلميذ الخائب:

ـ كنت بدور على بسيوني!

زادت حدة صراخها:

ـ حدا الكاتعة؟!

أجابها وهو يرمق جانبي الشارع:

ـ مارحتش حداها، وحياة فُتنة عندي، إلا لاجل أجيب سيجارة أعفرها واحط فيها همي بسبب عمايل الوله!

احمرّت عيناها من الغضب، وهي تقرب اللمبة الكشف أمام وجهها، فبدا أكثر إثارة للرعب، وزعقت:

ـ داك حطيط مخفي انتَ وابن اخوك وعيلة الدكر من السلسال، كنت بتهبب ايه هناك يا ناقص؟!

ـ وسيدي الطاير ما عملت حاجة!

ـ كل يوم أعد دكورة البط ألاقيهم ناقصين، أتاري الشملول اسم النبي حارسه عاملي فيها عجل العمدة، وبيتسحب في أنصاص الليالي لاجل يقزح على الحريم!

ثم صرخت بصوت أخرج كل الناس من بيوتهم، وهي تمزق جلبابها من عند جيدها:

ـ اشهدوا يا خلق.. اشهدوا يا اهل كفر الدكر.. الدلعدي جوزي بقى له سنين من عمر البت الصغيرة ماهوبش ناحيتي!

ثم قعدت واستربعت أمام الدار والناس من حولها، وندبت:

ـ يا ميلة بختك يا فُتنة، ياحظك الاسود يابنت حضرة شيخ الغفر.. وقعت في أوبة ابن الدكر اللي عامل زي أجداده، ديله نجس!

ثم صمتت قليلًا.. كانت النسوان تربت على كتفها من على بعد، كمن يطبطب على ثور هائج، لا تأمن رد فعله.. وصاحت بصوت عالٍ كأنها تُحدّث نفسها متحسرة وهي تفتح قبضتيها وتغلقهما:
ـ كنت في سكرة ولا كنت في سكرة يابنت الملط؟ عشان توافقي على الحيطة المايلة دي.. آني اللي كان يبقف قدام دار أبويا طوابير العرسان أشكال وألوان، رجالة طول بعرض، إشي عمدة وإشي شيخ خفر، وآني كأني عميت مالقتش إلا ابن الدكر!
غمغم الحاضرون وهم يشيحون وجوههم بعيدًا عنها، وهمس أحدهم لجاره:
ـ احمدي ربنا، لولاشي حمارة أبوكِ، كان زمانك لسه قاعدة في أرابيزه!
وهمست امرأة لجارتها:
ـ والنبي آني لو راجل، وخيروني تتجوزها، ولا تتعلق في حبل المشنقة، هقولهم:فين المشنقة؟!
وأتى الملط على عجل، ممتطيًا حمارته التي أصابها الوهن والعجز، وشخط في الخلق:
ـ انتوا واقفين هنا ليه يا ولاد الكلب منك لها؟
لم ينتهِ من شخيطه حتى هرول الناس في الشوارع، ودخلوا بيوتهم.. كان الرجل يتزاحم من أثر الخوف مع امرأته في الولوج من باب داره، وكانا ينحشران فيه.. وانتصبت ابنته واقفة، ودلفت داخل دارها مسرعة ولحقها زوجها..

الفصل الخامس

١

ماتزال يد غريب الملط، الذي ولج عتبات الستين من العمر، قابضة على مقاليد الأمور في كفر الدكر، فأهل البلد يخافونه ويعملون له ألف حساب.. رغم ماشاب الكفر من تطورات وتغيرات طرأت عليه، وبخاصة بعد سطوع نجم الحاج الغتت، الذي أنقذ الكفر من هلاك مبين، وأصبح حيلته من الرجال أضعاف ما لدى العمدة والملط من خفر..

الهيبة والخوف لم يعدا ملكًا حصريًا له، أمسى له شريك يتقاسمهما معه.. بيد أنه من يوم ظهور الغتت على الساحة، رأى البعض أنه لم يعد لغريب حظ في البلد، فالرجل صار من يمتلك السطوة والنفوذ، هكذا التمعت الأفكار في عيونهم، وتوهجت رؤوسهم فرحًا لذلك، فهم يرون شيخ الخفر ظالمًا مستبدًا، لايعرف قلبه مكانًا للرحمة.. بينما الحاج وإن كان سارقًا يغطس في الظلام ليسطو على ممتلكات الناس، إلا أنه وللحق وللأمانة وللتاريخ؛ لم يُضبط يومًا بسرقة من الكفر، غير تلك الحادثة الشهيرة يوم أغرته الكاتعة وضحكت على عقله، واستغلت نصاعة بياض قلبه، وأغوته بسرقة ذكر البط إياه.. من يومها، وقصّر يده ناحية البلد، وأطالها في البلاد الأخرى.. لن تنسى له الأجيال الحالية ولا الآتية ما صنعه لينقذهم من فناء محقق، يوم اقتحم القحط البلد كالفيضان، وصار لا سيدنا الطاير، الذي يبدو أنه كان غاضبًا من البلد، ولا غيره قادر أن ينقذنا، كانت ظهورنا والحائط، ننتظر الموت الوشيك، وشماتة مؤكدة من كفر أبوعلي الأوغاد، صنّاع المكائد لكفر الدكر..

ثمة من تُتلف رأسه الأفكار الغريبة عن الكفر، غرير لايعرف موازين القوى في البلد، واعتقد أن من حقه أن يرفع رأسه في وجه الملط، الذي ظنّ أنه صار كعود الحطب ليست منه منفعة سوى الحرق، وكان ما جرى له على رؤوس الأشهاد في الغيط..

كان أحد أجرية الملط يروي أرضه، التي تقع بعد أرض أحد هؤلاء الذين امتلأت رؤوسهم بأوهام فارغة، ولعب الشيطان بعقله، وحجب مياه الساقية عن أرض شيخ الخفر، وفتح «حواله»، فلما رأى الأجري المياه تركض في أرض الرجل، طار برج من عقله، وهرول ناحيته، يحذره وينهيه عن فعلته، التي إن لم ينتهِ عنها سيصير مآله مقيمًا في مقابر البلد، وسيكون القاتل مجهولًا كعادة كل قتلة كفر الدكر، بيد أنه ركب رأسه، وسدر في غيه، فحضر الملط ممتطيًا حمارته، وزعق وهو يهمّ بالنزول والخفر من حوله:

ـ هاتولي ابن الكلب ديه!

كان في منتصف أرضه وبجواره امرأته غائصان لنصف سيقانهما في الطين، ورفع رأسه وصاح بعلو صوته متحديًا من بعيد:

ـ ماتشتمش يا جدع انتَ بقولك أهو أحسنلك!

انفجر الغضب كالبركان في صدر الملط، وأشار بيده للخفر أن يأتوا به مقيدًا كالبهيمة ويلقوه تحت أقدامه، ولم يكذب هؤلاء خبرًا، وغاصوا في الطين حتى وصلوا إليه، وقيدوه في السلاسل، وسط صراخ وعويل زوجته، ورموه فوق الجسر، وركله شيخ الخفر بقدميه، وأسقطه في القناة المملوءة بالمياه، وصاح بصوت أرعب خفره أنفسهم:

ـ ابقى اشرب واتكرع يابن شوقية المعمصة!

وصوتت المرأة وشقت جيوبها، وصرخت تطلب النجدة من الناس، الذين وقفوا يمصمصون شفاههم من الحزن والحسرة، ولا مجيب، فلطمت خديها وقالت له مستجدية:
ـ معلشي ياحضرة شيخ الخفر، ابنك وغلط، الراجل هيروح مني فطيس يا ناس.. دا حنا غلابة وحياة سيدنا الطاير، مين اللي هيصرف على عياله اللي لسه زي الكتاكيت الخضرا؟!
تذمر من حديثها، وقطب جبينه غاضبًا، وصاح آمرًا خفره:
ـ ارموا بنت الرافضي دي فوقه عشان تبطل غلبة!
وألقوها فوق زوجها في القناة، ولم ينقذهما إلا توسلات جناب العمدة، الذي كان سارحًا غيطه راكبًا كارتته، ورأى الناس ملتفّة حول المسكين وامرأته، فتنحى به جانبًا، وهمس:
ـ العيال هتموت.. وهنيوح في داهية.. اعمي معيوف.. لو الميكز شم خبي!
فصاح وهو يشير لخفره أن يخرجا المسكينين من القناة:
ـ واللـه يا ولاد الكلب.. لولا جناب العمدة هو اللي غتكم من تحت ايدي!
ثم وجه حديثه للعمدة:
ـ دا الولا بيملح لي رقبته ومش لادد عليه كلامي.. هي القيامة هتقوم ولا ايه يا جدعان.. شكلها قربت!

٢

هناك حيث يصير اللامعقول معقولًا، ويصبح قانون اللامنطق هو السائد، في البلد التي لا يكفّ رجالها عن الزواج من الجنيات، حتى باتت الروابط بين الإنس والجن كتلك التي بين البشر وبعضهم، يسودها الحب والمودة، ويشوبها بعض القلق والتوتر في بعض الأحايين.. كانت ابنة بيومي العبيط وسماسم الجنية، ثمرة لتلك العلاقات بين الطرفين.. زنوبة التي يلفّها كثير من الغموض.. فالبعض ممن لا يؤمنون بقوانين الكفر الخاصة، يطعنون في مصداقية تلك القصة، ويردّدون ـ سامحهم اللـه ـ أنها أكذوبة، مثل الأكاذيب التي يتنفسها أهل البلد، الذين صاروا لايستيطعون العيش من دونها، يتهكم هؤلاء على كفر الدكر، وقوتها الخارقة.. لقد خرّب العلم الذي درسوه في البندر أدمغتهم، أصبحوا يشككون في ثوابتنا، حتى امتدت ألسنة نيران التجاوزات إلى سيدنا الطائر وقدسيته..
حتى البنت نفيسة، طفقت تعوج لسانها، وتحدّث الناس من أطراف منخارها، وتلفظ ألفاظًا أعجمية لايفهمها أبواها.. ذات يوم كانت عائدة في أجازة من جامعتها، وكانت بخيتة بمفردها في انتظارها، وخبطت الدكتورة على الباب، وفتحت الأم، وألقت بنفسها في أحضان ابنتها، التي جعّدت جبينها وانقبضت عضلات وجهها وارتفعت أرنبة أنفها، كأنها على وشك التقيوؤ.. ودلفت الدار وهي ترمقها على مضض، ووضعت يدها تسدّ فتحتى أنفها، كانت رائحة روث مواشي العمدة قد داهمتها عند دخولها.. ضربت حمرة الخجل الممتزج بالغضب والحزن وجه بخيتة القمحي، وانقبض فؤادها وهي ترمق الدكتورة تبتعد عنها بخطوات، وقالت البنت بلسان معوّج لأمها، وهي تودّ الرجوع من حيث أتت:
ـ بنسوار مامي!
جحظت عينا المسكينة الحمراوين، وفغرت فاها، واشتعلت نيران الغضب والحزن في صدرها، ظلت ساهمة صامتة للحظات، ثم انسابت الدموع الحزينة على خديها، وسط نظرات الحيرة

والاستغراب من نفيسة، وصاحت باكية وهي تضرب بكلتا يديها على صدرها بقوة:
ـ بقى دي آخرتها يا بنت قلبي؟ جاية من البندر تتنأوري علي؟!
وأسرعت نحو الباب، وخلعت طرحتها، وبدا شعرها الأشعث، كأن ثمة تنافر وخصام حاد بين كل خصلة وجارتها، وأخذت تصفع صدغيها بكلتا يديها، ورقعت بالصوت الحياني وهي واقفة في الشارع أمام دارها، بينما الذهول والدهشة يضربان عقل ابنتها:
ـ الحقوني يا عالم، غيتوني يا كفر الدكر، الضاكتورة نفيسة جاية من البندر تتمسخر على أمها، يا بختك الاسود يا بخيتة، وآني اللي كنت بقول خلاص يا بت ربنا هيعوضك خير، وهترتاحي انتِ واسم النبي حارسه جوزك، بعد الشقا والتعب، وبنتكوا الضاكتورة هتقف فريحكوا، أتاريها جاية تشتمني!
ثم صمتت للحظات، كانت النسوان يربتن على كتفيها وعلى ظهرها، بينما هي تفترش الأرض، تهيل التراب على رأسها ووجهها، فبدت هيئتها مرعبة، كتلك العفاريت التي كانت نبوية تحكي عنها لبسيوني.. بيد أنها عاودت الصويت وهي ترمق ابنتها التي حلفت مئة يمين أن تغادر الكفر ولاتعود إليه البتّة، لولا تدخل أولاد الحلال الذين وقفوا أمام الباب، حتى لا تتدلى البنت البندر وهي غاضبة، فتغضب منها أختها التي تسكن تحت الأرض:
ـ دي آخرتها يا نفيسة؟!
أصابها الضيق والضجر والغضب من أمها، فهي تمقت أن يناديها أحد بنفيسة، لقد بات هذا الاسم من الماضي الذي لا تود أن يعود، صاروا ينادونها في الجامعة «نوفي».. وواصلت بخيتة ندبها وهي تصرخ بصرخات كالموجات المتعاقبة، وبصوت يعلو مع كل موجة:
ـ يا سوادي.. يا سوادي.. يا سوادي!
وكانت النسوان يربتن على كتفها، يهدئن من روعها، وقالت إحداهن:
ـ متعمليش في نفسك كده يا خايبة، صوتك هيروح يابت، طب خدي نفسك لتروحي فيها!
ثم صرخت أخرى في وجه نفيسة:
ـ الحقي أمك يا ست الضاكتورة.. الولية قلبها هيقف!
وعاودت امرأة الكلاف باكية بصوت مجهد خفيض:
ـ كده يابنتي.. جاية تشتميني وتتمسخري عليا؟ قرفانة مني يا نفيسة، قرفانة من ريحة الجِلّة يابت؟! الجِلّة اللي كانت سبب في علامك.. يا خسارة تعبنا.. يا خسارة تعبك يا رجب.. دا يا حبة عيني بيستخسر في نفسه كل حاجة، وبيقول أهم حاجة الضاكتورة!
ثم صاحت زاعقة بصوتها المبحوح:
ـ دا ابوكِ يابت مفيش في وسطه لباس، ولا في رجله مداس!
كتمت النسوان الضحكات، وأصابهن شعور بالارتياح، فالمرأة في كفر الدكر وإن كانت لاتكره غيرها من النساء، لكنها يعتريها الغضب والضيق حين ترى إحداهن وقد أفلتت من خناق الحياة الذي يحكم قبضته حول رقابهن، وتشعر بالرضا إن علمت أن كلهن في الهم سواء.. ارتدت إحداهن قناع الحكمة وأشارت لنفيسة:
ـ شوفي لها حاجة حلوة من جوا ياست الضاكتورة ترضع بيها قلبها، أصل هيقف منها!
وقالت أخرى مواسية:
ـ دي عين وصابتك ياختي.. والنبي عين مش هايحوشها إلا سيدنا الطاير!

وحملن بخيتة وأدخلنها دارها، ثم فارقنها، وانفطرت ابنتها في البكاء، وقد شعرت بالخزي والعار والفضيحة التي لحقت بها جراء تصرفات أمها، العاجزة عن فهم التطور الذي طرأ على الدكتورة نفيسة، فليس من المعقول أن تحييها بتلك التحايا، التي لا يستخدمها سوى أهل الريف، كيف لطبيبة «قد الدنيا» أن تُحيي أمها «بالعوافي»، وغيرها مما عفى عليه الزمن، وأمسى أهل البندر يتندرون عليه ويسخرون منه..

٣

كفر الدكر التي كان أهله يتباهون ويفتخرون بمؤسسه الدكر الكبير، ويسخرون من كفر أبوعلي، ويذكّرون أهله بماحصل لأجدادهم على يده.. علاقاتهم الاجتماعية ببعضهم سمن على عسل، لا يعكّر صفوها غير بعض الأحداث الطارئة، كغزل جدع طائش لصبية من البلد، وقتئذ يتناسى أهل تلك الفتاة الروابط الاجتماعية التي تربطهم بأهل ذلك الشاب، وتنشب معارك ضارية بينهما، ويصل الأمر إلى دخول نصف المتشاجرين إلى مستشفى البندر، والنصف الآخر إلى مركز الشرطة، فتلك إهانة لا يمكن أن تُغتفر، عجيبة من عجائب الدنيا السبعة، أن يعاكس الشاب ابنة بلده.. ماذا ترك هذا الوغد للغريب؟!

وقد يتدخل العقلاء على الجانبين، ويمنعان نشوب فتنة، تقضي على الأخضر واليابس في البلد، ويحكمون بزواج الولد إياه، والذي لم يحسن أهله تربيته، وخرج على الأعراف والمواثيق، وغازل البنت، وتفوّه بكلام لايصح أن يتفوّه به سوى الأوغاد..

كمثل ذلك المنفلت، الذي اعترض طريق صبية، بينما هي عائدة من سوق الجمعة، وعلى رأسها «سبت» مملوء عن آخره، وطلب منها الوقوف، لكنها تمنعت وصدّته، وهدّدته إذا ما اعترض سبيلها ثانية، سوف ترقع بالصوت الحياني، وتلم عليه كل من في الغيط، ولم يرتدع المجرم، وسدر في غيه، وتتبّع خطواتها، وهي تمشي وذراعها الأيمن يحفظ توازن «السبت»فوق رأسها، وجذعها يتمايل، ذات اليمين وذات الشمال، تحت ذلك الثقل، وكانت عينا الوقح تتحلقان حول ردفيها ومؤخرتها، وعضّ على شفته السفلى، وردّد:

ـ آه يا اخواتي.. يا سيدي الطاير!

بينما هي غير عابئة به، أو ربما اصطنعت عدم الاكتراث، وزادت في دلالها، وتبخترت كأنها تمشي على قشر بيض، فصار جسدها يتلوى تحت السبت كالحية، فتملك الوجد من قلب الولد «الفالت» وصاح:

ـ بحبك يا جاموسة، بموت فيكِ يا بهيمة، نفسي في قعدة تحت سجرة العمدة يا حمارة!

هي وصلت لحد الجاموسة والحمارة، أيها الوغد عتيد الإجرام، حتى تفرغ عيناك من الحياء، وتتفوه بكلام لا يقوله سوى الرجل لزوجته في فراش النوم؟ وسمع واحد من ذوي البنت مغازلة الجدع لها، وهو مستلقٍ و«متداري» في أرض الذرة، ولم يرح بعد في النوم، فخرج مثل الأسد وفي يده «شرشرة»، وجرى وهو يزعق ناحية الولد، الذي لم يعد له أثر في الغيط كله، وكأنه فص ملح وذاب:

ـ جاموسة مين يا ابن البهايم؟

حثت البنت الخطى، واعتدلت في مشيتها، حينما وصل إلى مسامعها هي الأخرى زعيق قريبها، الذي أخرجها من حلم جميل.. كانت تحلم، بينما كان الجدع يطاردها، بالدار والعيال الصغار،

والرحمة من الشغل، مثل حمير السباخ عند أبيها..
وعاد الرجل إلى داره، وذهب إلى والد الصبية، مضرمًا نيران الغضب والثأر في صدره، ولمّ جدعان العائلة نفرًا نفرًا، وكانت نسوانهم في ذيلهم، وتوجّهوا إلى بيت ذي «العيار الفالت»، يحملون بين أيديهم لمبات الكيروسين، ومهدّدين بإشعال النيران في الدار بمن فيها.. بيد أن أولاد الحلال وقفوا في المنتصف، وقال أحدهم بصوت هادئ فيه شيء من الحكمة:
ـ اخزي الشيطان ياجدع انتَ وهو، اللي يتكسر يتصلح!
فانتفضت أم البنت، وغلى الدم في عروقها، وجحظت عيناها، وصرخت حين سمعت «اللي يتكسر يتصلح»من ذلك الرجل:
ـ ايه اللي اتكسر يا دلعدي انتَ وهو؟ البت صاغ سليم!
وانفجر والدها هو الآخر من الغضب وأمر زاعقًا شباب عائلته أن يحرقوا الدار، بينما الشاب وأهله بداخلها، فربت الرجل على كتفه، وقال:
ـ اقصر الشر، واستهدى باللـه، الشر مالهوش آخر.
وتنحت امرأة كانت حاضرة، وهمست في أذن الأم ناصحة:
ـ اعقلي يا بت.. وما تخربيش على الصبية.. الناس هيقولوا ايه؟
زعقت غاضبة وهي تزيح محدثتها بعيدًا عنها:
ـ قطع لسانه اللي يجيب سيرتها بكلمة، دا بنتي أشرف من الشرف. الدور والباقي على اللي بيسرحوا في الغيطان في انصاص الليالي للجدعان!
ابتلعت المرأة الإهانة على مضض، واعتصمت بالهدوء والدبلوماسية الباردة التي تسود نسوان الكفر، دون أن ينسين ثأرهن.. وردت الإهانة بهدوء وثقة وهي تميل رأسها على جانب، وتراقب ملامح وجه الأم بعينين ماكرتين:
ـ أني مالي يا اختي، ما ينوب المحجّز إلا تقطيع هدومه، ماليش دعوة.. بالكلام اللي داير في الكفر كله.. يارب استر على ولايانا!
ثم انصرفت. واصطرعت الأفكار في رأس أم الفتاة، واستجابت لصوت العقل، ومالت على زوجها، الذي كان في مقدمة الصفوف، الواقفة أمام دار الجدع، تهدّد بإضرام النيران، إذا لم يخرج وعائلته، بينما الملط وخفره يتفاوضون معه، ليفضّ ذلك الجمع، ويقيموا قعدة عرب، وكل حي يأخذ حقه، وكان الأب يسبّ ويلعن ويهدّد الولد أن يشقّه نصفين، وسيخلع عينيه عقابًا له على صنيعه الشنيع..
واستمع لحديث زوجته الهامس، وأخبرته بما بدا نصائح من تلك المرأة التي صبّت كلامًا كالزيت المغلي في أذنها وانصرفت.. في بادئ الأمر لم ينصع، وارتفع الدم إلى رأسه من الغضب، بيد أنها نجحت في الأخير بأسلوبها في إقناعه.. كمثل نسوان الكفر، اللاتي يستطعن أن يقنعن الأسود الجائعة بالجلوس إلى طاولة المفاوضات مع الفئران، وليس ذلك وحسب، بل الرضى والقبول بماتخرج به من نتائج، حتى لو كان منها تخلي ملك الغابة نفسه عن عرشه لتلك الفئران..
وقَبِل أخيرًا بالجلوس في قعدة عرفية، لن يكون قضاتها من الأغراب، لكي لا يذيع سر الكفر في البلاد الأخرى، وتأكل الناس وشنا، فلم يحدث إلا نادرًا أن غازل جدع فتاة من بلده، إلا وكانت جرسة وفضيحة، على كل لسان، وما تصدّق كفر أبوعلي لتهيص وتقيم الأفراح والليالي الملاح، على شرف كفر الدكر، الذي مرمغه ذلك الوغد في روث البهائم..

وانعقدت الجلسة، كانت تحوطها السرية والكتمان، في دار شيخ الخفر، الذي بدا عليه الحزن والتعب، كان يصيح ويضرب رأسه بكلتا يديه غاضباً، والفريقان عنده:
ـ عشنا وشفنا، جدعان كفر الدكر يقفوا على السكايك، يبصبصوا لصبايا البلد، هي القيامة هتقوم امتى يا عالم؟
ثم رفع يده عاليًا، وهوى بها على وجه المذنب، بينما هو قاعد مستسلم، وأبوه بجواره يطلب منه مزيدًا من الصفعات على وجه «قليل الأدب»، الذي جلب له وللبلد كلها العار، ثم نهض من مكانه، وتوجّه ناحية والد الصبية، وجثى على ركبتيه قبالته، وقال وهو يكاد يبكي من الخزي:
ـ آني خدامك وخدام ست الصبايا، اقلع مداسك وانزل به على دماغي عشان ماعرفتش أربي!
وأشاح والد الفتاة بوجهه عنه، وقال الملط وقد زارت ابتسامة نادرة محياه، وهو يرمق قدمي الرجل الذي كان حافيًا:
ـ خد حقك منه يا وله، أهو قدامك أهو!
ـ حد اللـه بيني وبينه!
قالها والد الصبية وهو مازال مشيحًا وجهه بعيدًا، ثم وجه سؤاله ناحية الجاني، بعينين جاحظتين يملؤهما الغضب، زاعقًا:
ـ عاملي بسلامتك زي كلاب السكايك، مابتصدق تشوف كلبة وعايز تقزح عليها!
وغمغم والد الفتاة، مجعدًا وجهه كالمتقزز وهو يهزّ رأسه غاضبًا من ذلك الحديث:
ـ مالهوش لزوم الكلام ديه يا حضرة شيخ الغفر!
لم يسمع الملط غمغماته، وضرب كفًا بكف، وصاح:
ـ عليه العوض ومنه العوض، القيامة هتقوم امتى يا ناس؟ الواد ابن الملاعين، عايز يقزح على بنت بلده على السكة، وقدام الناس، دا انتَ محصلتش الكلاب اللي بتتحرج تهبب كده، وبتشوف حتة مدارية عن العيون!
زغر والد الصبية له، وصاح مقاطعًا إياه، وهو يستشيط من الغيظ والغضب، ولولا أنه الملط لشجّ رأسه نصفين، وزعق وهو يهمّ بالانصراف:
ـ ايه الحديت الماسخ ديه يا حضرة شيخ الغفر؟ مداس بنتي برقبة الوله ديه وعيلته!
ثم وجّهه حديثه لذويه الحاضرين الجلسة:
ـ قوم ياجدع انتَ وهو، واحنا عارفين هناخد حقنا إزاي!
انتفض الملط من قعدته، التي كانت تتوسط الفريقين، وصاح موجهًا حديثه للرجل:
ـ هو آني مش مالي عينك يا وله ولا ايه؟
أطرق النظر إلى الأرض، بينما جذبه أحد أقاربه ليجلس، وقال:
ـ مين قال كده؟ دا انتَ كبير البلد والعبّ كله!
زفر الملط هواء الغضب، وشهق هواء الثقة والفخر، وقال بصوت هادئ خفيض، بعدما انصاع والد الفتاة وخزى الشيطان وقعد:
ـ ايه اللي يرضيكوا ياجدع انتَ وهو؟
أجاب أحد أقارب المجني عليها:
ـ اللي تحكم بيه يا حضرة شيخ الخفر.. اعتبرها بنتك!
وردّ والد الجاني وهو مطرق الرأس، بصوت يبدو فيه الذل والانكسار:

ـ اللي تشوفه انشاله تحكم برميه في البير الكبير، خلينا نخلص من فضايحه.. ابن الكلب!
وساد السكون للحظات، كان يخترقه نعيق الغربان في الخارج، وشهيق وزفير ذلك الشاب، الذي كان صدره يعلو ويهبط خوفًا وقلقًا.. وكسر الملط الصمت وأعلن:
ـ زي ما الحرامي بشيلته، يبقى الواد ديه يصلح غلطته، ويكتب على البت!
لقى الحكم قبولًا وارتياحًا من الجميع، وإن كان والد العروس أبدى تذمرًا مزيفًا، على غير السعادة العارمة التي كانت يفيض بها صدره، وهتف وهو يهزّ رأسه مبديًا أسفًا مصطنعًا:
ـ ومقام سيدي الطاير، اللي عمري ماحلفت بيه كدب، لولا إنك حكمت ياحضرة شيخ الغفر، ما كان هيلمس ضفر منها، دي بنتي زي الشمعة المنوّرة، تستاهل أفندي قد الدنيا، مش فلاح زي حالاته!
حادث والد العريس نفسه، كاظمًا غيظه وغضبه:
ـ يا أخي اتلهي، هو انتَ كنت لاقي، دا شويه وكنت هتسرح تدلّل عليها في سوق الجمعة.. ولولاشي بس إن الولا اتصاب في نواضره، ماكنش حد فاتح عليها محفظة، ولا ببلاش!
ثم علا صوته فجأة، وهو يهمّ منتصبًا، ويجذب ابنه من ذراعه بعنف، بعدما اتفق على اليوم والساعة التي سوف يعقد فيها القران:
ـ قوم يابن الكلب!
وانفضت الجلسة، وأعلن الطرفان القبول والاستعداد للزواج، بيد أن الجاني كان قد عقد النية وبيّت العزم بالفرار من البلد إلى بلاد اللـه الواسعة، فإن كان الشيطان قد لعب في رأسه ساعة، وزينها في عقله، فلن يفقد الباقي من عمره معها، ويا روح مابعدك روح..
وعلم الأب بمايدبره الولد، وربطه في الزريبة، إلى أن يحين وقت عقد القران، بعدها يعمل ما بدا له، فلا يصح أن يطلع «عيّلًا» قدام الناس، ويرجع في كلامه.. ساعتئذ، سوف تقع في رقبة ابنه الآخر المحترم، الكافي خيره شره، الذي ليس له في المسخرة وقلة الأدب وفراغة العين، مثل أخيه الفلاتي، الذي لا يترك حفل عرس في البلد ولا في غيره حتى لو كان في آخر العبّ إلا وذهب إليه ملبيًا دعوة الغوازي العاهرات.. ما ذنب الابن المهذب إذن ليحمل أوزار أخيه؟ وكما يقول المثل «الحمار المكّار بيقع في أصعب شيلة»، وقع الولد في تلك الفتاة..
وكانت الواقعة يوم اختلف وأهله إلى دار الفتاة لكتابة «القائمة»، واختلفا على سعر «الحلتين النحاس والطشت»، وقامت خناقة لرب السما، وكادت الزيجة تفشل قبل أن تبدأ، لولا أن زعق لتلك الصبية نبي، وأرسل الملط إلى الدار، وعقّل الطرفين، اللذين بدا أنهما داخلين معركة حربية، وليس حفل عرس تتبعه أواصر النسب..

٤

لو عملت قرداتي يا ابن الدكر، لن تحوز قلبها، أين أنت الآن؟ وأين هي؟ هي الست الدكتورة نفيسة رجب، على سن ورمح، وانت التلميذ الذي مازال متعثرًا في دراسته، ولم يستطع بعد اجتياز السنة الأخيرة في الدبلوم، لو لامست بيديك نجوم السماء لن تقرب منها.. نحن أبناء اليوم وليس الأمس، دعك من «الفشخرة الكدابة»، جدك الدكر كان ماضيًا وراح لحاله، الحاضر صار ملكًا للكلاف وابنته..
كان ابن الكاتعة ينصحه، تحت ظل شجرة العمدة، لكنه انتفض مرة واحدة، كأنه وجد كنزًا ثمينًا، وقال مبتسم الثغر:

ـ اسمع يا ابن الدكر أما أقولك، مفيش قدامك غير أمي!
ألقى بسيوني بحجر في الترعة بيأس، بينما هو مستلقٍ على جانبه، وردّ:
ـ أمك؟
أجابه ديسطي متهلل الوجه، مستبشر الملامح:
ـ إيوة، وحياة سيدي الطاير لتخليها تجيلك راكعة!
نهض سريعًا، وجذب صاحبه من ذراعه، وتوجها إلى الدكان، وطلب من الكاتعة المساعدة في إحياء قلب المسكين، الذي اختطفته البنت نفيسة، وعاثت به فسادًا.. انقبضت عضلات وجهها، وقالت وهي تضع يدها حول ذقنها:
ـ تكونشي المغدورة بخيتة عملتلك عمل يا ضنايا؟!
أطرق رأسه، ولم يحر جوابًا، وأمسك ابنها بطرف الحديث:
ـ يا سنة سوخة يا ولاد!
ردّت:
ـ دي مرة سوّ مش بعيد عليها!
رفع بسيوني رأسه، وبدا الحزن على محياه، وسألها:
ـ والعمل يا خالة؟
أجابت مبتسمة وهي تضربه بدلع على صدره:
ـ سيبك منها داها وجيعة.. والنبي يا وله قُطعت وقُطع علامها، دي حتى ماتسويش هيا وأمها في سوق النسوان نكلة!
أطرق أرضًا والتزم الصمت.. وأردفت:
ـ ايه اللي عاجبك فيها يا ابن الدكر، دا انتَ نفسك حلوة، وسيدي الطاير آني أقرف أبص في وشها ووش أمها.. تيجي ايه جنب زنوبة؟
ثم صمتت للحظات، كانت ترمق هيئته المنكسرة، وأردفت وهي تزغده في كتفه ليرفع رأسه:
ـ هو ينفع نوقّف الشمس جنب اللمبة الجاز؟!
ضحك ديسطي وقال:
ـ طب وسيدي الطاير ضفر زنوبة برقبة مية زي بنت الكلاف!
ومع إصراره، لم تجد الكاتعة بُدًا من أن تذهب إلى أبو داوود، ليصنع له عملًا يساعده على استرداد قلبه من بين مخالب ابنة الكلاف، ويجعلها تأتي إليه زاحفة، تطلب وهي جاثية على ركبتيها، بينما هو منتصب الهامة أمامها كالتماثيل، أن يرأف بحال قلبها، الذي شقّه الوجد نصفين، ارحمها يا ابن الدكر، ولا تكن عنيدًا، فهذه البنت باتت حياتها معلقة في رقبتك.. صار يحلم ويعيش الأمل، فسيدنا الطائر، صانع المعجزات، لن يكون عسيرًا عليه أن يحقق له ما أراد..
وانتظر بصحبة الولد عودة الكاتعة من عند سيدنا، تزفّ البشرى، ليفرح قلبه، وتهنأ حياته، ورجعت المرأة، وكانت الجدية والحزم مرسومين على هيئتها، وقالت:
ـ اسمع يا ابن الدكر، انتَ جبتلي الكلام مع الراجل!
سألها متوجسًا:
ـ ليه كفاللـه الشر؟
أجابته:

ـ زعقلي وقالي: يعني يا كاتعة يا اختي عشان عارفة آني ما بردش لك طلب، عايزاني على آخر الزمن أعمل عمل؟ طب أقول للأسياد ايه؟ قولتله: قولهم ساعدوا غلبان مكسور الجناح، ينوبهم ثواب.. هزّ رأسه وقالي: الناس بتكبر وتعقل، وانتِ بتكبري وتخرّفي.. يلا عشان خاطرك، ولاجل غلاوتك!

انبسطت عضلات وجهه وهتف:

ـ يا ما انتَ كريم يارب!

ـ بس الأسياد طلباتهم كتير يا وله مش هتقدر عليها.

ردّ مبرزًا صدره إلى الأمام، وهو يضرب بيده على جانب رقبته بقوة:

ـ رقبتي سدادة للأسياد!

ـ عايزين جديان سمان.. وكل ما كان فيهم لحمة، كل ما كان مفعول العمل أكبر.. وانتَ وشطارتك بقى!

٥

ليس من السهل عليه العثور على جديين، إلا من عند عمه، لكن ماجرى له من قبل على يد فُتنة جعله يُشيح وجهه بعيدًا عن زريبته.. فذات ليلة، وهو مازال صبيًا صغيرًا، كان يلعب مع زنوبة عروسة وعريس وسط أعواد الذرة العالية بمفردهما، واستلقت ابنة سماسم الجنية على ظهرها أرضًا، كان الولد بجوارها، وأخذت ترفع ذيل جلبابها عن ساقيها واحدة واحدة، بينما كان ابن الدكر يتابعها بعينين مفتوحتين عن آخرهما، وأنفاس لاهثة مختنقة، وسألته بدلال بصوت خفيض يشبه الوشوشة، ما إذا كان يريد أن يرى مابين فخذيها؟ فأجابها سريعًا متعلثمًا:

ـ إيوة يا بت!

قهقهت وقالت بغنج وهي تبعد عنها يده الزاحفة نحو بطنها:

ـ هوريك اللي عمرك ما شوفته!

التزم بالصمت فاحصًا جسدها.. وأردفت وهي تشير إلى ما بين فخذيها:

ـ عارف ديه بتاع جنيات مش إنس!

ردّ وقد بدأ صبره ينفد:

ـ ماتوريني بقى يا ستي!

أجابته وهي ترفع حاجبيها:

ـ لأ!

ـ طب واللـه ماعدتش لاعب معاكِ!

ـ مش هاتشوفه إلا لما تجيب دكرين بط لإخواتي العفاريت الجعانين.

أومأ بالموافقة في الحال، وبدا على البنت علامات الارتياح والانتصار، وأوصته:

ـ بس خلي بالك، إياك ديسطي يعرف ولا حد يشم خبر.. أصل أمي سماسم تقطع خبري وخبرك من الدنيا.. لسه ديك النهار موصياني.. وقالتلي.. إياك يازنوبة يابنتي حد من الجدعان قلالات الأدب يضحك عليكِ!

كان نائمًا عند عمه، على غير عادته، حيث كان يفضل البيات في الغيط، هربًا من لسان فُتنة الأطول منها.. وانتصف الليل، وصار شخير الرجل وزوجته يملأ الدار، بينما بناته في سابع

نومة.. مشى على أطراف أنامله، وفتح مزلاج باب الزريبة، التي كان ينام بجوارها، ودلفها كاتمًا أنفاسه، وانقضّ على ذكر البط، لكن الملعون فضح الدنيا، وأيقظها من سباتها، فنهضت مسرعة ناحية الزريبة، حيث كان صاحبنا واقفًا لا حول له ولا قوة، متجمد الأطرف من الرعب والفزع، فصوت الذكر لم يمهله ليهرب قبل أن تأتي امرأة عمه، التي أشعلت اللمبة الكاشف، وبدا أمامها في ركن الزريبة مستندًا بجانب على الحائط، ومخفيًا بيديه وجهه، ولما عرفته زعقت في وجهه صارخة، وهي تمسكه من خناقه وتهزّه ذات اليمين وذات الشمال، وتخبطه بقوة في الحائط، وهو بين يديها كالجثة الهامدة، ونادت على دسوقي الذي كان مازال غائصًا في نومه:

ـ الحق المحروس ابن أخوك.. تعالى شوف كان بيهبب ايه، بسلامته طلع حرامي زي أبوه!

وافتضح أمره في الكفر كله، ليس لدى النسوان حديث سوى عن الولد الذي كان يريد سرقة عمه.. الذي لولا توسلاته، كان بات في النقطة، وأكل علقة على يد الخفر، جزاء لما اقترفته يداه.. ضاقت به الدنيا ليسرق زريبة ابنة حضرة شيخ الخفر، هل هناك عاقل في البلد يذهب إلى الغولة، ويقول لها عينك حمرا؟ صاحبنا سرقته السكينة، وضحكت عليه ابنة سماسم الجنية، وأغوته بعدما جردته من كل أسلحته وسلبت منه عقله..

٦

تلك الحادثة مازالت عالقة في ذهنه، رغم مرور السنين عليها، لكنه لن يقف مكتوف اليدين، سوف يصنع المستحيل، حتى يأتي بالجديين، فليس عنترة أشد منه عشقًا ولا قوة، وإن كان هو عنترة العبسي، فهو بسيوني الدكر، وما أدراك ما الدكر الكبير، أمير الأندلس..

اتفق مع ديسطي على السقوط على زريبة العمدة، ليلًا، ورسما الخطة، حيث كان الخفر في البلد مشغولين في حفل عرس، تحضره عوالم من البندر.. كانوا يطلقون الأعيرة النارية في الهواء ابتهاجًا أمام الغوازي، وهم يستعرضون مهاراتهم في الرقص أمام أهل البلد، الذين كانوا مشدوهين من جرأة أحد الخفراء، حيث كان يراقص الغازية، وفجأة أخذها على حين غرة، وجذبها نحوه، محتضنًا إياها، ورفعها إلى أعلى، وهي تضربه في صدره وتصرخ غاضبة، تطلب منه أن يبتعد عنها، وهي تكاد تبكي، بينما الرجال يقهقهون، ويضعون أصابعهم في أفواههم، ويطلقون الصافرات المشجعة لذلك الخفير، الذي لم يلقَ صنيعه استحسانًا من النسوان، كن يبدين امتعاضهن، ويضعن أياديهن فوق عيونهن، ويتجاذبن أطراف الحديث الساخطة، رغم أن أعينهن كانت تتابع الحدث باهتمام بالغ من خلف أياديهن..

تسلّل وصاحبه إلى الزريبة، واعتليا السطح، وقفزا فيها، لم تحن لهما الفرصة يومًا لرؤيتها من الداخل، شهق الاثنان دهشة، وهما يرمقان المواشي، التي كانت أكثر عددًا من خصلات شعر أحدهم.. كان جناب العمدة محقًا حين منع أهل البلد من الولوج إليها خشية أن تصيبها عين طائشة من عيون البلد الصفراء.. قبضا على الجديين، وفكرا في طريقة للخروج بهما، وكسر ديسطي مزلاج الباب الكبير، بعدما استيأس من العثور على مخرج آخر، لا يترك خلفه آثارًا للجريمة، وفُتح الباب، واستعدّا لإخراج المطلوب، وإذا بالخفير الذي كان يرقص مع الغوازي مصطحبًا إحداهن بالقرب من الزريبة، غارقًا في القبل والأحضان، ولمح خيالهما والجديين، فنهض سريعًا وركض صوبهما، وصاح في سكون الليل:

ـ انتَ مين ياجدع انتَ وهو؟!

فأطلقا سيقانهما للرياح، بصحبتهما الجديين، فأسرع الخفير وزعق:
ـ حلّق يا جدع انتَ وهو.. حرامية ياجدع!
كان الخفر عائدين بعد قضاء سهرتهم في الفرح، وسمعوا استغاثة زميلهم، فأطلقوا الأعيرة التحذيرية في الهواء، وزعقوا وهم يوزّعون أنفسهم في مداخل ومخارج البلد:
ـ امسك حرامي!
أحس بسيوني وصاحبه بكثرة عدد الملاحقين لهما، تركا الجديين، وانطلقا مسرعين في الحقول، ويا روح ما بعدك روح.. بينما ارتدت الغازية ملابسها، وهي تندب حظها العاثر، الذي أوقعها في براثن رجل جلف، مثل ذلك الخفير، الذي تركها وجرى مطاردًا الحرامية، دون أن ينقدها عرقها الذي اتفقا عليه قبل اللقاء..
خرج أهل البلد يساعدون الخفر في مطاردة الحرامية، وأشعلوا لمبات الكيروسين، وتوزّعوا في الأراضي وعلى السكة العمومية، حسب الخطة التي أعدّها شيخ الخفر، الذي كان يتابع الموقف عن كثب عند زريبة العمدة..
ركض اللصان في الأراضي وقفزا القنوات والمناصل، حتى انقطعت أنفاسهما، ونزلا غيط ذرة مروي، واستلقيا على الأرض من التعب.. ومضت دقائق، وتجمع الناس حول ذلك الحقل، وهم يتناقشون، وأقسم أحدهم بالطلاق من امرأته التي لم يدخل عليها بعد، حيث كان حفل زفافه قد انتهى لتوه، وبعد أن ترك عروسه وخرج مع أهل البلد يبحثون عن اللصوص؛ أنه لمحهما يقفزان في أرض الذرة.. سأله الملط الذي وقف عند دماغ الأرض ممتطيًا حمارته:
ـ متأكد ياعريس؟
أجابه:
ـ عليا الطلاق من مراتي مرة تانية الحرامية متاويين هنا!
وأشار إلى أرض الذرة. همس أحدهم لجاره مازحًا بصوت لم يسمعه غيرهما:
ـ عليا الطلاق الواد ديه مربوط وخايف يروح ليتجرّس في البلد!
وأوعز الملط للخفر ورجال البلد أن ينزلوا الأرض للبحث عن اللصين، اللذين جعلا جناب العمدة يندب مثل الثكالى أمام زريبته، ناعيًا الجديان.. وقسمهم إلى فريقين، واحد ينزل من رأس الأرض والآخر من ذيلها.. وزحفوا كالجيوش المستعمرة، ولم تمضِ دقائق، وزعق العريس وهو يمسك في خناقهما:
ـ الحرامية أهم يا حضرة شيخ الخفر!
وهجم عليهما الخلق في الظلام، والأيادي تتسابق للوصول إلى جسديهما، وهما يجأران بالاستغاثة من أثر الضرب المبرح، لكن زعيق الناس كان يبتلع صوتيهما، وحملوهما عند القناة حيث ينتظرهما الملط، وظهرت ملامحهما في نور القمر وأنوار لمبات الكيروسين، وصاح فيهما:
ـ بقى بتستغفلوا البلد يا وله منك له!
أجابه ديسطي، بينما الآخر كان صامتًا يفكر في مصيره:
ـ آخر نوبة ياحضرة شيخ الغفر!
ـ فين الجديين؟
ـ سبناهم!

استشاط غضبًا، ونزل من فوق مطيتة، وصفعهما على وجهيهما، فسال الدم من فميهما وأنفيهما وانتفخت أعينهما، وسط صراخهما واستجدائهما، وأوعز إلى خفره ليوثقوهما ويربطوهما في ذيل حمارته، وامتطاها، وعاد بهما إلى زريبة العمدة، الذي تهلل وجهه، وعادت إليه الروح حينما رأى شيخ خفره يدنو منه وفي قبضته اللصين، بيد أن صدره انقبض ثانية، وهو يفتش بعينيه وسط الحضور عن الجديين، وسأل وهو يُضيّق عينيه ويجعّد وجهه ويضع يده على صدره كالشحاذ:

ـ فين الجديين بتوعي ياشيخ الغفي؟!

أجابه وهو يركلهما بمركوبه وهما مقيدان اليدين والقدمين ومستلقيان على الأرض، وأنفيهما في التراب:

ـ مش هيطلع عليهم نهار، إلا لما يقرّوا ويعترفوا!

صاح ديسطي:

ـ وحياة سيدي الطاير، مانعرف عنهم حاجة!

فصفعه الملط على وجهه وشخط فيه مستنكرًا وغاضبًا:

ـ وكمان بتحلف كدب بحياة سيدنا يا ابن الكافرين!

خبط العمدة بكلتا يديه على رأسه، وراح يندب:

ـ يا بختك الاسود ياعمدة، ياكاسية وسطي ياني، ياخياب دايي المستعجل!

ثم توجه ناحيتهما وركلهما بحذائه وزعق:

ـ فين يا ولاد الكلب الجديان بتوعي؟

ولم يحر أحدهما جوابًا، واكتفيا بنظرات متوسلة، تطلب التدخل من الكاتعة ودسوقي الذي شاهد مثل غيره ابن أخيه مقيدًا كالبهيمة، دون أن يلفظ ببنت شفة، وارتمت المرأة على قدمي العمدة، تتوسل إليه، ولفظها بعيدًا، وأمهلهما إلى الصباح، وإذا لم يظهر المسروق، سوف يشيعهما إلى المركز، وهناك من أدوات التعذيب ما تجعل الأخرس ينطق دهرًا.. ودخل الصبح عليهما، وحضرت دورية من المركز، واقتادهما العساكر، وسط صراخ الكاتعة وصويتها وراءهما، وهي تخلع غطاء رأسها، وتصفع وجهها بقوة بحركات هستيرية وتردّد:

ـ يا ديسطي يا بني.. خدوك مني يا وله.. اتاخدت غدر يا ابن قلبي.. يا سوادي.. يا سوادي!

وحاول أحد الخفراء، الذين كان يأخذون من عندها على النوتة؛ تهدئتها، وقال:

ـ بس يا بت، متعمليش في نفسك كده، دي مسافة السكة لحد المركز، وهيرجع صاغ سليم!

صرخت في وجهه:

ـ سكة ايه؟ الواد ماعدش راجع، حد بيروح حدا الحكومة وبيرجع تاني؟ عليه العوض!

وأُلقي المتهمان في الحبس، وأُغلق عليهما الباب، وطفق ديسطي يؤنب ابن الدكر:

ـ منك للـه، انتَ وبنت الكلاف.. عاملي حسن ورايد تتنيل وتتجوز نعيمة!

ثم ضرب راحتيه في بعضيهما وصرخ:

ـ دلوقتي الدبان الازرق مش هايعرف لنا طريق جرة، ومعدناش هنشوف الدنيا تاني.. يا حبيبتي يا اما.. ياترى انتِ عاملة ايه!

وظل بسيوني الدكر صامتًا، فاغرًا عينيه في ذهول، غير مصدق ماجرى، مستسلمًا لمصيره الذي آل إليه..

٧

وتمضي الأيام والمتهمان في الحبس، ودسوقي في الخارج عاجز عن البحث عن حل، بينما ذهبت الكاتعة إلى دار الغتت، قبل ولوج الليل. كان هناك، لم يخرج بعد للعمل، واستجدته لينقذ العيّلين، ووافق على الفور، وأرسل أحد أتباعه إلى العمدة بصحبة جديين أسمن من جدييه، وطلب منه أن يعفو عنهما، وتهلّل وجه الرجل، ونزل عند رغبة الغتت، ورأى الولدان النور ثانية، وسط دعوات من الناس للحاج الذي أنقذ ابن الدكر ورفيقه من مصير مؤلم، وكانت سيرته الحسنة على كل لسان في البلد، وكانت النسوان في الغيطان يدعين له بطول العمر والصحة، وقالت إحداهن وهي ترفع يديها إلى السماء متضرعة:

ـ ربنا يخليه للبلد!

وأنزلت يديها ونظرت إلى جارتها، التي كانت تشتل الأرز، وسألتها مبتسمة:

ـ اسم الولية أمه ايه يا بت؟

هزت المرأة كتفيها وردّت ضاحكة:

ـ آني عارفة يا اختي!

وقالت أخرى:

ـ داتك وجيعة عايزة تعرفي، أبصر ايه ومدرك ايه.. الراجل غريب مش من البلد، ادعي يابت ربنا.. وهو عارف اسم امه!

رفعت المرأة ذراعيها:

ـ وحياة سيدي الطاير حبيبك، لتطول في عمر الحاج وتجازيه خير..

ردت عليها المرأة:

ـ إيوة والنبي يابت دا ينوبه ثواب كبير.. دول عيال لسه مايعرفوش حاجة، وزمانهم اتعلموا من غلتطهم.. إلهي يعمّر داره الحاج ابن أم الحاج.

٨

لم يُعثر على أي أثر للجديين في البلد، وتناثرت الأقاويل، كان أغلبها يدحض فكرة أن يكون الولدين قد فازا بهما، فقد أُلقي القبض عليهما، قبل أن يهنآ بما سرقاه.. وكعادة كفر الدكر، تتوزع بينهم الآراء، ويدلي كل منهم بوجهة نظره، التي تكون عادة من بنات خياله، فقد ذهب نفر قليل إلى أن الحاج الغتت هو من لطش الجديين، وأقسم أحدهم بأغلظ الأيمان وبحياة سيدي الطائر، التي لا يُحلف بها كذبًا في البلد، أن الجديين لم يخرجا من بين يديه الطويلة، كأن الأرض ابتلعتهما، وهو الوحيد في العبّ كله الذي لديه مهارة إخفاء الشمس في جيب جلبابه.. لكن هذا الرأي أودى بصاحبه مربوطًا في ذيل حمار أجرب، يمتطيه أحد رجال الغتت، وطاف به الكفر كله، وخلفه باقي حاشيته، يسوطونه فوق ظهره العاري الذي أدماه الضرب، وبيومي العبيط ينفخ بزمارته، والعيال تهتف خلفه:

ـ ابن ستيتة المعمصة أهو!

وكان أهل البلد يشاهدون، وهم يمصمصون شفاههم حسرة وغضبًا وحزنًا على الرجل، لكنهم لم يجرؤوا أن يفتحوا أفواههم.. وتبرع نفر منهم إلى تبرير ماحصل، لينفضوا عن أنفسهم أغبرة الهوان والعجز والخوف، فالحاج دائمًا يده ممدودة بالعطاء لأهل كفر الدكر، ولم يشاهده أحد قط

يمدّها ـ حاشا للـه ـ في البلد، بل كانت دائمًا ممدودة خارجها، لتأتي بالخير الوفير لأهله وناسه، كم من مرة أنقذنا من هلاك مبين؟ كما أنه لم يردّ سائلًا قط.. ثم يأتي على آخر الزمن ابن ستيتة المقشف، ويردّد شائعات ليس لها على أرض الحقيقة عنوان..
وتسربت أنباء ماحصل في البلد إلى العمدة، الذي كان في غرفته الخاصة المظلمة دائمًا، التي لم تصل إليها الكهرباء، رغم وجودها في القصر كله، كان يحصي أمواله، ويطمئن عليها، فهو لا يقدر أن يغيب عنها أكثر من سويعات قليلة.. كانت أموال الربا، حيث يقرض الفلاحين نقودًا وأشياء، ثم يدفعونها بأضعاف ثمنها.. خبط على باب الغرفة أحد الخفر، فقفز العمدة من مكانه، وهو يعيد أمواله إلى مكانها الآمن، وردّ لاهثًا:
ـ إيوة يا ولا!
أجابه الخفير:
ـ الغتت داير بابن ستيتة في البلد يجرسه.
هزّ كتفيه، وكرمش وجهه، وضيّق عينيه في غضب، وصاح:
ـ وآني مالي يا بجم؟!
ثم أشاح بيده، وهو مازال مستربعًا فوق أرض غرفته المظلمة، وقال:
ـ داهية تاخدكوا بلد عايزه الحايق.. الياجل عاملكوا لحم كتافه تاكلوا منه!
غمغم الخفير وهو واقف أمام الباب:
ـ إهي.. لازمته ايه الكلام الماسخ ديه دلوقتي!
صاح العمدة:
ـ غور داهية تاخد أمك!
وأولي الخفير ظهره إلى الباب، وخرج من القصر، حاملًا بندقيته، وهمس في سره:
ـ يارب وحياة حبيبك النبي وسيدي الطاير، اجعل للنار نصيب في فلوس العمدة اللي هيموت عليها.. هو إيه ديه يا اخواتي!

٩

ذهب قبل تلك الواقعة إلى البندر بيومين، وأقام بالمستشفى العام، كان لا يحب الابتعاد عن كفر الدكر ولا يوم، لكن هذا المرة، وتحت وطأة المرض الذي لبد في جسده البادئ في النحول؛ أبلغه الأطباء أن حياته باتت في خطر داهم لو لم يستمع إلى نصائحهم، ويقيم في المستشفى.. لكن الدكاترة لايعرفونه جيدًا.. هو مثل السمك لا يمكنه العيش بعيدًا عن ماء كفر الدكر.. وإن كانت الأمراض قد تسابقت للولوج إلى جسده، ليس إلا لسبب وحيد، وهو تقاعده، فالرجل الذي كان يشخط الشخطة تنخلع منها مفاصل رجال الكفر كله، صار يجلس في داره، لا أحد يعوده، ولا يعيره الناس أدنى اهتمام..
فذات يوم، كان ممتطيًا حمارته، سارحًا إلى غيطه، إذا بأحد الفلاحيين راكبًا «جمالي»، حيث ساقيه الاثنتين في جانب واحد من الحمار، ولما شاف الملط لم ينزل، أو يعدل من ركوبته، بل وما زاد وغطى، أنه طفق يغني بصوت عالٍ.. استشاط الملط من الغضب، واحمرّت أذناه، وأوقف مطيته أمام حمار الرجل، وزعق وهو يشيح بعصاه:
ـ انتَ مش شايفني يا وله؟ ولا العمى سبك على نواضر أمك!

أمال رقبته، وقال وساقاه ترتعدان، رغم ما أظهره صوته من تحدٍ:
ـ أهي يابا الملط! هو آني جبتلك سيرة، آني ماشي في سكتي، كافي خيري شري!
ـ وكمان بتجحشلي يابن الرافضي؟! وحياة أمك، اللي ماتت ومكنش في وسطها لباس.. قال أبوك قال.
ثم أشار بإصبعه لصدره، وأردف مزهوًا:
ـ آني حضرة شيخ الغفر على سن ورمح!
ضحك الرجل وهزّ كتفيه، وقال وهو يضرب ساقيه ببعضيهما ليحثّ مطيته على المشي:
ـ كان زمان وجبر!
وانطلق حماره راكضًا، بينما فشلت مطية الملط في اللحاق به، فالسن له أحكام.. ولايتحدى الزمن إلا من كان في عقله خلل، فأي مواجهة بينه وبين الإنسان محسومة النهاية لصالحه.
وعاد إلى داره، ودلف غرفته، وانفطر في البكاء مثل العيال.. لا يذكر أن عينيه دمعتا يومًا، حتى وهو طفل، كانت أمه تردّد أنه لم يكن يبكي مثل أقرانه الصغار، وشكّت في أمره، وذهبت به إلى شيخ، وصنع له حجابًا..
وفي غمرة حزنه ويأسه، انعوج فمه، وشلّ الجزء الأيمن من جسده، وثقل لسانه، وصرخ بصوت كان يخرج من حلقه ولا يبلغ فاه.. وخبطت امرأته تدعوه إلى الغداء، لم يجبها، وفتحت الباب، ورأته مستلقيًا بجوار السرير، يحاول الزحف بجانبه، وهو يرفع ذراعه الأيسر، فركضت مفزوعة أمام الدار، ورقعت بالصوت الحياني:
ـ الحقوني يا خلق هو!
وهرع الناس نحو غرفته، وحملوه إلى البندر، إلى أحد الأطباء ذائعي الصيت، الذي نصحهم أن يودعوه المستشفى الميري، وهناك سوف يجد عناية..

١٠

غير أن كثيرًا من أهل كفر الدكر كانوا يرددون أن ثمة شواهد وأدلة وبراهين، تؤكد ظفر الجن بالجديين، يزيد البعض أن عراكًا صاخبًا نشب بين الجنية سماسم التي تسكن عند القرافة، وأختها جنية البئر سهير، على أحقيتهما بالجديين، واشتبك عيال الأختين مع بعضيهما، وكانت معركة ضارية، أقسم رجب الكلاف بحياة سيدي الطائر أنه سمع بأذنيه، الأكبر من المقطف، صراخًا كالصاعقة وهو نائم في داره، وتوجّس خيفة أن يقع سقفها على رأسه من شدّته، لكنه لم يجرؤ على الخروج منها، فذلك الصوت لا يصدر سوى من الجن، التي لو لمحته لقطّعت من جسده، حتى يصير أكبر جزء فيه أقل من عقلة الأصبع، فمن المعروف عنهم أنهم يستكرهون إذا دخل الشيطان بينهم، وتعاركوا مع بعضهم، أن يشاهدهم بني الإنس، فمن العيب أن يراهم ذلك المخلوق الأدنى منهم، المصنوع من الطين، بينما هم من النار..
تلك الرواية أكّدها كذلك بيومي العبيط، الذي قال إنه أثناء زيارته الأخيرة لسماسم زوجته عند القرافة، وجدها تصرخ وتشدّ في شعرها كالمجاذيب، وحولها عيالها يربّتون على كتفها، ولما شافته ارتمت في حضنه، وقالت وجسدها كله يرتجف من البكاء:
ـ يرضيك ياسي بيومي؟!
اربدّ وجهه وأجابها وهو يطبطب عليها:

ـ حصل ايه يا أم العيال؟
أجابته بصوت مختنق متقطع:
ـ الولية الجنية أختي تطمع في أكل ولادي!
رد مدّعيًا الحكمة:
ـ انتوا أخوات يا سماسم وعمر الضفر مايطلع من اللحم.. دي حتى مصارين البطن بتتخانق مع بعضها!
زعقت في وجهه وكاد يطير من شدّة صوتها، قالها ضاحكًا وهو يقسم بغلاوة سيدي الطائر:
ـ بلا إخوات بلا زفت!
سألها وهو يحاول استرضاءها، لأنه يعرف أنها إذا غضبت منه قد ترتب له لقاء مع عزرائيل في التو، فهي وإن كانت تعشقه، لكنها مثل كل الجن إذا غضبوا، اهتاجت أعصابهم، وحجبت عقولهم:
ـ أكل إيه يا سمسمتي؟
أجابته:
ـ الجديان!
لما سمع كلمة «الجديان»، أيقن أن ابن الدكر وصاحبه كانا بريئين.. وأردفت زوجته الجنية:
ـ المرة الناقصة، قولتلها آخد واحد وانتِ واحد.. ردت بفراغة عين: لأ يا أختي، عيالي أولى.. قولتلها بالذوق: عيالي وعيالك واحد يا سهير، ردت: واحد إزاي وادلعدي ابنك الكبير، عامل زي القرع، بيمد لبره.. قولتلها: الجواز قسمة ونصيب يا اختي.. على ايه وايه.. قولتلها كده.. قامت ماسكة في خناقي، وملوطة بيا الأرض، ولولا جاية اللـه يسترهم ولادي، كانت خدتني معاها البير، وموتتني هي وعيالها الغجر!
سكتت عن الكلام، وأخذت تنهنهه، وصدرها يعلو ويهبط..
قامت حريقة في قلب جنية البئر، حين وصل إلى مسامعها خبر طلب ابن شقيقتها سماسم ليد ابنة جن غريب، وأعلنت الحرب، وتوعّدت أختها بالانتقام، لن يمر ذلك مرور الكرام، فابنتها ذات حسن وجمال، يأتيها الخُطّاب من كل مكان يسكن فيه الجن والعفاريت، وكانت تكسر بخاطرهم جميعًا، ويرجعون إلى بلادهم محزونين خائبي الرجاء، كل ذلك كان من أجل أن تزوّجها لذلك الخائن، الذي أنكر العيش والملح، فلحم كتفيه من خير خالته، التي كانت تطهو له ما لذّ وطاب، وآخر ما تناوله كان عجل بقر سمين، فُكّ قيده من أصحابه، فاختطفته بينما كان يمر بجوار البئر..
وسخر أحد الأفندية الذين يتعلمون في البندر من رواية بيومي العبيط، وقال هازئًا وضاحكًا، وهو جالس بين أهله حول الطبلية يتناولون الغداء:
ـ فيه حد عاقل يصدق بيومي العبيط؟!
فوقفت اللقمة في حلقه، وأخذ يرفع يديه إلى السماء، وعيناه مفتوحتان عن آخرهما ووجهه قد صار بلون الدم، وذووه من حوله، ما بين من ترقع بالصوت، تطلب النجدة، ومن يضربه على ظهره، وامتلأ البيت بالناس، لكن بعدما غادر السر الإلهي جسده، واتشحت الدار بالسواد..

الفصل السادس

١

أن يتزوج رجال الكفر من الجنيات، كان حدثًا يبدو عاديًا، منذ الدكر المؤسس، الذي تُردّد بعض الروايات أنه نكح أكثر من مئة جنية، وجمع بين أكثر من أخت منهن.. الرجل كان قد ضاق ذرعًا بنسوان الإنس، حيث عجزت أرحامهن أن تلد أنثى تُطيق معاشرته.. ولجأ إلى الجن، الذين أُعجبوا به أيما إعجاب، وخاصة كبيرهم، الذي تصادف أنه كان ملكًا لمملكة الجن الذين كانوا يسكنون الأندلس، واضطر بعد صراع مرير مع أعدائه أن ينزل عن عرشه، ويحطّ الرحال هو الآخر في تلك البلاد..

تقول أساطير الكفر إن أول زيجات الدكر المؤسس من الجن كانت ابنة ملكهم نفسه، الذي فرح بوضع يده في يد أحد أمراء الأندلس، ولم تطق الأميرة معاشرته الجنسية ليلة واحدة، ولاقت مصرعها، وأصابه الغمّ والكدر، وأخذ كفنه فوق راحتيه، وذهب إلى أبيها، الذي لم يغادر غرفته منذ ماتت ابنته حزنًا، وطلب منه أن يقتصّ لها، فلقد ضاق ذرعًا بالحياة، ويريد أن يلتحق بالتي سكنت عقله ووجدانه.. لكن الملك عفا عنه وصفح، وقال:إنه قضاء اللـه وقدره، وأننا معشر الجن لسنا أقل إيمانًا به من بني البشر.. بل ونادى على ابنته الوسطى، وقال للدكر الذي كان مطرق الرأس وهو يشير ناحيتها: انظر إليها، إن نالت محبتك زوّجتك إياها في التو.. فرفع رأسه ورمقها بنظرة، انخلع معها قلبه، وأحسّ أن سحرًا من نوع خاص تملّكه، وأومأ في الحال موافقًا..

واقترن بالابنة الثانية، ولاقت نفس مصير أختها الكبرى في ليلتها.. وعقد العزم أن يُلقي بنفسه في النيل، ووصل إلى الشاطئ، وشمّر جلبابه، وأغمض عينيه، ومدّ ذراعيه، وهمّ أن يقفز.. فجاءه صوت ملك الجن، يناديه بصوت انقلعت من شدّته الأشجار المزروعة على ضفتي النهر من جذروها..

ـ ارجع يا ابن ملوك الأندلس!

ردّ باكيًا وهو يهزّ كتفيه بالرفض:

ـ مش راجع، آني عايز أغور في داهية!

ـ لا تبك ولا تبالي.. فإنا مزوّجوك خيرًا منهما!

ورجع عن رأيه، وذهب إلى قصر ملك الجن، وكان في استقباله ابنته الصغرى، كان شعرها الأسود فاحمًا، مثل ليل كفر الدكر، وعيناها زرقاوان كسمائها، كانت بيضاء مثل الحليب الصابح، ممدوة القوام كالغزلان.. ثنت جذعها، ومدّت إليه يدها البيضاء الناعمة، وقالت بصوت ناعم حنون يشبه الهمس:

ـ خدّامتك حُسن زاد!

وتزوج من الثالثة، ويده على قلبه من الرعب والخوف، خشية أن تُلاقي مصير أختيها، بيد أن الأمور جرت كما يشتهي الدكر، ومكثت تلك الأميرة معه سنين عدة، وأنجب منها عيالًا كثيرين، يردّد البعض أن الولد بسيوني من سلالتها..

ويتناقل على ألسنة الأجداد أن حُسن زاد هي سبب ما جرى له وأحفاده من بعده..

ففي الروايات المنقولة والدائرة، أن زواج المؤسس من إنسيات لم يفلح بالحصول على ثمرة، سوى عيل وحيد، اجتمعت في بدنه كل أمراض عصره.. بينما ملأت عليه زوجته الجنية الدار عيالًا،

حتى صار لا يستطيع أن يحصي عددهم.. فلعب الطمع في رأسه، وبزغ فجر حلمه بالعودة من جديد إلى الأندلس فاتحًا، ليسترجع ملكًا ضائعًا، ولم لا؟ وقد صار عنده من العيال مثل الأرز. وحاول التخلص من حُسن زاد، وباءت كل محاولاته بالفشل.. فاقتنص فرصة أنهما في فراش المتعة، وصارحها بحلمه، فابتهجت، وطلب منها أن تتخلى عن أولادها، لتتولى امرأته الوحيدة من الإنس تربيتهم، ليصيروا مثلها، ويكون جيشه منهم، ويسافر إلى الأندلس، طالبًا ملكه.. فصرخت في وجهه رافضة، لكنه باغتها حين عادت أباها المريض، بأن أخلى الدار من العيال، وأرسلهم إلى «ضرتها» الإنسية، استعدادًا لمعركة التحرير..

ولما رجعت، وبحثت عنهم دون جدوى.. رقعت بالصوت، وشقّت جلبابها، وشدّت شعرها الجني الأسود الطويل، كان بعضه قد أخفى وجهها.. وندبت حظها، الذي أوقعها في خائن، أسقطها في بئر حبه، الذي ليس له قرار، بينما رفيقاتها من الجنيات كن أكثر حظًا منها، ولم يخدعهن إنسي مثلها.. تحيّن فرصة رقاد أبيها الملك على فراش الموت وفعل فعلته الدنيئة.. وصرخت:

ـ صحيح ما يملاش عين البني آدم إلا التراب!

وحاولت أن تسترجعهم إلى حضنها، إلا أن مكر الإنسان لا يغلبه مكر، وخاصة لو كان نسائيًا، فامرأة الدكر الإنسية قدرت أن تملأ أدمغة العيال بحديث أنهم أمراء أحفاد ملوك الأندلس، وأن واجبهم المقدّس هو الزحف إليها، لتعود إليهم أرضهم ثانية، فصدّوا أمهم، وسدّوا كل منافذ الأمل أمامها، ليعودوا إلى حضنها، فأصابها الهمّ والكدر، وألقت بنفسها في النهر، في نفس المكان الذي كان ينتوي الدكر الانتحار فيه..

يظن أهل البلد أن ماجرى لعائلة الدكر كان عقابًا من اللـه لأجل تلك الجنية المسكينة، التي دعت على زوجها، وهي كاشفة رأسها، ورافعة يديها إلى السماء:

ـ إياك يا بعيد ماتعرف تتهنى ولا تفرح أبدًا، ولا يجعلك في الأرض ذرية!

٢

أن ينكح رجلًا من الكفر جنية، كان أمرًا يبدو منطقيا، لكن أن يطلب جني يد فتاة من البلد، هذا ما كان يثير المخاوف والرعب، والحالات عديدة كذلك..

كانت بخيتة، وهي بنت بنوت، تجمع القطن في أرض جناب العمدة، ودون سابق إنذار، انتفض جسدها، واصطكت أسنانها، وسقطت على الأرض، وأخذت تتمرّغ مثل الحمار الذي لدغته نحلة، ثم نهضت فجأة، وهرعت تاركة الأنفار، الذين تجمدت أطرافهم من الرعب، وانعقدت ألسنتهم من الهلع.. لحظات من الفزع، كن يرمقن بعضهن بعيون جاحظة، دون أن يحركن ساكنًا.. حتى رقعت أمها بالصوت، فالضنى غالٍ، وركضت خلف بنتها، وهي تناديها بصوت واهن قهره الزمن:

ـ خدي يابت.. ارجعي ياضنايا!

وترك الرجال الذين كانوا يشتغلون «مناصل» العمدة أعمالهم، وحلّقوا عليها، ونجحوا في الإمساك بها، بينما كانت تضربهم بيديها وقدميها، وتصرخ فيهم بعينين جاحظتين بيضاوين تثير الرعب، وشعر أشعث مكشوف:

ـ سيبوني أروح لعريسي يا ولاد الكلب!

زعق أحدهم فيها، وكان معروفًا بالقلب الميت:

ـ عرسة تاخدك وتاخد اللي جابك، ده ماعدش خيشة خالص، البت بتقولها عيني عينيك كده!

وظلت على هذه الحال شهورًا عدّة، كانت تترك الأنفار في الغيط فجأة، وتهرع بعيدًا، مما أثار ريبة خولي الأنفار، الذي كان يأتي من آن لآخر، متحججًا بإحصاء عددهم، غير أنه في الحقيقة كان يحب رؤية النسوان وهن محنيات فوق شجرة القطن، كانت تصيبه نشوة غريبة وهو يري مؤخراتهن أمامه كأنهن صرن أسيرات خاضعات بين يديه، بينما هو الملك المنتصر يصنع بهن ما يشاء، وكان من بين الأشياء التي تشعره بذاته أن يزعق فيهن، وهو يصطنع تجهمًا وجدية مزيفتين.. وواتته الفرصة، حين اكتشف أن الأنفار ناقصات واحدة، زعق وهو يضع العصا ودفتر الأوراق تحت إبطه:

ـ المرة الناقصة راحت فين يا نسوان يا ناقصة؟

برطمت أم بخيتة، بينما ألجم الخوف ألسنة الأخريات من الأفندي خولي الأنفار:

ـ هو ايه دي يا اخويا.. اسمه ايه ديه؟!

ـ بدل انتِ اللي رديتِ، يبقى مقصوفة الرقبة الغندورة بنتك، هي اللي ناقصة!

ثم صمت لحظة، وأرسل عينيه ذات اليمين وذات الشمال باحثًا عنها، وأردف:

ـ خليها في الدار، بدل بتيجي تصلبط هنا، احنا معدناش بناكل من الكلام ديه!

شرعت المرأة وصلبت ظهرها، وردت:

ـ صلبطة ايه يا سي الافندي.. البت مزنوقة، وراحت تتفك في أرض الدرة وجاية أهو..

كانت تهرب من دارها ليلًا، وتجري شبه عارية في شوارع البلد، وينتهي بها المطاف عند الكاتعة، التي كانت يجتاحها الغضب، فتلك ساعات عمل، يأتيها الزبائن، متسترين في جلباب ليل كفر الدكر الأسود، ويلاقوا بخيتة قاعدة فوق المسطبة أمام الدكان، فيعود الرجل خائب الرجاء، بعدما كان يمني نفسه بقضاء ليلة من المتعة في أحضانها.. وظلت البنت على هذه الحال، حتى وقفت حال المرأة، ولم يعد يزورها ولا زائر، غير ذلك الجريء الذي ظن أنه يستطيع أن يلج دارها خلسه، دون أن تراه الجالسة فوق مسطبتها، بيد أنها لاحظت دخوله على أطراف أنامل قدميه، وانتظرت حتى خلعا ملابسهما، ودقّت على الباب زاعقة بعلو صوتها:

ـ بتعملي ايه ياكاتعة انتِ والجدع جوز سمرة؟ افتحي يا وليه يا مفضوحة!

فارتديا ملابسهما في الحال، حين سمعا خبطها، وفتحت المرأة الباب، وهو متوارٍ خلفها، وفّر هاربًا، واضعًا ذيل جلبابه بين أسنانه.. وتوافد الناس عند دكان الكاتعة، التي كانت تصرخ في وجه الصبية وتضربها، لتبتعد عنها وعن دارها..

سألتها وهي تحاول اقتحام دارها:

ـ الراجل المفضوح جوز البت سمرة كان داخل حداكي ليه دلوقتي يابت؟

ردت زاعقة وهي تضرب يديها في بعضيهما بقوة، ثم تشير إلى بخيتة:

ـ راجل مين يا حبيبتي؟ مين ديه اللي يلمس شعرة من راسي بعد الدلعدي جوزي؟ دا ضفر صابع رجلي الصغير أشرف من كفر الدكر من كبيرها لصغيرها!

عمّ الارتياح النسوان اللائي حضرن وهن فرحات، بعد رفع الستار عن أعمال الكاتعة غريمتهن، التي تخطف أزواجهن من أحضانهن في أنصاف الليالي، بعدما يسرقون من وراء ظهورهن ذكور البط والأوز التي يتعبن في تربيتها.. وأومأ الرجال موافقين على حديثها، وصاح واحد منهم كان زبونها منذ عشر ليالٍ:

ـ قطع لسان اللي يمس شرفك بسوء.. دا انتِ خضرة الشريفة!

وهتف آخر كان مدعوًا لقضاء الليلة القادمة، وهو يربت على كتفها:
ـ ماتاخديش على خاطرك يا كاتعة يا اختي.. حد ياخد على كلام بت عبيطة؟
وأضاف ثالث، كان يعشّم نفسه بليلة ممتعة، رغم ضيق ذات اليد:
ـ يلا يا جدعان نودّي البت دي حدا سيدنا أبو داوود، يشوفلها صرفة.. بدل ما هي متلقحة عريانة كده قدام الجدعان.. لا جدع منهم يضحك عليها وتبقى جُرسة!
أجابوا جميعًا:
ـ عين العقل!
وردت الكاتعة:
ـ ربنا يسترها علينا وعلى ولايانا!
وضع يده الشريفة فوق رأسها.. وقرأ تعاويذه الغريبة المثيرة للرعب، في حضرة أمها، التي كانت الوحيدة المسموح لها بالولوج معها داخل العشة، كانت تصرخ في بادئ الأمر، وتحاول إبعاده عنها، كانت ترتجف كلما زاد في ترتيله الغريب، حتى سكتت، وسكن جسدها عن الحركة، واستلقت على الأرض..
وأبلغ سيدنا أمها أن جنيًا من قبيلة غريبة الأطوار ـ إذا تعلق فؤاد أحدهم بصبية، لا يتركها إلا إذا كانت جثة هامدة ـ قد هام بها.. وما زاد الطين بلة، أن ثمة عاشق آخر، ينتمي لقبيلة معادية للأول، وأن النزاع قائم بينهما على الفوز بها.. ثم صمت برهة وهو يرمق جسدها المسجي على الأرض أمامه.. وأردف:
ـ ربنا يتولاها برحمته..
رقعت أمها بالصوت، ولطمت خدها، ومزّقت جلبابها، وندبت حظ ابنتها:
ـ مالكيش بخت في الدنيا يا بنتي.. قال والمقصوف عمره أبوك، ما طرح ما راح.. لما ولدتك وآني معاه في الغيط، قولتله: نسميها مسعدة على اسم أمي.. ردّ عليا بصوته اللي كان زي صوت حمارة شيخ الغفر: لا أنا هسميها بخيتة على اسم أمي.. إلهي يولع عضمك في التربة انتَ وأمك يا بعيد، قال بخيتة قال.. طيب هتجيب البخت منين؟!
ثم رقعت صوتًا حيانيًا وعادت نادبة:
ـ ياحظك القليل يابنت قلبي!
حجبت المصيبة عقل المرأة، وأنستها أنها في ذلك المكان المقدّس، الذي دنسته بصوتها وندبها، فنهرها سيدنا، ونادى على الناس:
ـ تعالوا خدوا المرة دي من هنا.. داهية تاخدها وتاخد بنتها!
ولولا شفاعة الكاتعة لديه، لتخلى عن المسكينة، وتركها وحيدة تواجه عشيقيها المتعاركين لحيازة جسدها.. كانت الأنباء الواردة عنهما، تؤكد أن معركة نشبت بين القبيلتين، من تحت رأس البنت، فالإهانة والجُرسة والفضيحة بالنسبة لكل منهما، أن يحوز ابن القبيلة الخصم قلبها، ويعلن زواجه منها.. إنها الحرب التي لن تضع أوزارها، هكذا أعلنها كبار الفريقين، ولو ذهب كل أفراد القبيلة ضحيتها، فليس بعد حيازة فؤاد بخيتة والزواج شرف.. هكذا أبلغ سيدنا أبو داوود شيخ الخفر، الذي جاء إلى عشته، يرجوه التوسط لدى الجان، واستخدام سلطاته، ليتركوا البنت الغلبانة في حالها..

كانت تركض عارية ليلًا، وكان الخفر يتركون أشغالهم في حراسة البلد، ويطاردونها في الشوارع والغيطان، ليرجعوها إلى أمها النائحة أمام الدار، خشية أن يقابلها جدع من أولاد الحرام، ويضحك عليها، ويقولها في ظلمة الليل:

ـ تعالي معايه غيط العمدة، لاجل اتجوزك!

فيطير برج من عقل البنت، حين تسمع كلمة «اتجوزك»، وتذهب معه ولا تعلم أن ذلك الذئب قد دبّر تلك الخدعة، ليظفر بها وحيدًا في الغيط، حيث لايوجد صريخ ابن يومين.. بيد أن جدعان البلد، الشهادة للـه، كانوا يفضّلون مطاردة الحمير في الغيطان ليلًا عن ملاحقة بخيتة، حتى لو كانت عارية.. وقد نصح أحدهم صاحبه رجب الكلاف:

ـ عليك وعلى الحمير.. الحمارة مش هاتعشّر.. إنما البت دي لو اتمسكت هاتبقى فضيحة وجُرسة، وهتقع في أرابيزك!

٣

لم يعمل بنصائح صديقه، ووقع في المحظور.. فذات ليلة، لعب الشيطان برأسه، وإذا بالصبية تطوف البلد، وتمرّ بجوار زريبة العمدة، حيث يقيم، فنادى عليها هامسًا، ولوت عنقها تنظر تجاه الصوت، كان مواربًا باب الزريبة لكي لا يكتشف الخفر، الذين يحرسون الزريبة أمره. وأشار إليها بذراعه، بينما جسده بالكامل بالداخل:

ـ تعالي يابت أقولك!

ردّت عليه بصوت عالٍ وهي تدنو منه:

ـ عايز ايه يا بتاع البهايم انتَ؟

أخرج نصف جسمه بسرعة، ووضع يده فوق فمها وجذبها إلى الداخل، بينما كانت تحاول الصراخ، وقال لها وهو يربّت على كتفيها مهدّئًا:

ـ اسكتي يا بخيتة وآني أجيبلك رغيف عيش طابونة وطعمية من بتاعة البندر!

ردّت بلهجة صوت تشبه الأطفال الصغار:

ـ انتَ بتضحك عليا!

فكّر في حيلة أخرى، فليس لديه «عيش طابونة» ولا طعمية، وانسحب من لسانه ووعدها بالزواج.

انفرجت عضلات وجهها، وسألته:

ـ صحيح يا كلاف؟!

رد عليها وهو يلقيها أرضًا، ويرتمي فوقها لاهثًا، وواضعًا خرقة فوق فمها:

ـ إيوة يا بت!

ما حذّر منه الصديق قد وقع، ولم تعد بخيتة بنت بنوت، وعادت إلى دارها والدماء تسيل بين فخذيها، فرقعت أمها بالصوت، وخرّت مغشية عليها، وأفاقها النسوان، الذين هلعن حين رأين الدم السائل، وصوّتن وأخذن يضربنها ببلغهن:

ـ مين ابن الحرام اللي عمل فيكي كده يابت؟!

أجابت والدماء تقطر من رأسها وأنفها وفمها، وبصوت الذي يكاد أن يفارق الحياة:

ـ الواد رجب الكلاف!

ركض جدعان البلد إلى الزريبة، والتفّوا حولها، وهدّدوا إن لم يخرج المجرم الجاني سارق الأعراض منها حالًا، سوف يضرمون النيران فيها، وأتى العمدة على عجل، وهو يردّد:
ـ يايب هات العواقب سليمة، أتايي البهايم مابتجوزشي عليها أيام!
وأُخرج الجاني، الذي كان مثل الكتكوت المبتل من الخوف، واصطحبه الخفر إلى الدوّار، حيث كان الملط في انتظارهم، وخلفهم زفّة من رجال البلد، الذين كانوا يشيعونه بالسب واللعن، واللسع على قفاه.. وأدخلوه الحبس، وأغلقوا عليه الباب، وأمر شيخ الخفر الخلق بالعودة إلى البيت، وانصاعوا للأمر على مضض، كانوا غاضبين حانقين يتساءلون، وهم يضربون كفًا بكف، كيف لجدع غريب، أتى لكفر الدكر، ولا يُعرف له أصل ولا فصل، يعمل عملته المهببة هذه؟!
ومرّ يومان، كان الخفر يعلقونه عاريًا في سقف غرفة الحبس، وينهالون عليه بالسياط، وكان يصرخ من الألم:
ـ حرّمت ياناس.. حرّمت!
وكانوا يزيدون الضرب حتى تُنهك قواهم، وأرسل الملط مستدعيًا القابلة، وأمرها سرًا، أن تكشف على المجني عليها، لتستوضح ما حصل بالضبط.. وعادت إليه، وسألها، فأجابت بلهجة آسفة، وهي تهزّ رأسها وتضرب كفًا بكف، وتُحكم إغلاق باب دوّار العمدة، خشية تسرب الكلام إلى خارجه:
ـ عليه العوض ومنه العوض.. السيف سبق يا حضرة شيخ الغفر!
شخط فيها:
ـ حصل ايه يا مرة انتِ قولي؟
ـ بقت مرة.. منه للـه ابن الحرام.. اللي ما صعبش عليه بنت غلبانة زي دي!
زعق فيها وأشار إليها بإصبعه مهددًا:
ـ اكتمى على الخبر مابور.. ولو حد سألك قولي، لسه بنت.. أصل اقطع خبرك من الدنيا، اللي انتِ مش عايزة تسبيها أبدًا!
من الضروري في مثل هذه الحوادث ألا يصل إلى مسامع المركز شيئًا عنها، حتى لا يُفتضح الأمر، وتصير جُرسة كبيرة بين القرى، وتُصبح سمعة الكفر وسيرته على لسان كل من هبّ ودب، تلك ليست فضيحة عادية، إنها فاجعة، يجب معالجتها بالحكمة، فشرف كفر الدكر كلها بين فخذي امرأة منها.. ما يجعل الحادثة تبدو إلى حدٍ ما ليست كارثية تمامًا، ان الجاني جدع يسكن في البلد، يسهل التأثير عليه بالترغيب والترهيب الذي يصل أحيانًا إلى القتل، ليُصلح غلطته، ويتزوّج المجني عليها، ويا دار ما دخلك شر.. وهذا ما حصل لرجب..
ومن العجيب والغريب في كفر الدكر، أنها لن تتداعى هكذا، إذا كان الجدع منها، والبنت من بلد آخر، بل سوف تسود الفرحة والزهو جدعان البلد كلها، سيرفعون رؤوسهم في تعالٍ أمام أقرانهم من تلك القرية، ويا حبذا لو كانت كفر أبوعلي..
أما لو حصل العكس، وكانت الصبية منها.. صارت الفاجعة والكارثة مضاعفة.. يُطأطىء الرجال رؤسهم، ويحلقون شواربهم، ويتحاشون الخروج من الكفر، إلى أن يغسلوا عارهم، ويقتلوا بأيديهم ذلك الغريب الجاني، «ويتاووا» البنت، ولو تبيّنت لهم براءتها، فطالما وطأها جدع غريب، خارج نطاق الزواج الشرعي، إذن فقد مرمغت كرامة البلد في الوحل، وتستحق القتل، والإلقاء في البئر، والجاني دائمًا مجهول..

لم يمضِ أسبوع على الواقعة، وأُعلن عن كتب كتاب الكلاف على البنت، وأُقيم حفل زفاف، حضره أهل البلد كلهم، كانت النسوان والصبايا في دار بخيتة، يرقصن ويغنين وهن يضربن فوق أوانيهن النحاسية، كالفرق الموسيقية، خلف واحدة منهن:

ـ ع العجلة وشابكها!

ويرددن بنفس واحد خلف المغنية وهن يضحكن، ووجوههن قد استحالت حمراء من الخجل:

ـ هيه!

ثم تعاود المرأة الغناء:

ـ ع الفستان اللبني.. أول مادخل!

ـ هيه!

ـ دخل ع السرير.. قلعها الحرير واتكل على اللـه!

وكانت بعضهن ينزوين في ركن بعيد، ويضعن أياديهن على أفواههن، ويهمسن، وهن يتابعن العروس تضحك وترقص وسط حلقة مكوّنة من رفيقاتها..

ـ شوفي المزغودة!

ـ إيوه يا اختي.. بتتنطط زي القرود أهي.. أومال كانت بتصلبط ليه وتقول راكبني جن، داها وجيعة!

ـ لأ كانت دايرة في البلد، وبتقول جدعين من الجن، بيتخانقوا عليا!

ـ على رأي المثل.. الميت كلب والجنازة حارة!

ـ آني عارفة دي بيراعوها إزاي.. دي كلاب السكك تقرف منها!

ـ ههه.. جايز نِفس رجالة الجن حلوة!

وكان جدعان البلد حاضرين أمام الدار، يغنون ويرقصون ويداعبون العريس، الذي كان جالسًا فوق كنبة العمدة، فوق كومة قش عالية، متجهم الوجه، شارد الذهن، كأنه مات له ميت.. وهمس جدع لجاره، وهم يتابعونه:

ـ مالها الحمير يا وله.. مش أحسن ما نوقع الواقعة السودة دي؟

أجابه الآخر ضاحكًا:

ـ ههه آه وسيدي الطاير!

تزوج الكلاف بخيتة، وأنجب منها العيال، ولم تعد تُغادر دارها شبه عارية في أنصاف الليالي كالمجنونة، يبدو أن الجنين لقيا مصرعيهما، وماتا بعد صراع مرير لحيازة قلبها، والظفر بالزواج منها، أو أنهما آثرا تركها لتسعد مع شريك عمرها الإنسي، حتى لو تألما، فالمحب يضحي دائمًا أجل من يحب.

لكن للكاتعة رأي آخر، فلولا توسط سيدنا أبو داوود لها، لدى كبار القبيلتين اللتين ينحدر منهما العاشقين الغريمين، والطلب منهم أن يردعوا عيالهما، ويكفّا أذاهما، عن تلك الصبية اليتيمة، وبنات الجن على «قفا من يشيل».. ما تخلّى عنها الجنين لهذا الكلاف أبدًا.

٤

انتحت به جانبًا، بعدما طلبت من ابنها الابتعاد قليلًا، وهمست في أذنه:

ـ البت جايلها عريس!

أصابته الدهشة والاستغراب، وقال وهو يهزّ كتفيه غاضبًا:
ـ ماحدش مهوّب ناحية نفيسة، بقى هاتسيب ابن الدكر على سن ورمح وتتجوّز غيره؟!
استشاطت غضبًا، وردّت وهي تُضيّق عينيها من الغيظ، وتضربه بظهر يدها فوق صدره بقوة:
ـ دكر مين ونتاية مين؟ آني بقولك على البت زنوبة بنت بيومي!
كانت الصبية في زيارة معتادة إلى أمها عند القرافة، وشبط العيال إخواتها الجن فيها، وطلبوا منها المبيت معهم تلك الليلة، ورضخت لرغبتهم، وجاء زائر، وسلّم وصافح، كان ابن خالتها سهير ساكنة البئر، أتى حاملًا رسالة سلام، تحاول إنهاء النزاع الدائر بين الأختين، فمن العيب أن تدور أخبارهما على ألسنة الأغراب، ومازاد وغطّى، أن بني الإنس من سكان الكفر قد عرفوا بما جرى، وأصبحت الحادثة والجنيتان الأختان وسيرتهما على لسان إنس كفر الدكر الأوغاد، يتناقلونها في الغيطان وعلى المصاطب أمام ديارهم..
كانت سماسم وابن أختها لوحديهما يتجاذبان أطراف الحديث، بعدما نام العيال وبينهم زنوبة، أختهم نصف الإنسية ونصف الجنية، كانت تبكي، وقالت بلهجة شبه معاتبة:
ـ يا ريتني ما عشت لليوم اللي أختي بنت أمي وأبويا، تلم عيالها ويضربوني، وكمان تعايرني ببيومي جوزي!
ربّت الزائر على كتفها وهو يكاد يبكي:
ـ معلشي يا خالتي امسحيها فيّ.. أمي من يومها وهي نايمة في قعر البير، مش جايلها نفس تاكل ولا تشرب!
واستيقظت زنوبة على بكاء أمها، وانتفضت مرتعبة، وسألت وهي ما بين النوم واليقظة:
ـ خير يا اما؟
ردت وهي تشير بظهر يدها، وتحاول إخفاء وجهها:
ـ مفيش يا ضنايا!
التفت إليها الضيف، فارتبك واضطرب ولم يستطع أن يلفظ بلفظة، لما رآها، كأن جمالها عقد لسانه، وألجم عقله عن التفكير، وصارت هيئته مثل المجاذيب، فاغرًا فاه عن آخره، وجاحظًا عينيه.. ولاحظت سماسم ما اعترى ابن أختها، ونادت على ابنتها، وهي ترمقه بطرف عينيها، مبتسمة:
ـ تعالي دك وجع في قلبك، سلمي على الجدع!
رفعت زنوبة عينيها التي مازالت فيهما آثار النوم، وقالت وهي جالسة على الفراش، بلهجة غير مكترثة:
ـ مين ديه يا اما؟
ـ ابن خالتك يا مضروبة!
كان يتابع الحديث، كأنه قد أصيب لتوه بالخرس، ولم تنزل عيناه عنها، ووكزته سماسم في كتفه وسألته ضاحكة:
ـ مالك يا حبة عيني؟
قفز إلى أعلى من الوكزة، واستفاق، وقال متهتهًا، وهو يستجمع المفردات، ويمدّ يده إليها ليصافحها:
ـ ازيك يا بنت خالتي؟

ومنذ تلك الزيارة والجدع الجني قاعد عند خالته بالقلادة، ينتظر زيارة الصبية لأمها، وإن كان ثمة شك أنه يطوف حول دار الكاتعة طوال الليل، ليكون بالقرب من حبيبة قلبه.. ولما استبدّ به الوجد والجوى، ولم يعد قادرًا على إخفاء العشق، الذي يكاد يفتك بقلبه.. صارح خالته، وجاءت أمه تطلب يد زنوبة له، وعمّت السعادة والبهجة قلبي الأختين، سوف تعود المياه إلى مجاريها، وسيرجعان أفضل حالًا مما كان، بعد طلب الولد يد البنت.. وانتظروا جميعًا العروس تأتي، وهذا لم يحدث، واستأذنت الأخت، ونهضت وهي تنفض عن جلبابها الغبار، وبدا على وجهها أن شيئًا ما عكّر الصفو:

ـ طيب آني مروحة.. أشوف عيالي اللي مادقوش الأكل من الصبح!

ردت سماسم وهي تكظم غضبها غيظًا من ابنتها، التي أرسلت إليها أخوها، لتكون في استقبال العريس وأمه، ولم تلقِ لها بالًا:

ـ الغايب حجته معاه!

ثم ربتت على كتف ابن أختها، الذي كان يقدّم قدمًا ويؤخر أخرى، لا يريد العودة إلى البئر، قبل رؤية زنوبة:

ـ اطمن وحط في بطنك بطيخة صيفي يا وله.. البت ليك.

تلك الحكاية روتها الكاتعة لبسيوني، الذي كان يبدو عليه الاهتمام والانتباه لحديثها، وحين انتهت منه، قال بلهجة تبدو بلهاء:

ـ وزنوبة هتلاقي فين حد أحسن من ابن خالتها؟

ثم تلفت يمينا ويسارا، وهمس مردفًا:

ـ والنبي يا خالة.. دا عريس واقعلها من السما!

احمرّ وجه المرأة، وتنمرت عيناها، وتقطّب جبينها، وصرخت وهي تضرب راحتيها ببعضهما وتفردهما ناحيته:

ـ ليه يا دلعدي؟ دي زنوبة ست البلد كلها، لولاشي الحظ بس، كان زمانها في العلام وهتبقى ضاكتورة زي بنت الكلاف، دي ياحبة عيني لما بتلبس وبتتغندر بتبقى أحلى من الست ليلى مراد!

انتظرت زنوبة تأتي لزيارتها أيامًا عدّة، دون جدوى.. وشيعت لها أخوتها واحدًا وراء الآخر، فألقت الصبية بكلامهم في مياه الترعة العمومية.. ونزلت بنفسها، تبحث عنها في الكفر، وعادت بخيبة أمل عريضة، فالبنت احتمت بسيدنا الطائر، ولا أحد من الجن، وخاصة من الرعايا، يجرؤ أن يطوف حول العشة المباركة، إلا إذا كان ذا عقل ضائع، لأن مصيره دائمًا الحرق..

٥

رجعت الجنية عند القرافة تبكي وتنوح وتضرب الكفوف وتشقّ الجيوب وتندب الحظ.. فالشائعات تطوف حول أبيها الإنسي بيومي، بأنه واقعها وعاشرها معاشرة الرجل لامرأته.. وأقسم دسوقي الدكر أنه رأى العبيط بأم عينيه، واضعًا ذيل جلبابه بين أسنانه، ومستلقٍ في أرض الذرة القبلية فوق «مقصوفة الرقبة»، التي كانت عارية كيوم ولدتها سماسم..

استغلت البنت «عبط أبوها»، وأغوته كما تُغوي الجدعان الصغار.. وكما تصنع الكاتعة التي ربّتها مع رجال البلد الكبار.. انقسم الكفر، منذ روى ابن الدكر تلك الواقعة، إلى أحزاب، كان الفريق الأكبر يرى أنه من الواجب المقدّس طردهما، حتى لا يُنزل اللـه سخطه وعذابه على كفر

الدكر، فليس بعد ما جرى ذنب.. ويخشى هؤلاء كذلك أنه لو ظل العبيط وابنته في البلد، سوف يسخط اللـه أهلها قرودًا، تسكن فوق الأشجار.. ويقفز الذكر على الأنثى، دون مراعاة ما إذا كانت أخته أو أمه أو ابنته..
لكنّ فريقًا آخر تتزعمه الكاتعة، طالب باستخدام العقل والحكمة قبل اتخاذ أي إجراء من شأنه أن يقلب على البلد الجن أقارب زنوبة، وسيجر عليها ويلات لا يعلم مداها سوى اللـه، وانضم لهم سيدنا الطائر، الذي حذّر من طيش هؤلاء الذين سوف يأخذون البلد في داهية.. وإن كان ذلك الفريق قد بدا هو الأقل عددًا من الآخر، لكنه تزايد مع الأيام.. وباتت كلمته هي العليا.
وهناك فريق ثالث، كان أنصاره يردّدون في الخفاء، بأصوات هامسة، ينكرون أن تكون زنوبة من صلب بيومي العبيط، لأنه لا يصنع ذلك سوى أبناء الحرام فقط.. وذهب بعضهم إلى أن سماسم هداها اللـه ـ كما كانوا يردّدون ـ ربما وقعت في الزنى، وحبلت من جني، وخافت غضب أهلها، وضحكت على الولد بيومي، وتزوجته، وعلّقت البنت في رقبته.. ومن بين هؤلاء من يُكّذب أمومتها للبنت، ويرى أنها فرية أرادت من ورائها الكاتعة إخفاء حبلها سفاحًا، وألقتها في حجر العبيط والجنية.. استنكر من سمع ذلك وقال: لو صح هذا الحديث، لم تكن لتسمح الجنية أن تُلوث سمعتها وسمعة زوجها، ولكانت انتقمت شر انتقام من الكاتعة. وهذا ما رآه الناس عين العقل والحكمة.

٦

كعادة نسوان البلد، لم تفت إحداهن الفرصة السانحة دون مشاركة واضحة، كن ينقين الغلت من أرض العمدة، وكانت رغبة الحديث تكاد تحترق في صدورهن، تودّ كل منهن أن تقصّ غيرها شريط الكلام، كن يرمقن بعضهن من تحت لتحت، ينتظرن الجريئة التي ستبدأ.. وشرعت إحداهن، وأرسلت عينيها ذات اليمين وذات الشمال تراقب السكة الوسطانية، ولما اطمأنت أن ليس ثمة رجل يقترب منهن، ألقت حجرًا في المياه الراكدة، وسألتهن وهي تعرف كما تعرف عيالها، أنهن جميعًا لديهن إجابة لسؤالها:
ـ مادريتوش يا بت انتَ وهي؟
أجبن بنفس واحد:
ـ خير يا مفضوحة انتِ؟
أصابها ردهن بالضيق قليلًا، فهي تعلم أنهن يعلمن دبّة النملة في البلد، ولكنه بروتكول متعارف عليه بين نسوان الكفر، أن التي تبدأ الحوار في مثل هكذا أحاديث، تطالها بعض شظايا ألسنة الأخريات المتلهفات شوقًا، رغم ما يبدين من عدم اكتراث وصدّ.. وقد تمتنع المرأة التي نقّبت عن طرف الحوار، وتصيح غاضبة وهي تهزّ رأسها إلى الخلف عاندة عليهن «طب واللـه ما أنا قايلة».. فتنقلب الآية عندئذ، ويتخلين عما أظهرنه منذ لحظات من حشمة، ويترجينها، لتعاود الحديث الذي يحترقن لهفة لسماعه، وإن سدرت في غيّها، وتمنعت، التقطت أخرى طرف الحديث، وأعلنت عن بداية جديدة له..
لكنها لم تعاند زميلاتها، وقالت بعد شهقة وزفرة قوية، وضربة باليد على صدرها:
ـ بيقولوا ابن الدكر.. شاف الواد بيومي العبيط في الغيط!

وأمسكت عن الكلام بحرفية، لتزيد حوارها إثارة. وسألنها بنفس واحد ملتهفات، رغم علمهن بما حدث، لكنه الفضول نقطة ضعفهن الكبرى:
ـ كان بيهبب إيه في الغيط؟
راقبت الطريق ثانية، وانتظرت لحظات كانت تنظر إلى وجوه رفيقاتها في تشفٍ، انتقامًا منهن لأنهن أعلن في وجهها الفضيلة والحشمة.. وقالت بصوت هامس:
ـ كان نايم مع البت بنته!
رددن وكأنهن متفاجئات، وهن يضربن على صدورهن بقوة ويعوجن أفواههن يمينًا ويسارًا:
ـ يا دي الفضيحة.. يعني ضاقت في وشه ابن الكلب، ملاقاش إلا ضناه.. ربنا يسترها على البلد!
وأمسكت أخرى بطرف الحديث وقالت وهي ترفع سبابتيها وتقربهما من بعض وتبعدهما، وتعوج فمها يمينا ويسارًا:
ـ سبنا إيه للبهايم.. يا وكستي..يافضيحة بنتي لو قرايب جوزها في كفر أبوعلي شموا خبر.. يا حبيبتي يا بنتي.. منهم للـه ولاد الكلب اللي جرسوا كفر الدكر!
وعاودت المرأة التي بدأت الحديث، وقالت:
ـ ابن الكلب العبيط مش مقضياه سماسم الجنية مراته، ولا الحريم اللي بيروحلهم في انصاص الليالي، ورايح يقزح على بنته.. على رأي شيخ الغفر.. شكلها كده واللـه أعلم، القيامة هتقوم بقى، لأنه ماعدش مساخر بعد كده!
سألتها إحداهن وهي تغلق إحدى عينيها وتفتح الأخرى، وهي تشير إليها:
ـ يا شيخة اسكتي، هو بيومي العبيط ديه له في النسوان؟
أجابتها جارتها ضاحكة وهي تضربها على صدرها، وتصطنع الخجل:
ـ العبيط اللي مش لادد عليكِ، عليه طرف قد كداهو!
وشمرت عن ذراعها، وطوّقته بيدها الأخرى من عند المرفق، ثم راحت تهزّ راحتها بقوة.
تهالكن من الضحك، وأصبحت الشمس في وسط السماء، وجاء خولي الأنفار، ممتطيًا حماره، ورافعًا فوق رأسه شمسية، ونادى عليهن وهو على السكة:
ـ يلا روحي، يا مرة انتِ وهي في داهية.. وبكرة من النجمة اوعي واحدة منكم تعوّق!
أحست النسوان أنهن سجينات يعملن في السخرة تحت أشعة شمس كانت جزءًا من العقاب، وأن ذلك الرجل الذي شخط فيهن، ليس سوى حارس باب السجن.. فتح لهن، وفُتحت معه أبواب الأمل، التي سرعان ما تُوصد ثانية، مع أول ضوء في صباح اليوم التالي.. رغم أن كثيرًا منهن لا يشعرن أبدًا بالحرية، فهن دائمًا سجينات الشغل في الغيط عند العمدة، وسجينات ديار أزواجهن، الذين لا يتورعون لحظة أن يرفعوا أياديهم، وينهالوا عليهن ضربًا وسبًا، فتلك من علامات الرجولة في كفر الدكر، فالخرع هو ذلك الشخص الذي يضحك في وجه زوجته، ويناديها باسمها، وقد يتطرف في الأمر ويلاطفها، وذلك الصنف ليس له وجود في البلد، إذا ما استثنينا دسوقي الدكر، الحالة الخاصة والنادرة، وهو يمثل أولئك المغلوبين على أمرهم..

٧

في الغيط، حيث يعمل رجال البلد، في الحرث والزرع والقلع، يتفاخرون دومًا أمام بعضهم بمعاملتهم الخشنة الفظة لنسوانهم، اللاتي يرون أنهن خلقن من ضلع أعوج، ومن واجبهم كما كان

يخطب فيهم الشيخ محروس.. أن يعدلوا ذلك الضلع أو يكسروه.. إنهن شياطين، إذا تحدّث معهن الرجل باللين والدعة، امتطينه «ودلدلوا» سيقانهن، كما يمتطي غريب الملط حمارته..
وفي يوم كان أحد الخفر يعسّ في شوارع البلد، وسمع صوت زوجين، ولزق أذنه في شباك غرفتهما، كانت المرأة تتمنع، بينما بعلها يتذلّل، ويطلب منها المعاشرة، ويردّد كلامًا قليل الحياء، يقول كلامًا فارغًا، من قبيل يا حبيبتي، يا قطتي.. ولما خمد صوتيهما، هرع الخفير إلى رفقائه، وقصّ عليهم حكاية ذلك الخرع، الذي لا يستحق أن يكون ذكرًا من كفر الدكر.. وانتقل خبر ذلك المسكين في البلد كلها، كانتشار النيران في قش الأرز.. وهطلت أمطار السخرية والتقريع على دماغه، من أقرانه، وهم يحرثون أرض الذرة. قال الخفير وهو يقلّده:
ـ يا حبيبتي!
وتطوّع حمودة الحمارة بلعب دور امرأته:
ـ عايز ايه يا حبيبي؟
ولم يتمالك الفلاحون أنفسهم من الضحك، وتركوا فئوسهم، واستلقى بعضهم أرضًا، وبينما كان الرجل بائس الحظ، مرتكزًا على فأسه، رقبته أصغر من السمسمة، ووجهه محمرًا من الخجل، ما أثار انتباه الخفير، الذي حاول أن يخفّف الوطء عليه، وأشار إلى أحد الذين كانوا مستلقين على الأرض من كثرة الضحك، وقال ساخرًا:
ـ قوم يا وله، عاملي دكر!
ثم رمق باقي الفلاحين، ليكفّوا عن صنيعهم، وينصتوا إليه.. وعاود الحديث:
ـ المفضوح ديه.. آني شوفته بعنيا دول.. وهو بيتمسخر وبيتقبح مع مراته وبيبوسها، من ليلتين تلاتة، واللي زاد وغطى، كانوا سايبين اللنضة الكاشف سارجة!
تلاقت راحاتهم في بعضها عجبًا واستغرابًا، وانتقلت السخرية والتريقة إلى ذلك الرجل، الذي لثم خد زوجته، وأردف وهو يضرب كفًا بكف ويهزّ رأسه:
ـ عليه العوض ومنه العوض في كفر الدكر، على رأي حضرة شيخ الغفر، الرجالة عادت بتتصرمح في البندر، وبتخش السيما، وبتشوف القباحة، لحدما فرغت عينيهم، وفرغوا عينين نسوانهم!

٨

أرسل الحاج حاشيته في البلد ينادون على أهلها، ويطلبون منهم لقاءه عند حلول الليل، هناك في الجرن، المجاور لقصره.. وفي الميعاد حضر الناس، وهم يتساءلون فيما بينهم، لم أتى بهم الغتت إلى هنا؟ كان لا يقابل أحدًا في هذه الأوقات فتلك ساعات عمل، والرجل كان لا يعرف أمه أثناء الشغل.. كانت الزينة معلقة في كل مكان، والأنوار تُضيء الجرن والغيط المجاور كله، أجواء احتفالية كأنها الليلة الكبيرة في مولد سيدي السيد البدوي، دبت السعادة في أوصالهم حين رأوا أتباع الحاج، يحملون الصواني ويضعونها أمامهم، ذبح لهذه المناسبة عشرة عجول مرة واحدة، وتكتم على خبرهم، ليصنع مفاجأة لهؤلاء الفلاحين الذين لا يرون شرائح اللحم سوى في العيد الكبير، حيث يذبح هو نفسه الأضاحي ويوزعها عليهم..
أكلوا وامتلأت بطونهم، وأعلن بعضهم حزنه، فلو كان يعلم بخبر ذلك الطعام الشهي باكرًا، لكان امتنع وعياله عن الأكل طيلة يومين، ليفرغوا بطونهم لتلك المناسبة العظيمة، لكن عملًا بالمثل

القائل، «اخسر بطنك، ولا تخسر أكلك»، التهم هؤلاء الطعام عن آخره.. ولم يعد بمقدروهم الكلام أو التنفس وافترشوا الأرض، وانتظروا أن يطلّ عليهم الغتت من شرفة قصره..
كان كل منهم يسرح بخياله، ويخمّن، ماذا وراء تلك الدعوة، قال أحدهم وهو يلتقط نفسه بصعوبة:
ـ أكيد عيّل من عيال الحاج بيطاهر.
رد آخر وهو مستلقٍ على جانبه على الأرض، ورأسه مرتكزة على راحته:
ـ طهور ايه يا بجم؟! الراجل طاهر عياله كلهم!
ثم خفض صوته، وتلفّت يمينه ويساره، وأردف بعدما اطمأن من ابتعاد حاشية الغتت عنه:
ـ أقطع دراعي داهو ـ وأشار إلى ذراعه ـ شكله وقع على زريبة معتبرة، من زرايب عمدة كفر أبوعلي، وكان نادر انه لو سقط عليها ليعمل يوم للـه، ويأكل الغلابة!
وهتف الحاضرون بحياة فوزي الغتت، ورفعوا أكفّ الضراعة، ودعوا له، متشفعين بالنبي حبيبه وبسيدنا الطائر، أن يرزقه عمرًا مديدًا..
وأطلّ بجلبابه الصوفي وعباءته الحرير وبجواره جناب العمدة، الذي مازال يلوك الطعام في فمه، بثيابه التي لم تتغير يومًا.. وسيدنا الطائر، الذي كان نادرًا ما يخرج من عشته. وصاح في الخلق، وهو يلوّح إليهم بعصاه المذهبة:
ـ العوافي يا رجالة البلد!
هتفوا بصوت واحد، وهم يتسابقون بالتلويح إليه بأذرعتهم، وقد بدا عليهم الخمول والكسل:
ـ العوافي يا حاج!
وألقى كلمته، وأعلن عن شعوره بالزهو والفخر لانتسابه للكفر، وأنه حفيد للدكر المؤسس.. والتفت بطرف عينيه ناحية الطائر الذي كان قاعدًا على كرسيه بجواره.. وجحظت عيون أهل البلد، وتبادلوا النظرات المستغربة، منذ متى كان فوزي ابنًا للدكر؟ وعلا صوت الهمس بينهم، وصاح فيهم أتباعه ليكفّوا عن الضجيج، وينصتوا للغتت، الذي واصل كلمته، وقال وهو يميل بجذعه إلى الأمام مبتسمًا:
ـ عايز أقولكوا حاجة يا أهلي ويا ناسي.. بعد ما خدت موافقة جناب العمدة موسى ـ نظر إلى يساره حيث كان العمدة يومئ برأسه ـ واستباركت ببركة سيدي وتاج راسي وراس البلد والعبّ كله ـ والتفت إلى يمينه حيث كان الطائر مستربعًا، يعبث بحبات مسبحته الطويلة مغمضًا عينيه ـ نويت أترشح لمجلس الشعب.
أطلق رجاله الذين كانوا ينظمون الصفوف الصافرات المبتهجة، وأصابت الدهشة أهل البلد للحظات، يتساءلون فيما بينهم، أي مجلس يقصد؟ لكنهم تداركوا أمرهم سريعًا، وشاركوا في الاحتفالات الصاخبة المعلنة عن سعادتها العارمة، بترشح ابن بلدهم فوزي الغتت لعضوية البرلمان.. وطاف بيومي العبيط البلد بزمارته، وخلفه العيال، يهتفون:
ـ أوبا أوبا أوبا.. الغتت تحت القبة!
ورفع أتباعه اللافتات المؤيدة له في مداخل البلد، وعند دوار العمدية ودار غريب الملط، الذي كان راقدًا في فراشه بين الحياة والموت، بينما أعلن دسوقي بعد سهرة في قصره، أن الرجل دكراوي أبًا عن جد.. وسارت الشائعات في الكفر،أن دسوقي اللـه يسامحه فرّط في سمعة عائلته العريقة من أجل حجرين حشيش مخصوص، تشارك مع الغتت في شربهما، وطفقت عيون الخلق ترمقه بنظرات مستهزئة ساخرة، حتى الجدع ابن أخيه قاطعه أيامًا عدّة، بعدما رأى أهل البلد يأكلون

وجهه، ويلومونه على فعلة عمه، فالدكر المؤسس كان بمثابة مصدر للفخر والإعزاز للكفر وأهله كلهم، رغم ما قد يظهرونه من سخرية واستهزاء من أحفاده.. لكنهم كانوا يباهون به البلاد الأخرى، وبخاصة كفر أبوعلي، فهو الذي ـ حسب رأيهم ـ «علّم على نسوانهم».. والآن يا عيب الشوم، ياليته كان أنجب ذكرين بط، وأكلهما في الحال، ورمّ بهما عظامه واستنفع بهما، ولم يترك من بعده ذرية ضعافًا، يبيعون ماضيهم العريق بحجرين حشيش!

٩

ذات ليلة كان الفتى الصغير فوزي نائمًا، وجاءه في المنام رجل يلبس جلبابًا أبيض وشالًا أبيض، وجهه يشع نورًا، وهمس في أذنيه بصوت حنون، وهو يضع يده الشريفة على رأسه:

ـ ارجع بلدك يا ولدي!

جحظت عينا الغتت مستغربًا، وصاح:

ـ آني قاعد في بلدنا يا سيدنا الشيخ!

هزّ الرجل رأسه نافيًا، وهمس:

ـ دي مش بلدك.. مكانك هناك..

وأشار فاردًا ذراعه علامة على بعد المسافة. بكى وضرب بقدميه الأرض مثل الأطفال الصغار، وقال وهو يهزّ رأسه:

ـ لا دي بلدي.. ابعد عني.. مالكش صالح بي!

وتركه ذو الثياب البيض، وقد ارتسمت على وجهه علائم اليأس والحزن.. واستيقظ من نومه مفزوعًا، ونادى على أمه، التي كانت نائمة في حضن زوجها، فلم تلبي نداءه، إلا عندما حلّ الصباح، واستعدّ «للسروح» إلى الغيط بالبهائم.. وقصّ عليها رؤياه، فاستبشرت خيرًا، لكنها عجزت عن تفسيرها على وجه الدقة..

وتروح أيام وتأتي أخرى، ومازال تائهًا في تفسير حلمه، كان يشعر بالحاجة لذلك الرجل الطيب، ويختلف إلى مصلى البلد هناك على حرف الترعة، ويدعو اللـه، ليسوقه إليه.. رغم أنه من قبل لم يضبط يومًا يركعها، وتأخرت تلبية الدعاء، حصادين كاملين..

وزاغ الأمل في متاهة الأيام، ويأس من رؤيته ثانية.. وذات يوم كان نائمًا، وجسده يرتجف وأسنانه تصطك من شدة الحمى، إذا بالرجل الطيب يضع يده على جبهته، فتذهب آثار الحمى من بدنه في الحال إلى غير رجعة.. ويفتح عينيه ويرمقه، ويبادله ابتسامة بابتسامة، ويحدّثه الطيب بصوته الذي يشبه الهمس العذب:

ـ هترجع بلدك يا فوزي!

أجاب في التو:

ـ إيوة يا سيدنا!

ثم سكت لحظة، وتجهم وجهه قليلًا.. وأردف:

ـ بس هي فين دي؟

أجابه وهو يهم بالانصراف نافذًا من الحائط، كأنه يخرج من باب مفتوح على مصراعيه:

ـ بلدك ماتوهشي يا ولدي..

ويكمل الحاج حكايته، التي أقسم لأهل البلد بالطلاق ثلاثًا من نسوانه الثلاث، وكذلك زوجته الجنية الرابعة، أنه احتفظ بسره ذاك، ولم يكن في نيته البوح به لولا أن الطائر أمره بذلك، وأمر سيدنا لا يُردّ..

استأذن الشاب فوزي من أمه، وودّع إخواته، وحمل بقجته فوق ظهره، وقصد بلد جده الدكر، كان يقطع البلاد، ويسأل العباد عن ذلك البلد، ولم يجبه أحد، ونال منه الاحباط واليأس ما نال، وقعد مفترشًا الأرض ينظر ذات اليمين وذات الشمال داعيًا اللـه أن يفرّج كربه..

وبينما هو متضرع إلى السماء، تراءى لناظريه مكان متواضع على شط الترعة، وسمع هاتفًا ينادي، تعالى يا ابن الدكر، وذهب يطارد مصدر الصوت، ووقف على الباب مترددًا، فسمع الهاتف ينادي ثانية، ادخل بقدمك اليمين يا ابن الأصول.. وولج المكان، وكانت المفاجأة التي أذهلته، وألجمت عقله عن التفكير، وأمسكت لسانه عن الكلام.. ولاحظ الرجل ما به من اضطراب، ووضع يده المباركة على كتفه، وأمره بالجلوس، فاطمأن فؤاد الغتت، ونزل على قدمي سيده، يقبّل الأرض، كأنه طفل تائه عثر على أهله.. وهتف سيدنا:

ـ أهلًا بيك يا ابن الدكر.. نوّرت دارك ومطرحك.

أمسك الحاج للحظات عن الحديث، من كثرة الضحك على منظره وهو يتذكّر حين رمق في العشة ذلك الرجل الذي رآه في منامه، وتهالك أتباعه والناس من بعدهم من الضحك، فحاشيته لايضحكون أبدًا دون أوامر..

وعاود الحكي.. وفي عشة سيدنا، قعد الشاب على الأرض، وقص عليه الطائر.. أن جده الدكر الكبير، كان رجلًا «فلاتي»، «عينيه زايغة»، يفتش عن النسوان أينما ذهب، وإذا به أثناء رحلته من الأندلس، وقبل أن يحطّ رحاله في الكفر، حوّد على بلد صغير في حضن نيل رشيد، وخطفت أنظاره امرأة فارعة الطول، مليحة القوام، فاتنة الجمال، فغشيها في الليل، وفي الصباح ارتحل عن البلد كأنه فص ملح وذاب، وتركها تندب حظها، وسوء بختها، وفضيحتها التي ستبقى بجلاجل في قريتها. وكتمت خبرها في نفسها، واقترنت بآخر، سبق له الزواج سنين عدّة، ولم يقطف زواجه ثمرة واحدة، فلما أخبرته يومًا بحبلها، سقط ميتًا في لحظتها من شدة الفرحة، وولدت ذكرًا، وأنجب الذكر الأولاد، وصار لديه أحفاد كان من بينهم فوزي..

لما فرغ الحاج من روايته، هتف رجاله وخلفهم الناس، وطاف بيومي بالعيال الصغار في البلد:

ـ يعيش الحاج فوزي.. دكر من صلب دكر!

١٠

آه يا زمن!.. غريب الملط الذي كان إذا سعل، انخلعت مفاصل أهل البلد.. كانوا يتودّدون إليه، ويسجدون بين قدميه.. الآن.. تركوه وحيدًا على سريره، تنهش الأمراض جسده، وتلتهم الكآبة قلبه.. فأطباء البندر أولاد كلب لا يعرفون البلا من العمى حسب رأيه، يهمهم أن يلتقطوا الفلوس من جيوب المرضى الغلابة، كالنشالين الذين كان يقبض عليهم، حين كان في الخدمة..

طلب العودة إلى داره، ليكون وسط الناس، بيد أنهم تركوه، والتفوا حول الغتت، الذي كان يراه حضرة شيخ الخفر ـ سابقًا ـ خارجًا عن القانون.. اليوم يجتمعون حوله، ويهتفون باسمه، ويسجدون له، كما صنعوا للملط من قبله، ففي كفر الدكر دائمًا يكون السجود للأقوى!

باءت كل محاولات علاجه بالفشل، ورقد على فراشه منتظرًا الموت، يصيح بين الفينة والأخرى بصوت واهن قهره المرض، وهو يسمع الخلق وهم يمرون من أمام داره، وحناجر تهتف للغتت، الذي صار بقدرة قادر، دكرًا ابن دكر:

ـ دي من علامات الساعة، المهابيل ولاد الجرابيع، يهتفوا لحرامي البط. آه يازمن.. شكلها القيامة قامت، وكفر الدكر سقطت من القيد!

وكانت زوجته، التي نشفت على عودها من الحزن عليه، تربت على كتفيه وتواسيه، وهي تردّد باكية:

ـ ريّح نفسك يا راجل، ماحدش هينفعك، ملعون أبو البلد باللي فيها.. صحتك بالدنيا يا اخويا!

لم يعد يطرق داره سوى بناته، حتى أزواجهن ذهبوا مع الناس يهتفون باسم الغتت، متجاهلين نسيبهم، الذي يواجه الموت وحيدًا.. ومنهن من عادت إلى الأبد إلى داره، بعدما طردها زوجها، واقترن بأخرى..

وفي يوم تذكّر دسوقي، الذي كان يسعى خلف الغتت طمعًا في حجر حشيش مخصوص، صهره الملط.. وذهب إلى زيارته، وأشفق عليه، حين رأى هيئته التي تصعب على الكافر.. كانت بناته قاعدات على الأرض حول فراشه، كان يحدّثهن تارة، ويروح في غيبوبة تارة أخرى، فيعلوا نحيبهن، ويرقعن بالصوت، معتقدات أن أباهن قد فارق الحياة، وأسرع دسوقي إلى عشة الطائر، وتوسّل إليه أن يركب بصحبته العربة الكارو، لينقذ حماه، الذي استنجد بالطب الحديث، وكانت النتيجة أنه بات أقرب إلى الموت من الحياة.. واستجاب سيدنا الطائر لشيخ الخفر، وطلب إناء نصفه ماء، وأمر بناته وامرأته بالخروج من غرفته، وأُغلقت منافذها، حتى أظلمت، وأخذ يردّد كلمات، انزوى بسببها ابن الدكر في ركن الغرفة من الرعب، وفجأة زعق غريب، بصوت يشبه صوته زمان، أيام ماكان فتيًا:

ـ يا بلد مافيهاش راجل!

وضرب راحتيه في بعضيهما وأردف:

ـ القيامة هتقوم امتى يا عالم؟

أصاب الذهول والخوف دسوقي.. وأمر الطائر بفتح منافذ الغرفة، فاخترق ظلامها الضوء.. وإذا به وقد انعدل فمه، واستطاع الوقوف على كلتا قدميه، كأنه عاد شابًا في الثلاثين من عمره.. فسجدت بناته تحت قدمي سيدنا الشريفتين، يقبلن الأرض.. وهتفن من أعماقهن، وهن يضعن أياديهن على جسده الطاهر، ويمسحن على جلابيبهن، لينالن البركة.. وامتلأت الدار على أصواتهن المبتهجة.. ولما رمقوه، هتفوا جميعًا:

ـ مدد ياسيدنا الطاير.. مدد!

واندلعت الخناقات بين الخلق في غرفة الملط، على أولوية المسح على جسد الطائر، وكادوا يتسببون في موته خنقا، وشخط فيهم دسوقي الدكر، ليفسحوا الطريق لسيدنا ليخرج، فأمسك الرجال في خناق بعضهم، هذا يريد أن يحمله فوق كتفيه، والآخر يبكي ويتوسل إليهم، أن يتركوه ليحوز البركة والمراد، فهو لم ينجب إلى الآن رغم مرور عشرين عامًا على زواجه، وهو الأحق بذلك.. وآخر يصيح أن بهائمه نفقت جميعها، وداره اتخربت، وثالث يتوسل إليهم ليمنحوه فرصة قد تكون الأخيرة، ليحقق حلمه في تسديد ديونه المتراكمة لدى العمدة، فالجنيه إذا صبح عليه نهارين، صار اثنين، والمسكين على أعتاب السجن..

وبعد صراع مرير بينهم، وصلوا لاتفاق يضع حدًا لفتيل الخناقة.. كل حي منهم يحمل الرجل عشر خطوات فقط، لا يزيدون خطوة واحدة، غير أن ذلك الاتفاق لم يصمد طويلًا.. بعدما حمله أحدهم على عنقه، وتجاوز الخطوات العشر، فاضرمت النيران في نفوس الآخرين، يتهمونه بالطمع في بركة الطائر..

١١

وعادت حكاياته إلى الواجهة ثانية في البلد، بعدما ابتعد عنه الخلق قليلًا.. وصار البعض يردّدون أن ما يحدث من مكروه كان سببه البعد عنه، فالملط نفسه تجاهله و«ادّلى» البندر بحثًا عن علاج، وانتهى به المطاف راقدًا في فراش الموت، لولا بركة الطائر..

وتلك المرأة الغريبة المتزوجة من جدع من الكفر، والتي أنكرت بركة الرجل، واستنّت سُنّة قبيحة، حيث اختلفت إلى أطباء البندر تطلب الإنجاب، وإذا بالأيام تمرّ من حولها، حتى صارت عشر سنين على زواجها، ولم تنجب بعد، والأدهى أن بعلها اقترن بأخرى من البلد، فأنجبت بعد تسعة شهور، لم تزد يومًا واحدًا، لأنها كانت أكثر ذكاء وحنكة، وزارت العشة المقدّسة، قبل زواجها بيوم، لتحلّ عليها بركته..

وعلى النقيض كانت النِعم الهابطة كالسيول على الحاج فوزي الغتت، مكافأة له لأنه لم يبتعد يومًا عن سيده.. قد تغرك الأيام، وتمشي تطارد الأحلام، وترتفع بأوهامك حيث أعلى قمم الجبال وتنسى الطائر، سنين عدّة.. وإذا بك فجأة تقع على جذور رقبتك، فتتذكّر الرجل، وتستنجد به وببركاته، ولن يخذلك أبدًا.. والملط أكبر برهان..

ويردّد البعض أن امرأة مات عنها زوجها، وتركها برضيعها.. وتمرّ الأيام والرضيع يصير فتى يافعًا.. ودخل في تحدٍ مع بعض أقرانه، من فيهم يقدر على المرور بجوار البئر المسكون ليلًا.. وذهب الولد من وراء ظهرها، وانتظر الفتيان عودته، التي لم تحصل، فهرب كل منهم إلى داره مرتعبًا، كاتمين سرهم.. وتطوف المرأة كالمخبولة في الشوارع تنادي على ولدها، حتى مرت أمام العشة المباركة وسمعها سيدنا، فنادى عليها ودخلت، وأبلغها أمر المختفي، الذي ابتلعته سهير الجنية وأولادها، وصوّتت ولطمت وشقّت جلبابها، وربّت على كتفيها بيديه الشريفتين، وأخبرها أنه استدعى الجنية في الحال، بعد بلوغه النبأ، وطلب منها أن تعيده، فأسرعت إلى عيالها وأمرتهم أن يرجع كل منهم ما التهمه من جسد الفتى، وهو الآن عائد بصحبتها إلى العشة، فسقطت الأم مغشيًا عليها من الفرحة والذهول، واستفاقت على صوت ابنها، الذي حذّره الطائر من المرور ثانية ليلًا بجوار البئر..

ذبحت امرأة الملط عجلًا سمينًا أمام عتبة العشة المباركة، كانت قد نذرته لسيدنا لو شفى زوجها، وأكل أهل البلد والدراويش، حتى العمدة أسرع إلى هناك وتزاحم مع الحضور ليأخذ نصيبه من لحم العجل. ورجعت الدار، وولجت غرفته، ولم تجده، وطافت البيت كالمهبولة، تبحث عنه، دون أثر له، وخرجت على عتبة دارها، ورقعت بالصوت، كان الخلق عائدين لتوهم من عند العشة، وهرعوا إليها، يسألون ما بها، وأخبرتهم بالأمر.. كان الليل قد دخل، فحملوا المشاعل المضيئة، وطافوا في البلد من شرقها لغربها، وعادوا خائبي الأمل.. وناموا ليلتهم بينما كان دسوقي وابن أخيه بسيوني قاعدين أمام دار صهره بجوار بناته، اللائي كن يبكين وينوحن ويلطمن خدودهن، وهن يرددن خلف أمهن:

ـ جات الحزينة تفرح مالقتلهاش مطرح!
وكان يواسيهن وهو يربت على كتف امرأته:
ـ الغايب حجته معاه يا عالم!
ردت فُتنة وهي تمسح بطرف كمها دموعها، بصوتها الجهوري الخشن، وهي تشير إلى ديار الكفر، والسكون الذي يحيط بالمكان:
ـ هايرجع إزاي يا دلعدي؟ دي بلد وسخة، أكلوا من لحمة العجل، وقفلوا بيبانهم، وادي وش الضيف، إلهي يطفحوه دم البعده!
ثم زعقت:
يا بلد مافيهاش راجل!
وحل الصبح، واستبد اليأس ببنات الملط وزوجته.. وسرّح الناس مواشيهم، وإذا بأحدهم يصرخ مثل النسوان، وينادي:
ـ الحقوني يا عالم.. غيتوني يا خلق هو!
وهرع الناس إليه، وإذا بحضرة شيخ الخفر ـ سابقًا ـ مستلقٍ فوق الجسر، تحت شجرة العمدة الكبيرة عاريًا.. وقلبه حميدة ابن العجل التمرجي ذات اليمين وذات الشمال، وأمسك بمعصمه، وقال بنبرة صوت حزينة:
ـ البقية في حياتكوا!
ضرب الناس أكفهم ببعضها، وأطرقوا رؤوسهم، وهتفوا:
ـ لا حول ولا قوة إلا باللـه!
كانوا يختلسون النظرات المرتعبة إلى جثة الملط العارية، غير مصدقين ما جرى، فهذا الرجل آخر ما كانوا يظنون أنه سيموت، فلقد ملأ كفر الدكر رعبًا وخوفًا وبطشًا.. كان إذا عطس، أصابت عطسته أهل البلد كبيرها وصغيرها بالذعر.. وقال أحدهم بصوت خفيض، وقد ارتسمت على وجهه بعض علائم الرزانة والحكمة:
ـ مفيش أضعف من البني آدم.. مفيهوش إلا لسان بس!
مات الملط، وحزن الخلق عليه، على الرغم من أنهم كانوا يضمرون كرهًا في صدورهم له.. كان الرجل منهم يخاف أن يذكره بسوء أمام امرأته في غرفة نومهما.. فالحيطان لها آذان، قد تتنصت عليه، وتودي به كما أودت بأحدهم من قبل..
تزوج جدع غريب عن البلد إحدى البنات، اللائي فاتهن قطار الزواج.. واستوطن الكفر، وإذا به يداعبها، وهي تُظهر تمنعًا مصطنعًا، وتجري ضاحكة، لتزيد من رغبته، ودارهما مغلقة عليهما، وقال وهو يحاول الإمساك بها:
ـ ماتيجي يابت.. داتك داهية في شكلك.. وانتِ الخالق الناطق غريب الملط!
وماصدّق أحد الخفر أن سمع حديثه، وهرول مسرعًا إلى رئيسه، وقصّ عليه ما جرى، فأمر بإحضاره فورًا، وربطه في مداود البهائم، وأرغمه على أكل التبن، وأن يقلد أصوات المواشي، وساطه على ظهره بنفسه وهو يصيح بصوته الذي يخلع القلوب:
ـ بقى بتتمسخر عليا يا ابن الجرابيع.. داني أحلى من رشدي أباظة!
ثم توّجه بالسؤال للخفر:
ـ مش كده يا وله انتَ وهو؟

وأجابوه في نفس واحد، ووجوههم تنطق رعبًا وفزعًا:
ـ هو سي رشدي يجي فيك ايه يا حضرة شيخ الخفر!
بينما كانت امرأته في الخارج تدعو اللـه وتستنجد ببركات سيدنا الطائر، أن تأتي العواقب عليها سليمة، حيث انسحبت من لسانها هي الأخرى وردّت على المذنب:
ـ اخص عليك يا راجل مالقتش إلا بوز الإخص ديه تشبهني بيه!
لكن اللـه كان لطيفًا بها، فالخفير لم ينتظر ليسمع المزيد، واكتفى بما قاله الزوج.. وأمر الملط المسكين أن يطلقها، ويرحل دون رجعة عن البلد، وما صدّق وأخذ ذيله في أسنانه وخلع، كاتبًا لنفسه حياة جديدة.
لم يكن ليصدق أحد في الكفر أن شيخ الخفر قد يموت يومًا، ولكن ها هي المفاجاة التي أذهلتهم، ولم يجدوا لها تفسيرًا.. لماذا إذن الحزن على شخص كان يسومهم سوء العذاب، لدرجة أن يذرف الرجل قبل المرأة الدمع عليه؟ تلك كفر الدكر، التي ليست لديها حدود فاصلة، بين الخير والشر والسعادة والحزن.

الفصل السابع

١

آخر ما كان يفكر فيه الحاج فوزي، أن ينتقل التنافس بينه وبين خصمه من مضمار السرقة إلى ميدان السياسة، لكنه العناد هو الذي دفع بابن كفر أبوعلي لمنافسة ابن كفر الدكر.. صار نجاح الغتت ليس مطلبًا شخصيًا له ولرجاله من بعده وحسب، بل أصبح مطلبًا ملحًا للخلق، أمسى دخوله المجلس مسألة كرامة وطنية خالصة، بغض النظر عن رأيهم فيه، فتلك قضية فرعية، ضئيلة الأهمية بالنسبة لهم، فالرجل يمثّل البلد كلها، يرفع رايتها، وما عليهم إلا أن يتبعوه، دون أن يشذّ أحدهم، وإلا اعتُبر خائنًا، لا يستحق المكوث بينهم يومًا..

امتلأت كفر أبوعلي باللافتات المؤيدة لابنها.. انتخبوا الغضبان ابنكم البار.. صوتكم أمانة للعين الساهرة على أمنكم.. معًا من أجل البطل الذي لم تمتد يده يومًا في البلد.. من حمل الهمّ، ودافع عن أبوعلي.. حان موعد ردّ الجميل لابنكم..

كانوا يردّدون عبر الميكرفونات تلك الشعارات، التي كانت تصل إلى مسامع أهل كفر الدكر، فتهتاج مشاعرهم الوطنية، ويطلبون من الحاج الغتت وحاشيته الردّ.. وكانت الاستجابات فورية، ويعلق الرجال المذياع فوق عربة كارو، ويمرون عبر السكة الفاصلة بين القريتين، ويصيح أحدهم:

ـ علّم علم ع الدكر..عاش ابن بلدنا اللي علّم على كفر النسوان!

وتندلع الحرائق في صدور أهل كفر أبوعلي، ويصيح أتباع الغضبان:

ـ علّم على ابن أبوعلي، علّم على ابن الأصول، وسيبك من ابن الحرام!

اغتاظت حاشيته حين سمعوا هتاف خصومه، الذين كانوا يروجون في البلد شائعات ضد قائدهم، تحاول النيل من فرص انتصاره في النزال السياسي.. بعد فوزه في جولات عديدة على زعيمهم في مجالات النهب، رغم حداثة عهد ابن كفر الدكر نوعًا ما بالمقارنة بالخصم، الذي نزل ساحة السرقة قبله بعشر أعوام على أقل تقدير.. الحق يقال، إنهما من أصحاب المواهب النادرة في هذا الكار.. ولا ينكر أحدهما على الآخر موهبته، بل يعلنان دائمًا احترامهما وتقديرهما لبعضهما..

ذات مرة، كان الغتت جالسًا مع رجاله، بعد جولة ليلية ناجحة، ظفر فيها بعشر عجول علف سمينة، أمر بذبح أحدهم وتوزيع لحمه على أهل البلد، فالحاج قد نذر للـه أن يتبرع بعُشر ما يجنيه لفقراء كفر الدكر.. وجاءت سيرة خصمه.. حيث سخر منه أحد أتباع الحاج، فنهره وزجره، وصاح وهو يشير بسبابته ناحيته:

ـ قطع لسانك، الغضبان حرامي ماجبتهوش ولادة!

استغرب الحاضرون مدحه لخصمه اللدود، وتهوّر أحدهم وسأله:

ـ مين فيكم أحسن؟

اغتاظ، واحمرّ وجهه غضبًا، ولكنه كظم غيظه وردّ السؤال إليهم:

ـ مين فينا آني ولا الغضبان يا وله انتَ وهو؟

ردوا جميعًا في نفس واحد:

ـ انتَ ياحاج!

ابتسم وقال بلسان الثقة المفرطة في النفس، وهو يشير بإصبعه ناحية صدره، ويرمق صاحب السؤال باستنكار:
ـ إيوه هو حرامي شاطر، بس العين عمرها ما تعلى على الحاجب!
ثم وجّه حديثه لصاحب السؤال المتهور:
ـ مش كده يا وله؟
أجاب على وجه السرعة وهو يهزّ رأسه، وأنفاسه مختنقة من الخوف:
ـ إيوة يا حاج!
كانت معركة حامية الوطيس بين الفريقين، خلفهما بلدين، تُذكّر بتلك الخناقة الشهيرة، التي راح ضحيتها رجلان من أتباع الغضبان.. فذات ليلة غار الغتت ومن معه على زريبة عمدة قرية قريبة، وإذا بالمنافس وحاشيته هناك، يبحثون عن مدخل آمن يلجون منه.. بعدما ربطوا الخفراء الذين كانوا يحرسون الزريبة في جذوع الشجر مكممي الأفواه.. وكان الحاج ورجاله أسبق بالوصول إلى الهدف، وخرجوا بالبهائم، فاعترض سبيلهم الخصم وفريقه، واندلعت معركة بينهما، بدأت بخناقة بسيطة بالأيدي، وانتهت بإطلاق أعيرة نارية بين الطرفين..
ولم تنتهِ المعركة إلا بعدما قبلا واسطة زميل لهم في الكار، وجلسا مع بعضيهما، وحلف الاثنان على المصحف بقبول ما تخرج به هذه القعدة من أحكام، جاءت معظمها ضد ابن كفر الدكر، فمن المعروف بينهم كأصحاب مهنة واحدة،أنه من العيب والعار أن يسقط أحدهما على سرقة زميله، واتضح من التحريات التي أجراها المُحكّم، أن ابن كفر أبوعلي ورجاله كانوا البادئين أولًا بالتخطيط ومن ثم التنفيذ.. يومها لم ينطق الغتت بحرف، كان مطأطئ الرأس، يشعر بالعار والجُرسة، فاللسرفة أصول متّبعة، لا يجوز اختراقها، رغم أنه حلف بيمين الطلاق ثلاثًا، من نسوانه الثلاث، بعدم علمه بوجود خصمه عند تلك الزريبة التي كانت ميدان النزاع بينهما..

٢

ذات ليلة قمرية اجتمع بالخلق في الجرن، وعلى يمينه الطائر، الذي أتى لمؤازرة ابن كفر الدكر، وعن يساره جناب العمدة.. وخطب فيهم، وفي إحدى يديه الميكرفون:
ـ العوافي يا أهلي ويا ناسي!
تزاحمت الأصوات في الرد:
ـ اللـه يعافيك يا حاج!
وأردف مبتسمًا، وهو يشاهد الناس تقف احترامًا له:
ـ الليلادي جمعتكم عشان أقولكم،جميلكم ديه على دماغي، من أصغر عيل في البلد لأكبرها، آني فوزي الدكر، ابنكم، ماترشحتش إلا لاجل مصلحتكم، أيوه وربنا.. وحياة سيدنا الطائر ـ والتفت إلى يمينه ـ آني ما عايز حاجة من المجلس ديه إلا خدمتكم..
قاطعه واحد من حاشيته وهتف وسط الجموع:
ـ انتخبوا مين؟
وأجاب الناس بصوت واحد كالصاعقة:
ـ الحاج فوزي!
ويسألهم ثانية هاتفًا:

ـ وحبيبكم مين؟
ـ فوزي الدكر!
وشذ أحدهم، وهتف سهوًا «فوزي الغتت»، وكان اللـه لطيفًا به، حيث تاه صوته وسط هتافات الخلق، ولم يصل إلى مسامع رجال الحاج، وإلا كان رأى النجوم في عزّ ظهر كفر الدكر.
ابتسم وأشار للرجل بالتوقف وعاود حديثه، وهو يخبط على صدره بقوة متعهدًا:
ـ فوزي الدكر مايبقاش دكر من ضهر دكر لو ساب الجدع بتاع كفر أبوعلي يكسبه!
ثم ضحك حتى اهتزّ جسده الذي ملأه العز، وأردف ساخرًا:
ـ مابقاش كمان إلا ابن كفر النسوان يعمل راسه براسنا، لأ وايه شوفوا البجاحة، وقلة الأدب، معشمين نفسهم انهم يكسبونا، عشم إبليس في الجنة!
ثم التفت إلى يمينه وسأل:
ـ مش كده يا سيدنا؟
واكتفى الطائر بهزّ رأسه وهو يغمغم ويعبث بحبات مسبحته، وعاود الرجل خطبته:
ـ آني فوزي ابن الدكر، حلفت بأيمانات المسلمين والنصارى، لازم أرجّع الأندلس، اللي كانت ملك جدي الكبير!
هتفت حاشيته وتبعهم الناس:
ـ الدكر أهو.. ابن الدكر أهو!
وفجأة نهض ولد من الأفندية، الذين أصابوا حظًا وفيرًا من التعليم في مدارس البندر، وعادوا ولديهم بعض الأفكار الغريبة عن كفر الدكر وأهله، وسأل:
ـ وهي فين الأندلس دي يا حاج؟
تفصد العرق من جبينه فور سماعه للسؤال، وتظاهر بالانشغال بالحديث مع بعض رجاله.. وعاود الولد سؤاله:
ـ بيروحولها منين؟
أجاب وعيناه تكاد تخترق جسد ذلك المنفلت، من الغضب والضيق:
ـ هناك فريح سيدي إبراهيم الدسوقي!
قهقهه الأفندي ورفقاؤه، ما أثار حفيظة حاشية الغتت، وكادت تندلع معركة بينهما، لولا تدخله شخصيًا.. وحاول إلقاء كرة اللـهب في حجر ذلك الشاب، الذي لم يكن وجوده أبدًا في الحسبان، وسأله:
ـ امال فين يا وله؟
أجابه:
ـ في جنوب غرب أوروبا.
قهقهه وغمز أتباعه ليضحكوا وتبعهم أهل البلد، الذين كانت أغلبيتهم الكاسحة لا تعرف أوروبا.. واحمرّت أذنا الولد من الخجل، وسخر الحاج منه، صائحًا في الميكرفون:
ـ أوروبا.. دي فين يا ابن توحيدة العرجة؟! فاكر نفسك ايه يالا؟ روح بص لنفسك في نقرة جِلة!
ثم أشار لمجموعة الأفندية الجالسين بجوار بعضهم، وأكمل:
ـ العيل من دول يروح المدرسة يومين يفكر نفسه ابن بارم ديله، ومفيش في وسط أمه لباس!

وكظم هؤلاء غيظهم، وكتموا غضبهم، فلو اندلعت خناقة، لن يكون النصر حليفهم. وانسحبوا بهدوء، وسط سخرية بيومي منهم، وهو يشير إليهم ويرمق الغتت ويمتدحه على انتصاره في المعركة الكلامية مع واحد منهم

ـ واللـه براوة عليك، خليتهم يهربوا زي الفيران، وقفاهم يقمر عيش!

وصاح الحاج بمزيد من السخرية، وعيناه تتابع خطواتهم المنسحبة:

ـ قال أوروبا قال!

ثم وجّه حديثه لأحد أتباعه ضاحكًا:

ـ ماتعرفش يا وله، أروبا بتاعت ابن توحيدة دي فينا داهية؟

أجابه وكتفاه يهتزان من الضحك:

ـ زمانها فريح تربة المرحومة امه!

٣

انقطع عن الطعام، وبدا جسده هزيلًا نحيفًا، مثل حمارة المرحوم شيخ الخفر، التي أضربت عن الأكل حزنًا على وفاة صاحبها، وماتت بعده بأيام.. تكدست في قلبه أطنان من الكآبة والحزن، بعد رحيل عمه بعد تلك الحكاية المأساوية التي كان سببها الوحيد، وصارت لعنات فُتنة تشيّعه أينما ذهب وارتحل.. لم يعد من مفر من الفرار من الكفر هربًا من سياط ذكريات المرحوم، التي ألهبت عقله وقلبه، وغادر إلى الخليج.

ذات ليلة قمرية، تأخر في الغيط.. فركب عمه حماره، وسرح يبحث عنه، وقد تملك الخوف منه على آخر دكر.. ففي تلك الأيام، ولا أجدع شارب فيك يابلد يستطيع الذهاب إلى الغيط مع إسدال الليل ستائره السوداء.. بعد تناثر الأقاويل والشائعات التي ملأت الكفر، عن الخناقة الرهيبة المندلعة بين عائلتين كبيرتين من الجن، مات على أثرها كما يردد الخلق الآلاف من الطرفين.. ويا ويله وسواد ليله من يمكث في الغيط، ويشعر الجن بوجوده.. سيكون مصيره كنهاية بنت الصراماتي، التي تسللت من دارها ليلًا، من وراء أمها وأبيها العجوزين.. يومها استيقظت البلد على صراخ رجل أصابه الهلع والهستيريا، بعد عثوره على راحة يد، وبعد البحث والاستدلال، تبين عودتها لتلك الفتاة، والظاهر واللـه أعلم ـ كما ردّد العمدة ـ أن فريقًا من الجن لمح الفقيدة، فالتهموها ونسوا راحة يدها، حيث وُجد خاتم في إصبعها يعود لها.

تلك من الأيام الصعبة على كفر الدكر، حيث يملأ الخوف نفوس أهله، ويغلق كل حي على نفسه وأولاده ومواشيه باب داره.. وعند هبوط الظلام، لا تسمع صوتًا لإنسي واحد، سوى بيومي العبيط، الذي ناسب الجن، وصار واحدًا منهم، لا أحد يمس خصلة شعر واحدة منه، وكذلك ابنته زنوبة.. حتى الخفر، تراهم ليلًا متجمعين عند عشة سيدنا الطائر، حيث المنطقة الآمنة، التي لا يستجرئ جني واحد، ولو راضع من صدر أمه، ولوجها دون إذن مسبق منه.. لا يخالف البلد في خوفها غير العيال الأفندية، الذين عوقب زعيمهم من قبل الجن، بسبب استهانته بهم، وترويجه لحديث لم يدخل رأس أحد في البلد، بأن بنت الصراماتي ذهبت إلى العالم الآخر مقتولة، والجاني إنسي، وذهب إلى أقصى الشرود وكفر بوجود الجن من أساسه، فكان جزاؤه أن انتهى مُقطّع الأوصال عند البئر المسكون.. وفي تلك الظروف يتواخى الناس الحذر، ولا يأتي على لسان أحدهم سيرة الجن ولا العفاريت، وإلا كان العقاب فوريًا، فهم في هذه الأيام يعلنون حالة الطوارئ

في الكفر ليلًا، ويسمعون دبّة النملة.. في تلك الأيام، لا يجمع بين الرجل وامرأته فراش، ومن يشق عصا الطاعة سيلاقي مصير ذلك الرجل ذي العقل الطائش، في الحقيقة حذرته زوجته مرارًا وتكرارًا، وذكّرته بالقوانين الصارمة، لكنه ألقى بها في الترعة العمومية الكبيرة، ونام معها، كانت تقاوم وتصرخ في وجهه:

ـ ارجع يا أبو العيال هنروح في داهية، لو الجن شموا خبر!

وسدر الزوج في غيه، بل زاد الطين بلّة، وأعلن كفره التام بالقوانين، واستهزأ بواضعوها، وصاح في وجه زوجته وهما فوق السرير، يمارس أفعاله المنافية للأوامر:

ـ جن لما يلهفك!

وانتهى ذلك المتمرد في قاع البئر المسكون، حيث أمسى جسده وجبة دسمة لعيال الجن الفقراء، الذين مات عنهم آباؤهم في تلك الحرب الأخيرة..

لاقاه جالسًا على الجسر، دافنًا رأسه بين ركبيته، ويبكي مثل النسوان الثكالى.. فنهش الفزع والقلق قلبه على ابن شعبان الدكر، ونادى بصوت خفيض:

ـ بسيوني!

انتفض الولد من الرعب، خيل إليه أن جنيًا ناداه، ونزل عمه من فوق حماره، وطبطب على كتفه، وهدّأ من روعه.. وعادت السكينة إليه رويدًا، رغم خناجر الظنون، التي هاجمت عقليهما، فحكايات تقمّص الجن لشخصيات من البلد معروفة ومنتشرة، ومن يدريهما أن أحدهما ليس بجني، اتخذ هيئة بسيوني أو عمه.. ففي تلك الأيام المرعبة، أوقات النزاعات بين الجن، تراود الظنون أهل كفر الدكر، ويشك الجميع في بعضهم، فينظر المرء إلى زوجه وابنه بعين الريبة والشك، فمن يدريه أن هؤلاء جميعًا، ليسوا عفاريت اتخذت من هيئة عائلته سبيلًا للتمويه والخداع، ليعرفوا ما بداخله من أسرار، قد يستفيدون منها، وبعضها قد تودي به مرتحلًا إلى العالم الآخر..

اصطحب ابن أخيه ورجعا إلى داره، كانت فُتنة وبناتها نائمات، وجلس بجواره، وسأل عما به، وفضفض بسيوني لعمه، أظهر مافي قلبه من عشق لنفيسة ابنة الكلاف، وصاح فيه دسوقي، وهو يضربه ضربة خفيفة على كتفه، كأنه يرفع من أسهم آماله المنهارة، ووعده:

ـ بكره من النجمة هطلب ايديها من الوله رجب.

هزّ رأسه، وشعر بحالة رمادية ما بين التفاؤل والتشاؤم، وقال:

ـ بس البت بقت ضاكتورة!

هزّ جسد ابن أخيه غاضبًا وزعق فيه:

ـ وانتَ ابن الدكر!

وتكتم الاثنان على ما اتفقا عليه، خشية أن تشمّ خبره فُتنة، فتقطع صلتهما بالدنيا تمامًا، وبخاصة بعدما دبّرت أمرها، وانتوت تزويج الولد لإحدى بناتها، اللائي فاتهن القطار، ولا تبدو في الأفق قطارات أخرى..

٤

ولاح الصبح، وضرب العم ميعادًا مع رجب بعد صلاة المغرب، واصطحبا العريس، ورحب بهما أيما ترحيب، فولج السرور قلبيهما.. وخبطت الابنة الصغرى على باب المندرة تستأذن الدخول، ودلفت متبخترة، واضعة طرحتها فوق وجهها، ولا يبدو منها غير عينيها الضاحكتين الخجولتين،

وبين يديها صينية تُزيّنها أكواب الشربات المتراصة فوقها، وناولت الضيفين، وخرجت مسرعة، وسط نظرات استغراب من بسيوني..
وساد الصمت لدقائق، كان يخترقه سعال خجول، يحاول صاحبه أن يفتح حديثًا مستعصيًا، كانوا يتبادلون النظرات المتسائلة، من يفتح ثغرة في جدار الصمت.. واستبدّ اليأس بالمضيف، واضطر أن يعيد ما سبق أن قاله من عبارات الترحيب:
ـ احنا زارنا النبي.
ردّ دسوقي، بينما العريس منكمش على نفسه فوق الأريكة:
ـ من ذوقك يا اخويا.
أعادها ثانية وكرر الضيف نفس الرد، وسأل بعد سعال مصطنع:
ـ خطوة عزيزة.. خير؟
ـ جايين طالبين القرب.
ـ وهو فيه حد في الكفر يرفض ابن الدكر؟
انشرح صدر بسيوني، وامتلأ بالسعادة والحبور، وسأل:
ـ امال فين عروستنا؟
ضحك رجب وقال له مازحًا:
ـ ايه يا وله هي لحقت توحشك؟ دي لسه خارجة من المندرة، مستعجل دايمًا زي المرحوم أبوك!
كأن سهمًا اخترق قلب ابن الدكر، وأصابه في سويدائه، وأحدث زلزالًا في أوصاله، فتبدّل حاله.. بينما كظم العم ذهوله وغضبه من تلك الصاعقة المفاجئة، وتدارك أمره، وقال وقد رسم على وجهه ابتسامة مصطنعة، حاولت إخفاء بركان الغضب بداخله:
ـ انتَ فهمتنا غلط!
استغرب الكلاف وسأله:
ـ غلط ايه بعيد الشر؟
ضحك ضحكة بدت مزيفة تواري خجلًا ظاهرًا، وردّ:
ـ احنا جايين نطلب ايد الست اسم النبي حارسها الضاكتورة!
انتفض فور سماعه جواب ضيفه، وانتصب واقفًا كأن ثعبانًا شراقيًا لدغه، وتجهم وجهه وخرجت من فيه وفتحتي أنفه شخرة مدوية عنوة، اخترقت آذان من في خارج داره، وزعق:
ـ ضاكتورة مين يا جدع انتَ؟ والنبي ما يمسك ديل جلابيتها.. بقى على آخرة الزمن، بنتي الضاكتورة نفيسة على سن ورمح، تتجوز ابن الدكر الجاهل اللي مش بيعرف يفك الخط؟!
أصاب الضيق والغضب صدر الزائرين، وصاح بسيوني ثائرًا لكرامته:
ـ آني معايه الدبلون!
أجابه ساخرًا:
ـ روح بله واشرب مايته!
فصاح العم وأمسك في خناقه، وقال وهو يهزّ جسده ذات اليمين وذات الشمال:
ـ انتَ مالك طالع فيها قوي كده يا كلاف يا ابن البهايم، دا انت مفيش في وسطك لباس، ملعون أبوك لأبو اللي حط بذرتك، قليل الأصل والترابي.. نسيت أصلك.. احنا ولاد الدكر!
رد مستهزئًا:

ـ على أبوكوا لا أبو الدكر بتاعكوا.. غور انتَ وهو من داري.. داهية تاخدكوا!
ثم صمت برهة وأردف ساخرًا وهو يضحك:
ـ حوش ياجدع الوسية بتاعة الدكر اللي بتنعر!
فانهال الضيفان على المضيف ضربًا وسبًا وسط صراخ بخيتة وبناتها، يطلبن من الجيران نجدة رجل الدار.. دون مجيب، فلا أحد يستجرئ على الخروج من داره رغم صويتها، الذي صعق آذانهم.. فمن يُدري هؤلاء أن ذلك الصويت، صادر عن امرأة من الإنس، في تلك الأيام المرعبة!
استحالا إلى وحشين كاسرين، بعد حديث الكلاف الهازئ بهما وبتاريخ عائلتهما العريق، ولم يتركاه إلا وهو مسجى على أرض مندرته، أقرب إلى الموت منه إلى الحياة..
ونقلته سيارة الإسعاف إلى مستشفى البندر، وأُلقي القبض عليهما، واقتادهما العساكر إلى مركز الشرطة مكبلين في الأصفاد، وسط نظرات أهل البلد المعاتبة والمشفقة عليهما مما قد يحصل لهما هناك، فلا أحد يدخل المركز ماشيًا على قدميه ويخرج منه إلا على النقالة، وبخاصة بعدما «اتبلى عليهما رجب ورمى جتته»، واتهمهما بسرقة مواشيه، رغم أنه ليس حيلته سوى البراغيث في دكة سرواله، الذي لبسه حديثًا، ليواكب حالته الاجتماعية الجديدة الزاهية، فهو أبو الست الدكتورة نفيسة..
دخل ابنا الدكر الحجز، بعد علقة ساخنة على يد المخبرين، انقطعت منها أنفاسهما، وتهشم أنفاهما، وسال الدم من وجهيهما، وباتا ليلتهما.. ومع حلول الصباح، استدعاهما البيه المأمور في مكتبه، كان جالسًا ينفث سيجارته، بينما كان واقفًا بجوارهما ثلاثة مخبرين، كانت هيئتهم تُثير الرعب والفزع في قلوب الموتى، وسألهما:
ـ ضربتوه ليه ياض انتَ وهو؟
لم يجدا جوابًا، فهبطت راحات المخبرين على قفويهما، وسقطا أرضًا من شدتها، واستندا على بعضيهما، وهما يرمقان بعض في شفقة، وتأنيب من العم لابن أخيه.. وزعق أحد المخبرين فيهما:
ـ ردوا ردت المايه في زوركم!
تماسك العم قليلًا، وقال وهو يحاول فتح عينيه المغلقتين والمتورمتين من الضرب:
ـ محصلشي وحياة سيدي الطاير!
بادره الذي بجواره بصفعة على قفاه، برقت منها عيناه، وشخط فيه:
ـ ماتكدبش على الباشا يلا.. حصل ولا لاء؟
ابتلع ريقه بصعوبة، وأجاب بصوت مختنق، وهو يهزّ رأسه في يأس موافقًا:
ـ حصل.. احنا ضربناه!
ضحك المخبرون وصفعوهما على وجهيهما، وسألهما المأمور الذي كان ينفث سيجارته صامتًا، كأنه يتابع فيلم رعب مثير للمشاهدة:
ـ واديتوا البهايم اللي سرقتوها فين؟
رمقا بعضيهما في ذهول واستغراب، وردّا في نفس واحد:
ـ بهايم ايه ياباشا؟
وعاود المخبرون نشاطهم في ضربهما، واستسلم المتهمان، وأقرّا بكل ما لُفّق لهما من اتهامات، هربًا من أيدي المخبرين «الطارشة».. بيد أن ذلك لم يحدث، حيث استمرت حفلات التعذيب المسلّية لضباط القسم لتقتل الملل، الذي يعتريهم وخاصة هؤلاء الذين لديهم نوبتجية ليلية، فكان

صراخهما وتأوهاتهما وبكائهما وعويلهما تحت سياط التعذيب، تطرب آذانهم، كأنها أعذب الألحان..
وذات ساعة، بعدما تعب المخبرون والعساكر من ضربهما، دلفا غرفة الحبس، ولم يكن باستطاعتهما النوم من شدة التعب المنتشر في جسديهما، كانا يقفان حتى يهزمهما النعاس، ويسقطا أرضًا، فيوقظهما الألم ثانية.. وحاول أن يشد من أزر عمه، الذي كان يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة، كالموشك على الغرق:
ـ وحياة سيدنا الطاير، ماحد بييجي على أولاد الدكر، وبيشوف مكسب!
رد دسوقي مبديًا تماسكًا مزيفًا:
ـ البركة فيك يا آخر دكر!
انهار باكيًا، كأنه كان يمني نفسه بإجابة ترفع من معنوياته المنسحقة.. وفجأة سقط العم مسجيًا على الأرض، وهمس موصيًا ابن أخيه بصوت المودّع:
ـ خلي بالك من إخواتك البنات.

٥

كانت الميكرفونات تجول في البلد يومها، تدعو الخلق للخروج جميعًا لانتخاب ابنهم البار فوزي، حان وقت ردّ الجميل للرجل، الذي انتشل الكفر من أزمات وجودية عديدة، كان الناس على قلب رجل واحد، وكما يقول المثل»أنا واخويا على ابن عمي.. وانا وابن عمي على الغريب».. المعركة الانتخابية الطاحنة بين ابن البلد، وابن تلك البلدة العدو، ولابد أن يتكاتف الجميع خلف مرشحهم، فتلك مسائل تتعلق بكرامة الكفر كله..
كان من فرط عصبيتهم للحاج فوزي أن سادت الفوضى، وعمّ التخوين، إلى حد أنه كان الرجل يتهم أهل داره بخيانة كفر الدكر، والموالسة مع أعدائها.. وانتشرت الخناقات بين الناس، لم يوقفها سوى تدخل سيدنا الطائر، الذي صاح في الناس عند الجرن الكبير، وأمرهم بالكفّ عن صنائعهم التي تبثّ الفرقة، وطالب الغتت أن يوحّد جبهته الداخلية المخترقة..
كان الغضب راسمًا خيوطه على وجهه، وخاصة بعدما زاره في منامه ذلك الجني الخائن، الذي اختلف إليه يرجو المغفرة عن فعلته بحق كفر الدكر.. لم يراعِ المجرم قداسة سيدنا الطائر، ولا صلة القرابة التي تربطه هو نفسه بزوجة فوزي الجنية، وعاث في البلد فسادًا، يحرّض هذا على ذاك، حتى فرّق بين المرء وزوجه.. واعترف بعملائه في البلد، كانوا جميعًا أفندية خونة، يلعبون برؤوس الغلابة بأقوال معسولة، تطرب لها الآذان، مثل العدل والحق والخير.. ويروجون شائعات تستهدف الحاج واستقرار الكفر كله، طاعنين في أصوله الراسخة الضاربة في أعماق آل الدكر، كشجرة التوت العتيقة عند ساقية العمدة الكبيرة.. يرددون أن الرجل الصالح قد زيّف التاريخ، ولا يعلمون أن سيدنا الطائر كلّف نفسه شخصيًا بالاختلاف مرتين إلى الصبي فوزي في بلده البعيد، ليطلب منه العودة إلى بلد جدّه المؤسس..
لما واجههم وأتباعه بأفعالهم الشنيعة، وتصرفاتهم المريبة، التي أدلى بها الجني التائب، سخروا واستلقوا على ظهورهم أرضًا من الضحك، واستشاط غضبًا، ونظر إلى جمهور الناس الحاضرة، وألقى الكرة في ملعبهم ليسدّ ثغرة جديدة، قد تنفذ منها الفوضى والتفرقة ثانية في جبهته الداخلية، وسألهم بصوت الحليم كظيم الغيظ:

ـ يرضيكوا كده يا أهلي يا ناسي؟
أجابوا بنفس واحد، غاضبين ومستنفرين، وهم يلوّحون بالرفض بأيديهم بحركات هستيرية حانقة:
ـ لا لا لا لا لا!
وهجموا على العيال، وكاد أحدهم أن يقتل ابنه الأفندي، الذي جلب له العار والجُرسة في البلد، بعدما صرف عليه دم قلبه ليتعلم ويصير «بني آدم»، وينال شهادة.. فيعود الولد ويردّد حديث الخونة.. كانت علقة ساخنة تلك التي أكلها هؤلاء المارقين المتمردين، على أثرها بقوا طريحي الفراش شهورًا عدّة، جزاءً لما اقترفوا من آثام في حق كفر الدكر.
وعاد السلام إلى الجبهة الداخلية بفضل سيدنا، الذي أكّد أن النصر سيكون حليف ابننا، فهو مؤيد من السماء والأرض، جزاءً وفاقًا على ما قدّمه لخدمة ناسه.. ولم تُكذّب الأيام خبر الطائر، وطارت أنباء فوز الحاج فوزي في سماء الكفر، ليلتها لم تذق البلد طعم النوم، حيث عاد موكب سيادة النائب من البندر، وهم يطلقون النيران في الهواء، ويردّدون الشعارات المبتهجة بابن البلد، نصير الفقراء، وخادم أهله وناسه، وحفيد المؤسس، الذي سيعيد مجده، وسترجع الأندلس يومًا تحت راية آل الدكر..
كان نصرًا مؤزرًا، تشارك الجميع فيه، الرجل والمرأة، العجوز والشاب، الإنس والجن، الكل كان يدعو ويهتف، حيث شهد يوم الانتخابات ملحمة سيدوّنها التاريخ.. يومها كان الإنسي يقف بجوار أخيه الجني، يشحذون همم بعضهم.. حكايات تشبه الأساطير القديمة.. أقسمت الكاتعة أنها رأت بأم عينيها التي ستكون وجبة شهية للدود، زوجة الحاج فوزي الجنية، وهي تقف خلف رجلها، بالإضافة إلى سماسم وأختها وقبائل من الجن كانوا يتوافدون أمام لجان الانتخابات. وكذلك أقسم حمودة الحمارة بحياة سيدنا الطائر عند دكان الكاتعة، أن عقله كاد يطير ويصير مثل بيومي العبيط، حين رأى صناديق الاقتراع الفارغة وقد امتلأت عن آخرها في غمضة عين، رغم خلو اللجنة الانتخابية من البشر..
وذبح الحاج العجول التي كانت تعجّ بها زريبته، ووزّع على أهل البلد من الإنس ومن الجن، وأعلن اعتزاله سرقة المواشي، فتطلعات سيادة النائب باتت أكبر بكثير من تلك التوافه..
وبثّ التليفزيون على الهواء مباشرة وقائع الجلسة الافتتاحية لمجلس النواب، يومها تراصت البلد في الجرن أمام القصر، ليشاهدوا ابن بلدهم وهو يحلف اليمين، وكان اسم اللـه على مقامه يرتدي بدلة خواجاتي، كأهل البندر، وحلف اليمين كالطلقة، دون أن يتلجلج، مثل كثير من زملائه النواب..
قصة نجاحه كانت مثار إعجاب الخلق، كانوا يردّدونها دائمًا لعيالهم الصغار، كيف صعد ذلك الشاب الطموح لأعلى سلم المجد، معتمدًا على ذاته، دون الكشف عن تفاصيل الحكاية من بدايتها، فالجدران لها آذان، وعيون الرجل الطيب في كل مكان، من أجل حفظ الأمن والاستقرار.. وموت الرجل وسمّه أن ينبش أحدهم في ماضيه، وإلا سيجري له ما حصل لذلك الجدع المتمرد، الذي عاير بسيوني الدكر يومًا في الغيط أنه باع تاريخ عائلته العريقة هو والمرحوم عمه، لسارق بط..
ونقل ديسطي ابن الكاتعة اللـه يسامحه الحديث لرجال الغتت، الذين حطموا باب دار المسكين عليه، وأخرجوه شبه عارٍ، وألبسوه جلبابًا قديمًا ترتديه النسوان، وأركبوه حمارًا أجرب بالمقلوب، وطافوا به البلد عرضها وطولها، وخلفه يمشي بيومي العبيط، بزمارته والعيال تهتف من خلفه:
ـ من ده بقرش وبقرشين!

لم يسلم من لسان البعض، الذين يعلنون تذمّرهم وغضبهم لشرع اللـه، الذي ضرب به الرجل عرض الحائط، وتزوج بامرأة أخرى غير نسوانه الأربعة، وبدأت الهمهمات في البلد تزيد لدرجة تُهدّد الاستقرار.. وانتشر الجدال بين الناس، ما بين مؤيد له، يرى أنه لا ضير من زواجه الحديث، فهو لم يقترن سوى بثلاثة من الإنس ويجوز له الرابعة.. وعارضهم آخرون، ذهبوا أنه طالما كان متزوجًا من جنية، على كتاب اللـه وسنة رسوله، وكانت تلك المتممة للأربعة نسوان، فلا يجوز شرعًا أن يجمعه فراش بخامسة إلا وكان زنا..

كان يتزعم ذلك الفريق شيخ الجامع الجديد، الذي أعلن رفضه وتذمره وحنقه في خطبة الجمعة، يومها أخذ يصيح ويضرب براحتيه جدار المنبر من الغضب حتى كاد يُسقطه على المصلّين، وبأوداج منتفجة ووجه محمر، لحد البكاء والنهنهة غيرة على شرع اللـه، كان يؤكد ما بين الفينة والأخرى أنه لا يخشى أحدًا سوى اللـه، فعليه يتوكل المتوكلون، ولا يخشى لائمة لائم، بينما كان رجال سيادة النائب منتشرين في جنبات الجامع، يتابعون الخطبة بعيون جاحظة مستغربة، وصدور تثور فيها براكين الغضب..

اعتقد الخلق أن ساعات شيخ الجامع باتت معدودة على وجه الأرض، غير أن المفاجأة كانت مدوية، فلم يمس مولانا أحد ولو بلفظة، ورأوه بأم أعينهم المستغربة يلج ويخرج من قصر سيادة النائب، فامتدح الناس أخلاق الحاج الذي يبهرهم دائمًا بحلمه وتسامحه ومغفرته..

وفي خطبة الجمعة اللاحقة، بعدما حمد الشيخ اللـه وأثنى على نبيه، وعلى الأولياء الصالحين من بعده، خطب في الناس بصوت خفيض ليس فيه انفعال، وقال:

ـ كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون، والمسلم الحق لا يكابر في الغلط إذا أخطأ.

ثم خبط على صدره، وأردف وهو يهزّ رأسه:

ـ وآني يا كفر الدكر الغلط كان راكبني من ساسي لراسي الجمعة اللي فاتت!

ثم أشار بيده فانعكست أشعة الشمس، المتسللة من نافذة الجامع على ساعته الجديدة التي كانت يرتديها حول معصمه، فزغللت عيون المصلّين.. وواصل خطبته:

ـ بس المسامح كريم، وسيادة النايب ابن الدكر أبو الكرم كله والشهامة.. ارفعوا أيديكم وادعو معي لعلها تكون ساعة إجابة.. اللـهم أكرم عبدك فوزي، اللـهم بارك له في زيجاته، وفي عياله!

وهتف المصلّون:

ـ آمين!

ولما رأوا بأم أعينهم آثار النعيم البادية على لباس شيخ الجامع، ما أغرى ذلك أحدهم، وكان قد حفظ جزئين من القرآن، وأطلق لحيته وهذّب شاربه حديثا.. وأصدر فتوى أنه يجب على الحاج أن يرمي يمين الطلاق ثلاثة على زيجاته الإنسيات الأربع، فلا يجوز لرجل من الإنس اقترن بجنية أن يجمع بينها وبين أقرانها من الإنس، فهي تعادل أربعة منهن.. وانتظر أن يطلب سيادة النائب مقابلته في قصره المنيف، بيد أن الرجل أمر أتباعه أن يوثقوه في شجرة عاريًا، ويدهنوا جسده بالعسل.. وتركوه يومًا بليلته، كان يصرخ مستنجدًا من لسعات النحل وتكاثر الذباب عليه، وهو يردّد:

ـ آني غلطان، أستاهل ضرب الصرم.. يجوز لسيات النايب يتجوز نسوان كفر الدكر كلها.. الحاج مرفوع عنه الحساب.. المذاهب الأربعة بتقول كده!
غير أن باب الجدل لم يوصد تمامًا إلا حينما أدلى الطائر برأيه، وأيد الغتت في صنيعه، فالحاج حسب رأيه من أولياء الأمور في البلد، ولا يصح أن يسألهم العامة والدهماء عما فعلوا، فهؤلاء لهم نوافذهم الخاصة المطلة على السماء.

٧

انسدت كل منافذ الأمل في وجه آخر دكر، ولم يعد أمامه غير اقتفاء أثر أبناء البلد، الذين هجروها وامتطوا البحار، بحثًا عن الكنز، الذي سمعوا عنه.. وحطّ رحاله في بلاد الخليج، كان يصل الليل بالنهار في العمل بالبناء، في نشاط وهمّة على غير عادته، كان يعزّي نفسه دائمًا، فرغم جور الزمن عليه، يظل حفيد آخر ملوك الأندلس، وسوف يجمع الأموال، ليعود إلى كفر الدكر وقد صار مليونيرًا.. لكن إحساسه بالغربة كان ينهش قلبه، يعمل وحيدًا، ويأكل وحيدًا، وينام وحيدًا، لا أحد يُهوّن عليه قسوة الأيام، رغم ما كان يجنيه من شغله، وتدرجه في العمل بفضل تفانيه وإخلاصه، إلى أن صار مقاولًا كبيرًا، يعمل تحت يده الأنفار من شتى بقاع الأرض، لكن ليس فيهم من يسد فراغ الولد ابن الكاتعة، الذي أرسل إليه عقدًا.. وسافر ديسطي، فابتسمت الأيام في وجه بسيوني بوجود رفيق عمره معه.. كان في حاجة ماسة له ليلقي ما في قلبه من أحزان وآمال على طاولته، وكان صاحبه يرسل الخطاب إثر الخطاب، مخبرًا الكاتعة بحالة ابن الدكر الجديدة الزاهية، فلقد تبسمت له الأيام، وصار دكرًا مثل جده، يأمر فيطاع في بلاد الغربة.. وذات ليلة، بينما كانا مضطجعان بجوار بعضيهما فوق فراش واحد، قال وهو مستلقٍ على ظهره واضعًا ذراعه فوق جبينه:
ـ عايز اتجوز يا وله!
نهض ديسطي سريعًا وقعد مستربعًا فوق السرير، وردّ وعلى وجهه علامات السرور:
ـ ألف وميت واحدة تستمنى ضفرك يا ابن الدكر!
رد بصوت يشبه فحيح الحية:
ـ رايد البت نفيسة!
ارتدّ وجه ابن الكاتعة عابسًا، وسأله مستنكرًا:
ـ نفيسة؟! ياخبر منيل بستين نيلة يا ناس.. دي اتسببت في موت عمك دسوقي!
صاح وهو موشك على البكاء:
ـ البت خيالها مش بيغيب عن بالي!
ـ الناس هتاكل وشك!
ثم سكت قليلًا وأخذ يتأمل بسيوني، وأردف:
ـ آني جالي أخبار من البلد إنها مقري فاتحتها على جدع من البندر.
نهض كأن حية لدغته، وجلس مستربعًا قبالة ديسطي، وأمسك بذراعيه وأخذ يهزّه بعنف وعيناه جاحظتان من الغضب:
ـ بتقول ايه يا ابن الكلب؟!
طأطأ صاحبه رأسه، وأجاب معاتبًا ودموعه تتلألأ في عينيه:

ـ بقى كده؟ دي آخرتها؟!
بعث ليتسقط أخبارها، وجاءت كما أنبأه رفيقه، فأصابه الغمّ والهمّ والكدر، وصار لا ينزل إلى عمله، كما كان حاله في بداية دخوله تلك البلاد، كان يكتفي بإرسال صاحبه مراقبًا على الأنفار، بينما كان يجلس في غرفته، يحصي خيبة قلبه.. وتمضي أيام الغربة، وذات يوم أسرّ لديسطي برغبته في الزواج من صبية مثل تلك التي يشاهدهن في التلفاز، ترتدي مثلهن، تنطق مثلهن، تعيش بينهن، وأرسل الولد لأمه خطابًا، أخبرها عن النعمة التي يتمرغ فيها ابن الدكر في بلاد الغربة، وأرسلت إليه آخر تبشّره بالعثور على عروس، كان البحث عنها كالبحث عن إبرة وسط كومة قش.. ففرح وعقد العزم والنية على العودة إلى كفر الدكر، من أجل عقد القران من تلك الفتاة «الفرصة» كما أخبرته الكاتعة..
ابنة وزير سابق، حفيدة باشا، تعيش في حي الزمالك أحد أرقى أحياء العاصمة، ذات عينين زرقاوين وشعر أصفر ناعم منسدل على كتفيها، ووجه أبيض مثل اللبن الحليب، لا يعكّره شيء، سوى حسنة سمراء تحت عينها اليسرى، تضفي سحرًا وبريقًا جذابًا، شفتاها مرسومتان كشفاه نجمات السينما، ترتدي بلوزة تظهر نصف صدرها الناهد، وتنورة تكشف جمال ساقيها البيضاوين وخصرها النحيل.. كانت تصفها له، وكان يطير بخياله معها في فضاءات فسيحة، فتلك الفتاة ابنة الأصول تليق بابن الحسب والنسب، حفيد الدكر المؤسس.. «مش اللي ما تتسماش بنت بتاع البهايم وأمها اللي وشها يقطع الخميرة من الدار!» هكذا ختمت حديثها لبسيوني، العائد لتوه من الخارج، واتفقا على السفر معًا عند شقشقة الصبح إلى العاصمة حيث حي الزمالك، الذي تسكن العروس في إحدى فيلاته المطلة على النيل..

٨

انتظر الساعات تمر ليسافر إلى بلد المحبوب.. بيد أن مياهًا جرت في نهر البلد، أجّلت ما انتواه..
زلزال ضرب كفر الدكر، خلخل ثوابتهم الراسخة منذ سنين، وأطاح برؤوسهم جميعًا.. انقلبت البلد رأسًا على عقب، فالحادث جلل، والمصيبة عظيمة.. لم يكن لأحد منهم، حتى هؤلاء الأفندية الذين كانوا يعلنون التمرد والعصيان على الرجل، ليصدّقوا ما حصل..
كان وحيدًا في عشته، وحيدًا مع الملائكة والأسياد في خلوته، بعد يوم عمل شاق.. أراد الراحة ساعة، وانتظر الزوار والمريدون أمام العشة المقدّسة ساعات.. ولم يُفتح الباب، ولم يخرج ليلوّح لعشاق حضرته الشريفة بيده البيضاء الطاهرة كما كان يصنع يوميًا.. تسرب القلق إليهم سريعًا، كتسرب مياه الترعة في أرض جناب العمدة، وقال أحدهم بصوت هامس، محاولًا ترويض وحش القلق في نفوسهم:
ـ زمان سيدي وتاج راسي وراس أهلي مريّح شوية..
وهزّوا رؤوسهم غير مصدّقين، وردّ آخر:
ـ مولاي عمره ما ينام وفيه عباد على بابه مستنيين!
وقال ثالث:
ـ زمانه قاعد مع ضيوفه الملايكة والأسياد.. ومايصحش يسيبهم ويقوم.
انتشر الخبر في البلد، كانت الكاتعة في دارها تستعد للسفر، فهرولت مسرعة إلى العشة، فلا أحد من البلد ولا خارجها بمقدوره ولوجها واقتحام الخلوة الشريفة سواها.. ودلفت داخلها بخطوات

ثقيلة، وعيون الخلق يشيعونها بأنفاس محبوسة وقلوب متوسلة.. كانت عيونهم شاخصة ناحيتها، صامتون كأن على رؤوسهم الطير.. لو لدغ أحدهم ثعبانًا ما تحرك من مكانه قيد أنملة، وما خرج من حلقه صوت ولو همسًا..
انتظروها لتلقي الطمأنينة على قلوبهم المضطربة، ساعة كاملة، حتى خرجت وصاحت بصوت يقاوم الحزن، وعينان مطرقتان أرضًا:
ـ سيدي طار.. مدد يا سيدي الطاير.. مدد!
وهتف المريدون بقلوب حائرة بين الحزن والفرح، وعيون دامعة، وحناجر تُجاهد من أجل إخراج الصوت:
ـ مدد يا سيدنا الطاير.. مدد!
وقادتهم رغبة جنونية لا يعرفون مصدرها لدخول العشة المقدّسة، وسط صراخات رافضة ومستنكرة من الكاتعة.. فلاقوه، كما هو قاعد على أريكته الخشبية الوثيرة، مغمض العينين، مازالت إحدى يديه مطبقة على مسبحته، كان وجهه مبتسمًا يشع منه النور.. كانوا يلمسون جسده الشريف ويمسحون على أجسادهم.. كأن هول المفاجاة أصابهم بهستيريا من الضحك والبكاء في آنٍ واحد.. كانوا يتنافسون ويتزاحمون فيما بينهم، على وضع حذاء سيدنا على رؤوسهم، كان الرجل يضع الحذاء على رأسه، فيمسك الآخر بخناقه لكي يحوز هو الآخر ذلك الشرف.. وحملوه دون ترتيب بينهم ولا تفكير فوق الأعناق، وطافوا به كفر الدكر كله، وهم يهتفون:
ـ مدد يا سيدنا الطاير.. مدد!
وأقسم كثير منهم أنهم رأوا الجن والعفاريت يذرفون الدماء من عيونهم حزنًا، ويزاحمونهم لكي يحظوا بشرف حمل جثة سيدنا المباركة.. وذلك ما أكده بيومي العبيط، الذي أعلن على الملأ أن امرأته سماسم الجنية دبّت معه خناقة لرب السماء، لأنه لم يطر ليخبرها بالحدث الجلل، حيث جاءت يومها متأخرة عن أختها سهير جنية البئر، التي شافها نفر ليس بقليل في البلد، وهي تشقّ جيوبها، وتلطم خدّيها، وتندب وتبكي حزنًا..

٩

هل مات؟ سؤال كان يدور في أذهان كثيرين من أهل البلد، بيد أنهم لم يصدّقوا أعينهم، التي رأت جثمانه يوارى الثرى، كغيره من البشر.. كانوا يُكذّبون أنفسهم، فالرجل ليس مثله أحد، أو هكذا اعتقدوا سنين عدّة حتى صار الأمر عقيدة راسخة في قلوبهم وعقولهم.. ليسوا على استعداد أن يهدموا ذلك البنيان المتين، ولو دفعوا أعمارهم ثمنًا لذلك.. فالطائر كان القوة الخارقة التي كانوا يرتكنون إليها دائمًا لتخلّصهم من شرور الآخرين، وتدفع عنهم ظلم أعدائهم..
وذات ليلة، خرجت تجري في شوارع البلد، وتهتف كالمجنونة:
ـ سيدنا طار يا بلد!
واستيقظ الخلق على صوتها، وهتفوا خلفها كالمجاذيب، حتى وقفت عند قبر الطائر، وألقت بنفسها فوقه، وطفقت تبكي وتضحك في آنٍ واحد، بعينين جاحظتين ووجه يثير الرعب في القلوب.. ولم يستجرئ أحد منهم أن يسألها ما الخطب، سوى سيادة النائب فوزي الدكر، الذي صاح فيها غاضبًا، وهو يُلوّح نحوها بعصاه الغليظة:
ـ ابعدي يابت عن التربة، الراجل زمانه نايم متقلق من عمايلك السودا!

ضحكت ضحكة خلعت معها قلوب الحاضرين، الذين استنكروا ما تصنعه في صمت وهم ذاهلون.
واستشاط الحاج غضبًا وغيظًا، وانهال عليها بعصاه الغليظة انتقامًا منها على ضحكتها التي بدت له ساخرة منه، وسال الدم من رأسها، وتساقط على القبر، كالأمطار وسط الضحكات الهستيرية المخيفة.. ثم صمتت قليلًا، كانت ترمق الناس.. وأعلنت بلسان الثقة، وقد تبدّلت حالها، وعادت هيئتها إلى ماكانت عليه، كأنها تزفّ البشرى، بوجه مبتسم:
ـ حبيبي وسيدي.. طاااااااار!
ردّ العمدة الذي جاء لتوه مستغربًا:
ـ ما احنا عايفين يابت.. منك للـه سيبتي يكبنا من الخوف!
هتفت ثانية:
ـ سيدي طار يا كفر الدكر.. جثته طارت من التربة!
انخلعت مفاصل الحاضرين رعبًا وفزعًا من حديثها، وودّ كثير منهم لو أطلقوا سيقانهم للرياح، وأطبقت الأفواه صامتة.. وأردفت:
ـ مش مصدقين؟!
وأخذت تنبش القبر بفأس كان مع أحدهم تخلّى عنه لها دون مقاومة، كان واقفًا كالتماثيل مثل أقرانه بعيون جاحظة، وهم يشاهدونها والفأس يصل إلى قاع القبر، ولا أثر لجثمان الرجل سوى خاتمه..
ظلت سحب الدهشة والاستغراب والصدمة تُخيّم على أجواء كفر الدكر أيامًا عدّة، فليس من السهل عليهم التنازل عن ثوابتهم، وهم يرون رجلهم الخارق يُوارى الثرى كغيره.. الآن عادت إليهم أفكارهم وعقائدهم الراسخة، سيدي الطائر لم يمت، ولن يموت، سيبقى أبد الآبدين.. سيعيش طالما بقت كفر الدكر، وإن لم يكن بجسده الشريف، فبروحه التي ستحوم حول البلد تحميها وتحفظها وتدافع عنها إذا ما أصاب أهلها مكروه.. رغم أن كثيرًا منهم أعلنوا صراحة أن سيدنا طار إلى السماء في مهمة كتلك الذي ذهب إليها من قبل، وسيعود إلى الأرض ثانية، بشحمه ولحمه لينير للكفر الدروب المظلمة..

١٠

كاد الحزن يلتهم قلبها على فراق الطائر، الذي قد تضطره الظروف للمكوث طويلًا في السماء هذه المرة، وشحب وجهها ووهن جسدها، وراح صوتها من أثر البكاء والنواح.. كانت تقضي الليل بطوله، وحيدة باكية، لا يعرف النوم لعينيها طريقًا.. سوى في تلك الليلة القمرية، التي باغت فيها النوم عينيها، واستسلم جسدها النحيل، وراحت في سابع نومة بعد سبع ليالٍ عجاف.. كان كالبدر ليلة أربعة عشر، كان جسده يُشعّ نورًا.. مسح على رأسها، ورسم ابتسامة على وجهه المستدير كقرص الشمس، وطبع قبلة على جبينها، وقال بصوت دافئ حنون:
ـ ازيك يابت يا كاتعة؟
جحظت عيناها، وطفقت ترمقه بدهشة واستغراب، وتأتأت كالطفلة التي مازالت في طور تعلم الكلام:
ـ نحمده يا سيدي!
ضحك ضحكة خفيفة، أظهرت أسنانه البيضاء، وداعبها، ثم اتخذ وجهه ملمح الجد وقال:

ـ لابسه اسود ليه يا حبيبتي؟
أجابته على الفور:
ـ هالبس اسود لأغلى منك؟!
ـ آني ماموتش يا بت!
ابتهجت ونهضت من فراشها، وأخذت تتحسسه، بينما هو يضحك، وصاحت:
ـ بجد يا تاج راسي.. أومال انتَ غايب عننا فين؟
أشار إليها بيده إلى أعلى، وهمس بصوت خفيض:
ـ فوق.. هناك!
ـ مدد يا سيدي الطاير.. مدد!
وضع يده على فمها، وقال:
ـ بطّلي غلبة، وقومي اقلعي الاسود، والبسي أبيض في أبيض، وافتحي العشة، واقعدي مكاني اخدمي الخلق فترة غيابي.
ضربت على صدرها مستغربة، وهتفت وهي تُكوّر راحة يدها تحت ذقنها:
ـ يا حوستي يامه، آني يا سيدي؟ هو آني أعرف أسدّ مكانك؟ داني حيالا خدامة تحت رجليك!
قهقهه وهتف:
ـ انتِ من الوقتي من الأوليا، زيك زيي، والناس هتقولك من هنا ورايح، ستنا الكاتعة.. بلغي أهل البلد سلامي.
ثم خرج من دراها مخترقًا الجدار، ونهضت تخلع عنها جلبابها الأسود، وأبدلته بآخر أبيض، وخرجت تهتف في شوارع الكفر، بينما الناس نيام:
ـ سيدي وتاج راسي زارني الليلة يا كفر الدكر!
واستيقظوا على صوتها، واستنكروا فعلتها، لما رمقوها تلفّ الكفر بثياب بيضاء، والطائر لم يكمل بعد عشرة أيام، لكنهم تبعوا خطواتها، التي قادتهم إلى العشة المقدّسة، وقبل أن تدلفها التفتت إليهم، وطفقت عيناها تجول في وجوههم البائسة، وعيونهم الشاخصة ناحيتها، كانوا واقفين كتماثيل خشبية مرصوصة بجوار بعضها في صفوف، وصاحت:
ـ مدد يا سيدي الطاير.. مدد
وهتف القوم خلفها:
ـ مدد يا سيدنا الطاير.. مدد!
وأمرتهم أن يفترشوا الأرض قعودًا، كانوا صامتين كأن على رؤوسهم الطير، منقادون كأنهم منومين مغناطيسيًا.. وحكت لهم عن زيارة سيدنا، ووصيته لها، وتحيته لهم، كانوا يقطعون حديثها، هاتفين لها ولسيدنا الطائر، وكانت تطلب منهم أن يلتزموا الصمت، ليتسنى لها أن تأتي على آخر الحكاية، التي ما إن انتهت منها، حتى ابتهج القوم، وهتفوا ورقصوا حتى الصباح، بينما دلفت ستنا الكاتعة إلى داخل العشة المباركة، لتباشر مهام عملها، وجاء العمدة مهرولًا وخلفه الخفر، وشيخ خفرهم الجديد رجب الكلاف، وأعلنوا التمرد والعصيان، وطالبوها بالخروج من ذلك المكان المقدّس، وخرجت واقفة عند الباب، وثنت جسدها كالحية، وأشارت بيدها، وصاحت بلهجة متحدّية وهي تضع يدها الأخرى في خصرها:

ـ بتقول ايه يا جدع انتَ وهو.. سمعني يا عمدة، سمعني ياواد يا كلاف انتَ.. الراجل منكم يقرب حدا الباب كده، وآني أقطع رجله وخبره من الدنيا!
تبادلوا النظر، وهم مطرقو الرأس، وحاول كبيرهم حفظ ما تبقى من ماء وجهه أمام أهل البلد وقال متأتئًا، بلهجة تتأرجح مابين الجدية المزيفة والتوسل المستتر:
ـ جيا ايه يا بت يا كاتعة انتِ، مالك طايحة في الناس كده ليه؟!
أجابته وقد نفشت شعرها، وطفقت تخلع عنها جلبابها، كما تصنع دائمًا في كل خناقاتها، فتقضي على خصومها بالضربة القاضية، بعدما يفرون من أمام وجهها، وقد نشف الدم من عروقهم:
ـ عاوز ايه يادلعدي.. جرى ايه ياخويا؟!
لم تكمل حديثها بعد، وطفقت خطوات العمدة تتقهقر إلى الخلف، يتبعه خفره، بينما الناس تحاول كتمان الضحكات المارقة المنفلتة من أفواههم عنوة دون فائدة، فالمعركة الوحيدة التي يخسرها رجال كفر الدكر من كبيرهم لصغيرهم، هي تلك التي تُمثّل فيها الكاتعة الطرف الآخر.. وابتلع ضباب الصباح الذي زحفت خيوطه على الحاضرين عند العشة أجساد موسى ورجاله.. وأذاعت ستنا إلى الخلق الحاضرين سرًا، وهي تضبط جلبابها ثانية وتضع الطرحة البيضاء فوق رأسها، وتهمّ بالولوج داخل العشة:
ـ اليهودي ابن اليهودي مش هتطلع عليه شمسين..

١١

ووصلت إلى مسامع جناب العمدة ما تنبأت به ستنا الكاتعة، فانخلعت مفاصله من الرعب، ودلف الغرفة التي يحفظ فيها فلوسه، وطفق يقربها من أنفه ليشمها، ويكومها فوق بعضها ويحتضنها باكيًا كالمودّع.. ومر يومان وثلاث ليالٍ، ولا حسّ ولا خبر له في البلد، وشارك القوم في التخمين.. منهم من قال إن الأرض انشقت وبلعته.. ومن رأى أن جنيًا وراء اختفائه، انتقامًا وثأرًا لكرامة ستنا الكاتعة.. وتطرّف البعض وذهبوا إلى أن اللـه قد سخطه قطًا أسود، جزاء لما اقترفه من ذنب في حق الأولياء، وكذلك كرامة للفقراء والمساكين الذين ابتلع أموالهم بالربا.. وقد أقسم أحدهم بأيمانات المسلمين والنصارى أنه رأى هرًا أسود عند دوّاره، كان ينونو ويبكي والدموع تنحدر من عينيه، وسمعه يتكلم كالبني آدم، ويردّد: آني موسى يا بلد، آني العمدة ياكفر الدكر..
يومها ابتلع الرجل لسانه من الخوف، وهرول مسرعًا إلى داره، ونام شهرًا كاملًا في الفراش، يبكي ويصيح كالمجنون: القط الأسود.. شوفت العمدة يا ناس. كان جسده يرتعش تحت اللحاف الأبيض وقماش أجولة القمح البالية، والقش الذي وضعوه فوقه ليردع الارتعاش، وباءت كل المحاولات لعلاجه بفشل عظيم، وحمله أهله فوق العربة الكارو، وذهبوا به إلى ستنا الكاتعة، ووضعت يدها المباركة عليه، وغمغمت بكلمات كتلك التي كان يرددها سيدنا الطائر، وإذا به يرجع إلى داره كأنه ثور يجر ساقية بمفرده.
يومان وثلاث ليال ولا أثر له، سوى تكهنات أهل البلد، التي اتخذت من بعضهم شكل السخرية، وقال أحدهم للأنفار في الغيط:
ـ زمان روحه ماشية تلفّ في السما على مطرح يلمها، لحد لما تدوخ ومش هتلاقي!
وضحكت النسوان، وصاحت إحداهن:
ـ داهية لعادت ترجعله أترا!

وقالت جارتها وهي تلكزها في جنبها:
ـ والنبي ياختي انتِ هبلة، فاكرة يعني كده هترتاحي؟ وراس سيدي الطاير، اللي هاييجي بعده أوسخ منه!
استهجنت المرأة حديث جارتها، وقالت وهي تُكوّر يدها تحت ذقنها:
ـ لا يابت.. دا حضرة الضاكتور ابنه حتة سكّرة!
ضحكت الأخرى مقهقهه ثم اتخذ وجهها ملامح الجدية والقهر، وقالت:
ـ كان زمان.. اتفرجي وشوفي بعد كده هايعمل فينا ايه، كلهم زي الكلاب لما بيترمى لهم عضماية بيتسعروا!
هزت المرأة رأسها في أسى، وانحنت فوق عود القطن، تنقي الغلت، وهتفت بلهجة آسفة:
ـ يادي النيلة علينا، ياحظك الاسود يا كفر الدكر!
فقد ابنه وأهل البلد الثقة في العثور عليه.. وذهب إلى ستنا سائلًا، بعدما كان يضرب الأرض بقدميه رافضًا من قبله، ولم تمنحه جوابًا شافيًا.. أمرها الأسياد أن تمتنع عن الرد، حتى لا ينتشر الخوف والهلع في ربوع الكفر..
طافت روحه أرجاء الأرض والسماء بحثًا عن ملاذ، ولم ترضَ لا هذه ولا تلك.. وحلت أخيرًا بعد محايلات ومفاوضات في جسد جاموسة عُشر سمينة، كان المرحوم قد انتوى أن ينتزعها قبل تلك الحادثة من صاحبها، لتكاثر الديون المتراكمة عليه.. كانت الجاموسة ترفس صغيرها بعد ولادته برجليها الخلفية، فاستغرب صاحبها حالتها الغريبة الطارئة.. واختلف إلى العشة المقدّسة سائلًا، فسكتت عنه للحظات، كانت تهمس لنفسها.. البخيل متستخسر «البق»اللبن في العجل.. ثم صاحت آمرة بلهجة حاسمة قاطعة:
ـ ادبحها ووزّع لحمتها على الدراويش!
تأتأ الرجل وهو يُضيّق عينيه ويحني ظهره قليلًا ويقرّب كتفيه من بعض، ويوشك على البكاء:
ـ بس...
أشارت إليه بالصمت، وشخطت:
ـ مابسش، اسمع الكلام ونفّذ، إن كنت عايز تحافظ على عيالك!
وخرج المسكين من العشة يندب حظه وحياته السوداء، وشقاء عمره الذي راح هدرًا، وعاد إلى داره وهو يُحدّث نفسه كالمجنون، والناس يسألونه باستغراب وقلق، ما أمره، وهو سادر في طريقه، يضرب بكلتا يديه رأسه، ويصيح:
ـ داري اتخربت.. وسطي اتحشّ!
ولم تمر ساعة، حتى وصل خبر ذبح الجاموسة إلى مسامع أهل البلد، فذهبوا إليه، يقدّمون واجب العزاء والمواساة..
يردّد كل من زارها في عشتها المقدّسة، أن روح سيدنا الطائر قد تلبستها، وصارت تتحدّث وتمشي وتأكل مثله. وهو مالم تنكره، بل زادت وقالت:
ـ سيدي الطاير آني، وستنا الكاتعة آني!

رجع ابن الدكر إلى البلد، فهطلت الكوارث على رؤوس أهلها كالمطر.. كانوا يتساءلون فيما بينهم عن سر النحس الكامن في هذه العائلة العجيبة، التي أوشكت على الفناء، ولم يبقَ منها سوى ذلك الجدع «أبو قدم أحفر».. فبعد مولده، غاب أبوه للأبد.. وأرسل عمه إلى الموت في أول قافلة، يوم فكر في الزواج.. ويوم رجع إلى البلد، طار سيدنا، واختفى العمدة..
لم ينسَ حلم زواجه من ابنة الأكابر، رغم اتشاح كفر الدكر بالسواد حزنًا على سيدنا.. وداست الكاتعة على حزنها وألمها، وسافرت معه قاصدة بيت العروس خفية، حتى لا يأكل الناس وجهيهما لومًا وتبويخًا.. فالفقيد الغالي لم يكمل بعد أسبوعه الأول، لكن الحي أبقى من الميت، هكذا كانت تردّد لابن الدكر..
استقلت معه سيارته الحديثة، وخرجا من البلد ليلًا، كانت تحكي له عن عروسه ابنة سيادة الوزير السابق، وهي تضربه على كتفه مازحة:
ـ اوعى يا وله يا بسيوني تنسى خالتك الكاتعة!
وردّ العريس وصورة العروس ماثلة أمام عينيه:
ـ بس ترضى هيا!
أجابته وقد قطبت جبينها، ورسمت علامات جدية مزيفة على محياها:
ـ ترضى مين يا ابن الدكر، آني الكاتعة يا وله، داني عاملة للبت دي عمل، يخليها تدوب في دباديبك!
ـ هيبقالك الحلاوة.
ـ أما نشوف، باين عليك بخيل زي الدلعدي أبوك وعمك!
صاح مستغربًا:
ـ ولاد الدكر أكرم من الكرم!
لكزته في جنبه وضحكت:
ـ والنبي ياخويا، وحياة سيدي الطاير، كانوا زباين ليل على ما تُفرج.. بس آني مش مسامحة أبدًا، أي حد أكل عليا عرقي.
ووصلا إلى فيلا العروس المنيفة على ضفة النيل، كان سيادة الوزير وحرمه وعروسه في انتظاره، بوجوه مستبشرة مرحبة، أضفت البهجة والفرحة في المكان، وأشعلت جذوة الأمل في نفس ابن الدكر، الذي جاء ومازالت ذكريات ليلة ذهابه وعمه عند رجب الكلاف طافية على السطح، ولم يستغرق اللقاء سوى بضع دقائق، ومن ثم امتدت يده تعانق يد سيادة الوزير، ليقرأ الفاتحة، ويوزّع الخدم بعدها الشربات على الحاضرين، وتتنافس أم العروس والكاتعة في إطلاق الزغاريد، التي أعلنت للجميع عن خطبة حفيد آخر ملوك الأندلس، إلى نجلة الوزير وحفيدة الباشا.. واتفق العريس وحماه على إقامة حفل زواج أسطوري، يحييه ألمع المطربين والراقصات.. وارتسمت على محيا صهره علامات استغراب وحيرة فجأة، وقال وهو مطرق الرأس:
ـ مستعجل ليه يابني؟
ضحكت، وردت نيابة عنه:
ـ عايز يتجوز بسرعة ياساعت البيه.. لما شاف العز والأبهة، خاف ترجعوا في كلامكم!
استنكر حديثها، وغمغم بحديث لم يفهمه أحد غيرهما.

وقالت العروس، وساقاها العاريتان فوق بعضيهما، بصوت خفيض، والحروف تخرج حرفًا إثر آخر من بين أسنانها البيضاء، وعيناها مسبلتان توزّع النظرات بين أبيها وابن الدكر:
ـ مش حاقدر أعيش في الريف يا بابي!
أصاب الارتباك والاضطراب قلبه، ونظر بطرف عينيه إليها، فغمزت له وهي تعضّ على جانب شفتها السفلى، ورسمت ابتسامة مصطنعة على وجهها وقالت:
ـ انتِ تأشري يا ضنايا، احنا حدانا أعز منك؟
ثم خبطت بيدها فوق ساق العروس العارية، فأحدثت صوتًا، ونظرت بطرف عينيها إلى ابن الدكر وسألته:
ـ مش كده يا عريس؟
أومأ برأسه مبديًا موافقة لاهثة، فبادرته حماته هي الأخرى بطلب، وهي تجلس على طرف الكرسي الوثير، وواضعة ساقًا فوق أخرى، وعيناها شاخصتان إلى أعلى، في أنفة وكبرياء:
ـ فرح بنتي لازم يكون في أوتيل خمس نجوم!
ردت وهي مازالت محافظة على ابتسامتها المزيفة:
ـ وماله يا ست هانم، وفي عشر نجوم كمان!
وأقيم حفل الزفاف بعدها بثلاثة أيام، كان يحسبها دهرًا كاملًا، من فرط ما كان يشعر، أخيرًا سيقترن اسمه بفتاة من البندر، وليس أي بندر، ومن عائلة وليست أي عائلة، سيموت الكلاف وزوجه وابنته الدكتورة كمدًا وهمًا، حين يرون بأعينهم الصفراء بسيوني وبجواره تتبختر ابنة سيادة الوزير، سيقف التاريخ قليلًا ليُعيد عجلاته للخلف، وليعلم أهل البلد الذين ما أخزاهم عن السخرية منه و«النأورة» عليه غير الأبهة التي رجع بها من السفر؛ أن ابن الدكر عاد، ليستعيد مُلك جده المؤسس..
وتوافد المدعوون على قاعة الأفراح الشهيرة في أكبر الفنادق المطلة على النيل، كان جلّهم من أبناء كفر الدكر، الذين تسللوا من البلد من وراء بعضهم، خشية الجُرسة والفضيحة، بالرغم أن أغلبهم كان يلعن ويسب ابن الدكر، لقلة ذوقه وأدبه، فسيدنا لم يكمل في قبره عشرة أيام، بينما كان أهل العروس لا يتعدّون أصابع اليد الواحدة..
ليلة بدأت سعيدة، رقص فيها المدعوون، حتى انخلعت مفاصلهم من التعب على أنغام الموسيقى الصاخبة وأصوات نجوم الغناء، وكادت تنتهي بسلام، لولا ذلك المطرب الذي وقف أمام العريس وعروسه، وغنى بصوت يشبه زعيق شيخ الخفر غريب الملط: «بحبك يا حمار».. وأمسكت ابنة سيادة الوزير برابطة عنق بسيوني، وسحبته خلفها كالمطية، والتقطت الميكرفون، ورددت خلف ذلك المطرب، وهي تتقافز وترفع يديها إلى أعلى، طالبة من الحضور التصفيق والتهليل، فتهالك الجميع من الضحك من هيئة ابن الدكر، الذي احمرّ وجهه واصفرّ، وجذب رابطة عنقه من بين يديها، ورفع رأسه ويده إلى أعلى وهوى بها صافعًا وجهها، فسقطت أرضًا مغشيًا عليها، بينما كانت الدموع تتساقط من عينيه، وهو يرمق وجوه كفر الدكر الهازئة من هيئته، وألقى عليها اليمين ثلاثًا، ورجع إلى البلد، وحيدًا مجندلًا بالهموم، وشقاء العمر الذي ضاع هدرًا.. عاد لتصير قصته مثارًا للتندر والسخرية، من الرجال والنسوان، اللائي ما صدقن أن وجدن تلك الحكاية الشيقة لتشبع فضولهن، وتساعدهن على قضاء الساعات الطويلة في الغيط.. بعدما أوشك نهر روايات أبناء الدكر على الجفاف..

١٣

عاد ابن الدكر إلى البلد، حافي القدمين، بجلباب قديم مهترئ، يحدّث نفسه، هارشًا شعره الأشعث كالأجرب، ويحكّ جلده بأظفاره الطويلة المتسخة، بينما النسوان يشتلن الأرز.. شرعت إحداهن ورمقت هيئته، وقالت:

ـ شوفي يا مفضوحة انتِ وهي الجدع بيكلم نفسه.. لا حول ولا قوة إلا باللـه!

وضربت كفًا بكف. ولكزت أخرى جارتها المنهمكة في الشَتل:

ـ ابن نبوية مخه اتلحس، عقبال أمه!

ردّت بعدما ألقت الشتلة أرضًا، ووضعت يدها حول ذقنها، بصوت يدّعي الحكمة:

ـ يابت حرام عليكِ، انتِ لسه قلبك اسود، ده بيقولوا البت البندارية قشّت كل اللي وراه واللي قدامه، وماعدش حيلته اللضى!

ضحكت إحداهن وعينييها تنطقان غلًا:

ـ يستاهل، ده وجيعة تاخده وتاخد أمه، عامل زي القرع بيمد لبره!

ثم أخفضت صوتها وطلبت منهن أن يدنين منها، وأردفت:

ـ والنبي آني سامعة بوداني دي جدع من اللي راحوا الفرح، بيحلف بغلاوة سيدي الطاير للدلعدي جوزي، إنه شاف العروسة بعينيه اللي هايكلها الدود، بترقص في كباريه، وأبوها كان بيلم النقطة!

شهقن جميعًا مستغربات، كأن ماءا مثلجًا صُبّ عليهن فجأة، وهتفن بصوت واحد:

ـ إهيه! ياحسرتي!

وصاحت إحداهن:

ـ يستاهل عشان اتعدى الأصول.. ديه ذنب سيدي الطاير، الراجل لسه مابقلوش اسبوعين في التربة، وهو عاملي فرح ومسخرة؟ اسمعي يابت انتِ وهي، الواحدة مننا تزعل أي حد، وماتجيش جنب حد من الأوليا، أصل غضبهم وحش.. مدد ياسيدي الطاير.. مدد!

وهتفن خلفها بقلوب واجلة مرتعبة:

ـ مدد ياسيدي الطاير.. مدد!

تدهورت حالة آخر دكر، وصار يعوي ليلًا كالذئاب، ويصيح بصوت عالٍ، قذف الرعب في قلوب أهل الكفر:

ـ شقى عمري في بطن الحوت.. وعزيزة ضحكت على يونس!

واشتكى الناس منه، فأمر سيادة النائب فوزي الدكر رجاله بإلقاء القبض عليه، وإيداعه مستشفى الأمراض النفسية والعصبية.

١٤

مرّ على اختفائه أربعون يومًا، ولم يظهر بعد، وتملك اليأس من نفوس أهل البلد من عودته، وإن كان أغلبهم يدعو اللـه سرًا، بحق حبيبه النبي، ووليه سيدنا الطائر: داهية لا ترجعه البعيد.. وإن كانوا يعلنون عكس ذلك، وتلك من عادات الناس في كفر الدكر، يبطنون شيئًا ويظهرون عكسه مع الكبار ذوي السلطة والنفوذ..

أقسم بعضهم أنه رأى المرحوم يمشى على الحيط مثل الصراصير، وآخر ادّعى أنه سيظهر في آخر الزمان، ممتطيًا حمارة عرجاء سوداء، لونها يُخيف الناظرين، وسيسعى في البلد، يردّ أموال

الناس التي أكلها بالربا، ويعلن إسلامه، فيتحوّل لون الحمارة بقدرة قادر من الأسود المرعب، إلى الأبيض الباعث على الاطمئنان، ويتبعه أهل الحظوة، ويقيم العدل في كفر الدكر.. وأنكر الناس تلك النبوءة، وأعلنوا احتجاجهم على صاحبها، وصاح واحد منهم متذمرًا:
ـ واحنا مالنا ومال آخر الزمان، احييني النهارده وموتني بكره.. كسبنا صلاة النبي!
وزاد آخر:
ـ يرجعلنا شقى عمرنا اللي حطه في بطنه، وإنشاللا بعد كده يركب فيل! قال آخر الزمان قال!
وزاد اللغط، وانقسم الناس بين مؤيد لعودته، ورافض لها، حتى ستنا الكاتعة خليفة سيدي الطائر لم تحسم أمره بعد، سوى أنها أسرّت لبعض المقربين منها من الدراويش والمجاذيب، أن روح المرحوم معلقة، بعدما ذبحت جاموسة الرجل التي كانت تلبستها، فالأرض لفظتها، والسماء لعنتها، غير أن الميت لايجوز عليه سوى الدعاء بالرحمة.
لا يمكن للكفر أن يعيش دون قائد، يضبط إيقاع أهله، ويحمي ممتلكاتهم وأعراضهم، ولابد من عمدة قوي، يعيد للبلد هيبته المفقودة، التي صارت مضغة على ألسنة كفر أبوعلي، يتندرون عليها ويسخرون من أهلها، ومن دكرهم وذريته الضعيفة من بعده، مازال الحقد الأسود يسكن قلوبهم..
رجع ابن العمدة إلى الكفر يطلب سلطة أبيه، بيد أن الوقت كان قد نفد، وأعلن كثير من الخلق ولاءهم للحاج فوزي الدكر، فهو أولى بالعمدية.. وتناثرت الأقاويل من هنا ومن هناك، أن الجدع الدكتور الطامع في وراثة منصب أبيه، تربطه أواصر صداقة حميمية بالصهاينة، هكذا أقسم شيخ الجامع باللـه وبسيدي الطائر، وشهق المصلّون من الاستغراب والعجب، وهم يضربون كفًا بكف، ويردّدون بحسرة وألم: مصاحب صهاينة! وأقيمت الصلاة، وخرجوا من الجامع، وتنحى كل واحد منهم بالآخر، سائلًا بصوت هامس، وعلامات الخجل بادية على وجهه:
ـ إلا الصهاينة دول ايه يا وله؟
وكان المسؤول، يكتفي بهزّ كتفيه ويجيب:
ـ وسيدي الطاير ما اعرف!
غير أن أحدهم قال بينما هم يعزقون أرض الذرة، أن الصهاينة هؤلاء نفر من البشر يعيشون في كفر أبوعلي، فألقى زملاؤه فئوسهم أرضًا، وصاحوا ثائرين:
ـ يعني مصاحب ناس من كفر أبوعلي، داهية تاخده وتاخد أبوه مطرح ما راح!
وظل الخلق في كفر الدكر أيامًا عدّة، يصبّون غضبهم على عميل كفر أبوعلي اللعين، يقسمون أنه لن يصير عمدة بلدهم سوى على جثثهم.. إلى أن سمع أحدهم في التليفزيون المذيع يأتي على سيرة الصهاينة، فانطلق الرجل في البلد كالمجنون غاضبًا، يردّد الصهاينة وصلوا التليفزيون يا أهل البلد، كفر أبوعلي بقوا من الأكابر وسيرتهم وصلت لآخر الدنيا!
واستوقفه جدعان من الأفندية الذين يدرسون في الجامعة، واستفسروا منه عما يقصد، فانفجروا ضاحكين، وسط نظراته الحانقة المستنكرة، وزعيقه:
ـ بتتنأورا عليا يا وله انتَ وهو؟! عاملين نص الدنيا؟! قوم يا ابن الكلب.. شوف وشك انتَ وهو في نقرة جَلّة!
وتماسك أحدهم، وربت على كتفه وهو يكتم ضحكاته، وقال:
ـ صهاينة مين يا با الحاج؟
ردّ ووجهه محمرّ من الحنق:

ـ وسيدي الطاير.. آني سامع المذيع بيجيب سيرتهم!
ثم وجّه حديثه لباقي الأفندية هازئًا:
ـ قوم ياخويا انتَ وهو شوفوا خيبتكم، روحوا اتعلّموا من جدعان كفر أبوعلي، خلّوا سيرة بلدهم تيجي على التلافزيون!
ألجم الجدعان مارد الضحك، وأخبروا الرجل بماهية الصهاينة، فاحمرّ وجهه خجلًا وفرحًا، وقال:
ـ ياما انتَ كريم يارب.. كويس انهم مطلعوش من كفر أبوعلي، حاكم انتم ماتعرفوش آني كنت مغموم ومفروس قد ايه، عشان سيرة البلد دي تيجي على التلافزيون واحنا لأ!
ثم أغلق عينه اليسرى وفتح اليمنى، وسأل
ـ اوعوا تكونوا بتضحكوا عليا!
استطار أمره في البلد كاستطارة النار في الهشيم، وعلم أهل الكفر أن ابن العمدة المختفي تربطه أواصر الصداقة المتينة باليهود، إخوانه في الدين، وليس ببعيد أن يأتي بهم إلى الكفر، ويبيع لهم الأرض، ويصبح فلاحو كفر الدكر عبيدًا لديهم يعملون بالسخرة في أرضهم، هكذا كان يردّد أتباع الحاج فوزي الدكر، وارتعب الناس وقلقوا على مصائرهم، واختلفوا إلى العشة المقدّسة يطلبون العون والمشورة من ستنا الكاتعة، التي كانت تصيح بصوت يشبه فحيح الأفاعي، وهي تُغمض عينيها وتهزّ رأسها وتسبح بمسبحتها، وجسدها يرتجف:
ـ يا ساتر يا ستّار.. نظرة يا ام هاشم.. نظرة يا سيدي الطاير، العون والمدد!
ورغم قسمه على رؤوس الأشهاد أن قدميه لم تطآ يومًا أرض إسرائيل، ولم يصاحب يهوديًا واحدًا في حياته؛ استنكر أهل البلد صنيعه، وزعق شيخ الجامع فيه غاضبًا:
ـ واللـه لو حلفت على المايه تجمد، ما حد مصدقك يا يهودي!
وصاح آخر:
ـ قال لليهودي احلف!
وسأله ثالث:
ـ نصدقك ازاي وانتَ على غير ملتنا، قال يعني احنا كنا قادرين على يهودي واحد، عايز تملالنا البلد من عينته!
ورغم نطقه الشهادتين أكثر من مرة، لم يصدّقوا إسلامه، مع أنهم كانوا يرونه وهو يرتاد الجامع، وقال أتباع الحاج إن هذه حيلة جديدة من اليهود الماكرين، ليحوزوا كفر الدكر، ومن ثم يطردوا أهلها.. ويهجر الخلق ديارهم ومواشيهم ومقابر ذويهم خلفهم، التي ربما يهدمها هؤلاء الخونة، ويقيمون مكانها الحانات والمراقص.. وصاح أحد أفندية البلد، ممن تربطهم أواصر النسب بسيادة النائب سائلًا:
ـ أتبيعون أرضكم؟!
وهتف الناس بصوت واحد متشنج غاضب:
ـ لا!
ـ أتبيعون ماضيكم؟!
ـ لا!
ـ إنه ـ وأشار ناحية دوار العمدة المختفي ـ حصان طروادة الذي سيدخل من خلاله اليهود بلدكم!
فهتف الجميع:

ـ على جثثنا!
ومع ذلك كانت أعينهم تتساءل في خجل عن ماهية حصان طروادة.. وتوجهوا إلى قصر الحاج، وهتفوا باسمه، وناشدوه أن يقف مع البلد، وطمأنهم الرجل من شرفة القصر، وصرّح أنه لن يخذل ماضيه وجده المؤسس، وأعلن ترشح ابنه الدكر الأصغر للعمدية، فاستغربوا وعادوا وهم يضربون كفًا بكف من العجب، فابنه لم يكمل بعد عامه السادس عشر، والبلد مشاكلها كثيرة ومعقّدة، غير أنه استصدر فتوى من شيخ الجامع بجواز بل واستحباب ترشّح الفتى، وذكر قصة الصحابي أسامة بن زيد، الذي كان في صدر شبابه، وأمّره النبي على جيش المسلمين في وجود كبار الصحابة.. لحظتئذ توقف الرجل قليلًا، كان يفحص وجوه المصلّين، وصاح سائلًا:
ـ انتوا ولا الصحابة يا أهل البلد؟
ردّوا في نفس واحد:
ـ الصحابة!
وبدت على وجهه ابتسامة المنتصر، وقال بصوت هادئ وهو يهزّ رأسه يمينًا ويسارًا:
ـ بأبي أنت وأمي يارسول اللـه.. أقم الصلاة!
ولم يكتفِ بتلك الفتوى، ولا بخطبة الجمعة، التي خُصصت للدكر الصغير.. وأقام وليمة كبيرة حضرها أهل البلد، ودعى فيها ستنا الكاتعة المباركة، وانتهزّ فرصة وجودها، واستحلفها أمام الخلق باللـه وبنبيه وبسيدي الطائر، أن تدلي برأيها، فهزّت رأسها، واستحسنت صنيعه، وباركت العمدة الجديد، الذي كان جالسًا بجوارها أثناء الأكل، بأن مسحت على رأسه بيدها الشريفة، فانصاع الناس، وخمد التمرد الذي كان في نفوس بعضهم، وحمل رجال الحاج ابنه الصغير فوق مناكبهم، وطافوا به البلد، وهم يهتفون خلف بيومي العبيط، وهو ينفخ في مزماره:
ـ عاش الدكر ابن الدكر!

١٥

رجع حافي القدمين، بجلباب أبيض مهترئ فيه من الثقوب أكثر مما فيه من القماش، يحكّ جلده وشعره الأشعث الطويل بأظفاره الطويلة، كأن مسه الجرب.. ظن أن أهل الكفر سيقفون على السكة العمومية، متراصين كالأشجار على جانبي الطريق، ينتظرون في لهفة عودة زعيمهم الميمونة، قائدهم الذي سيملأ أرض البلد عدلًا، بعدما شاع الظلم والقهر، كبيرهم الذي سيفتح بهم الأندلس، ليعيد مجد جده الأكبر.. لكن لا أحد منهم حضر لمقابلته، يبدو أنهم لم يشمّوا خبر عودته، هكذا كان يردّد بصوت عالٍ وهو يعوي كالذئاب الجائعة..
رفع ناظريه، ورمق على بعد خطوات الخلق عند العشة المقدّسة كالنمل، فصعد إلى قلبه الأمل وفرحت جوارحه.. وأحكم القبض على عصاه براحته، ورفعها أمام وجهه، وأقسم أنه لن يذوق النوم إلا في الأندلس.. لن يغمد سيفه، سوى حين تضع الحرب أوزارها، ويُعلن انتصار جيش بسيوني ابن شعبان الدكر على جيوش الأندلس، ليمجّد التاريخ سيرته.. وتحرك نحو الجمع بخطوات قائد عسكري واثق من النصر، رافعًا بصره إلى السماء، ومبرزًا صدره إلى الأمام، ونادى في القوم بصوت يثير الحماس والرغبة:
ـ آني جيت يا بلد، ابن الدكر رجع!

لفت انتباه الناس إليه في بادئ الأمر، لكن سريعًا ما أشاحوا وجوههم عنه، وعادت جذوعهم تتمايل ذات اليمين وذات اليسار بحركات متناسقة، كانت أعينهم مغلقة، والعرق الغزير يتفصد من جباههم، ويرددون خلف قائدهم الذي يلتفون حوله على شكل حلقة:

ـ مدد ياسيدنا الدكر.. مدد يا ستنا الكاتعة!

رمقهم بنظرات الحسرة والغضب والحنق، ورماهم بالجهل والغباء.. ومضى في طريقه إلى دار عمه دسوقي، التي أطلق عليها وهو في المستشفى دار الخلافة، وأخذ العهد والمواثيق على نفسه أن يجعلها مقر حكمه، بعدما يشنق امرأة عمه سليطة اللسان، بذيل كلب أسود أجرب، ليخلّص الكون من شرورها.. كان يغني والعصا مازالت مرفوعة أمام وجهه:

ـ آني الدكر ابن الدكر ملك ملوك الأندلس!

واعترض سبيله بيومي العبيط، الذي كان مستلقيًا تحت ظل شجرة العمدة، ونهض واقفًا أمامه، واقترب منه، حتى كادت أنفه تلامس أنف ابن الدكر، وصاح وعيناه تضرمان نارًا من الوعيد والتهديد، وهو يشير إليه مهدّدًا بسبابته:

ـ اسمع يا وله.. كفر الدكر مكتفية بمهبول واحد.. وآني قاعد فيها.. شوفلك مطرح تاني!

وأسرع رجال الحاج بإلقاء القبض عليه، واقتادوه ثانية إلى المستشفى..

وجمع سيادة النائب فوزي الدكر الخلق في الجرن، وأعلن عن عزمة ونيته الزحف بجيوشه إلى الأندلس، ليستعيد مجد جده الكبير، فهتف الناس ودوت حناجرهم تهزّ أرجاء الكفر كله:

ـ يعيش الدكر ابن الدكر!

وأثنوا عليه، وقال نفر منهم ممن حضروا صدر شبابه:

ـ الحاج يعملها، ده كان بيسرق الجاموسة وصاحبها بيحلبها، ويخرج بها من الزريبة، كأنها علبة سجاير في سيالة جلابيته!

وقاطعه آخر ليس ليعارض حديثه بل ليزيده:

ـ إيوه امال.. والولية مراته الجنية، كانت بتروح تسرق معاه!

وصاح ثالث:

ـ هياخد ولاد الجنية معاه يفتحوا الأندلس!

بيد أن الأنباء الواردة من هناك تشير أن نفرًا من الجن غير قليل، اجتمعوا في دار كبيرهم، وشربوا الخمر ولعبوا الميسر، ورقصوا حتى ظهرت الخيوط الأولى من الصبح،فرحاً بانتصار ابنة مليكهم حُسن زاد، التي انتقم اللـه لها من الدكر المؤسس، وتقبل دعوتها، وانقطع نسله من الرجال، سوى من عيل لعبت النسوان بعقله وأطاحت به، وبات مقيمًا أبديًا في مستشفى الأمراض النفسية والعصبية، يُجهّز الجيوش، ويُعدّ الخطط، ويُدبّر المكائد والمؤامرات تمهيدًا لقيادة الجيوش الزاحفة نحو مُلك جده الضائع، وسحق النسوان، وغزو العالم كله، وإعلان وثيقة الدكر في الأمم المتحدة، التي تُخبر الكون بأكمله.. خلو كوكب الأرض من النسوان ومن كفر أبوعلي..

لكن احتفالات الجن قد توقفت بعدما هاج شبابهم، وأعلنوا الحرب على إنس البلد، انتقامًا لمقتل زنوبة على يد ابن فوزي الغتت عمدة الكفر الجديد.. كانت ثمة شائعات تتردّد في الكفر أن بطن زنوبة المنتفخة تحمل ابنًا سفاحًا منه، فأراد مداراة الفضيحة، وتخلّص منها رجاله، وألقوا جثتها عند المصرف الكبير.. وجاءت الحكومة تبحث عن القاتل، وأتى العمدة بالشهود من رجاله، الذين أقسموا بسيدي الطائر، وبحياة ستنا الكاتعة، وبنور عيونهم التي كانت تذرف الدموع الحارة على

الفقيدة، أن وراء تلك الجريمة جني من بني سهير، أغوى البنت المسكينة، وأوقعها في بئر الرذيلة، وعشمها بالزواج، لكنه تنصل ونكص عن وعوده، فهاجت البنت وهدّدته بأمها، وخاف الولد من الجُرسة والفضيحة وسط الجن، وواعدها عند المصرف الكبير ذات ليلة بعيدًا عن القرافة والبئر، وصنع ما صنع بحق الغلبانة..

يومها بكتها ستنا الكاتعة كما لم تبكِ من قبل، وأعلنت أن الخطر الداهم قادم لا محالة، ليس من جهة كفر أبوعلي، بل من الجن أقارب المغدورة.. وما هي سوى دقائق معدودة وشاهد الناس وهم واقفون كالتماثيل الخشبية زروعهم والنيران تلتهمها، وديارهم والرياح تقتلعها من جذورها، حتى قصر الحاج فوزي الدكر المنيف لم تعصمه أسواره من الريح العاتية التي جعلت عاليه سافله، كانوا يشاهدون الخراب الزاحف عليهم كالطوفان بعيون مشدوهة مرتعبة، كانوا يركضون نحو العشة المقدّسة، التي لم تمسها نيران ولم تمرّ بجوارها رياح، فصارت البناء الوحيد القائم في الكفر، بعدما أمست بيوته أثرًا بعد عين، كانت هيئاتهم كهيئة بيومي العبيط، الذي كانوا يطوفون خلفه وسط الخراب، وهو يصيح بزمارته، وممسكًا عصاه بيده الأخرى، معلنًا الزحف المقدّس ناحية الأندلس، والقوم من خلفه يهتفون:

- يعيش بيومي.. يعيش!

تمت